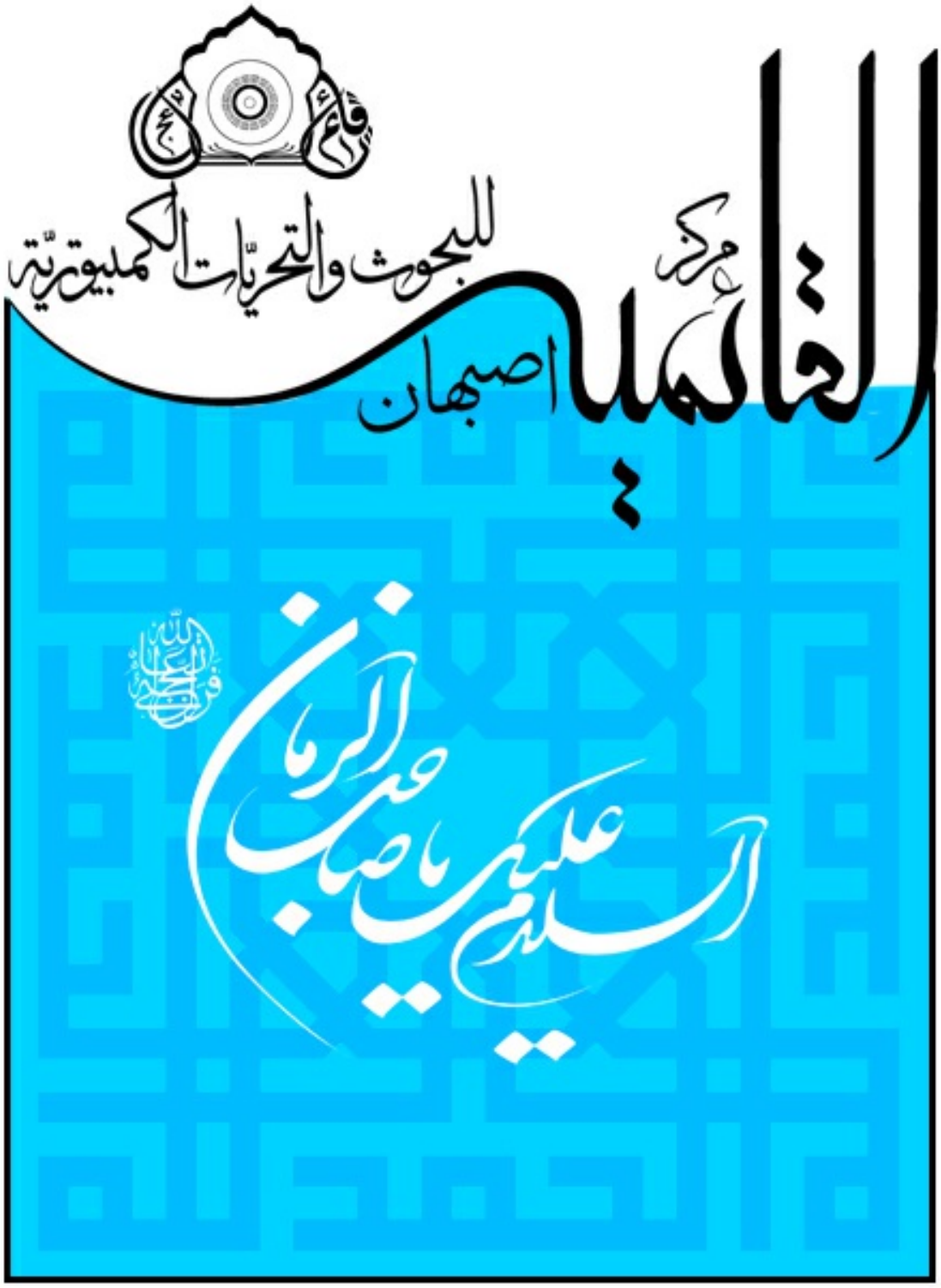

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

مُعين الخطباء

محاضرات في العقيدة والأخلاق

تأليف

الشيخ كاظم البهادلي

الجزء الثاني

الإصدار ٢

بسم الله الرحمن الرحیم

معين الخطباء (محاضرات في العقيدة والأخلاق)

كاتب:

كاظم البهادلى

نشرت في الطباعة:

العتبة الحسينية المقدسة

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس 5

معين الخطباء(محاضرات فى العقيدة والأخلاق) المجلد 2 12

اشارة 12

اشارة 12

المحاضرة الأُولى: التوبة 20

المحاضرة الثانية: التقوى 32

المحاضرة الثالثة: الاستغفار وآثاره 45

اشارة 45

حقيقة الاستغفار 50

آثار الاستغفار 51

اشارة 51

الأثر الأوّل: غفران الذنوب 52

الأثر الثانى: كثرة الأمطار 53

الأثر الثالث: المدُّ المالى 54

الأثر الرابع: المدّ بالبنين 55

الأثر الخامس والسادس: جعل الجنّات والأنهار 56

المحاضرة الرابعة: عداوة الشيطان لبنى آدم 59

اشارة 59

إبليس عدوٌ لا كالأعداء 64

طُرُق الشيطان وخطواته 65

المحاضرة الخامسة: هَجْرُ القرآن 73

اشارة 73

الهَجْر لغة: 79

الهَجر اصطلاحاً 79
اشارة 79
النحو الأول: عدم قراءته 79
النحو الثانی: عدم التدبّر فیه 80
النحو الثالث: عدم التطبیق وترک العمل بالمضمون 82
المحاضرة السادسة: التوسّل حقیقة قرآنیة 89
اشارة 89
الوسیلة لُغةً 93
الوسیلة اصطلاحاً 94
المحاضرة السابعة: الصبر 102
اشارة 102
الصبر 106
اشارة 106
1 - الصبر علی الطاعة 106
2 - الصبر علی عدم معصیة الله 107
3 - الصبر علی البلاء والمصائب 107
المحاضرة الثامنة: العبادة 114
اشارة 114
فما هو الهدف إذن ؟ 118
المحاضرة التاسعة: عبادة الحَرْف 126
اشارة 126
المجموعة الأُولی: المتّقون 130
المجموعة الثانیة: الکافرون 130
المجموعة الثالثة: المنافقون 130
اشارة 130

ما هو الحرف؟ ----- 131
ما هو السبب فی عبادة الحرف؟ ----- 133
ما المقصود من الخیر والفتنة فی الآیة الشریفة؟ ----- 135
الخُسران المبین ----- 136
المحاضرة العاشرة: عباد الرحمن ----- 140
اشارة ----- 140
وصف الله تبارک وتعالی: ----- 144
اشارة ----- 144
الصفة الأُولی: عباد الرحمان ----- 146
الصفة الثانیة: التواضع ----- 148
علامات المتواضعین: ----- 152
المحاضرة الحادیة عشرة: الإیثار ----- 158
اشارة ----- 158
الإیثار: ----- 163
ولهذا سُمّیت هذه اللیلة التاریخیة بلیلة المبیت. ----- 163
المحاضرة الثانیة عشرة: الرحمة ----- 170
اشارة ----- 170
الرَّحمة: ----- 173
رحمة الله عزّ وجلَّ لمخلوقاته: ----- 173
موجبات الرَّحمة ؟ ----- 174
موانع الرَّحمة ؟ ----- 175
اشارة ----- 175
الأمر الأول: رحمة الأیتام ----- 175
الأمر الثانی: رحمة الضعیف ----- 178
الأمر الثالث: الشفقة علی الوالدین ----- 179

المحاضرة الثالثة عشرة: القناعة ـ 181
اشارة ـ 181
القناعة: ـ 184
فضل القناعة: ـ 184
نتائج القناعة: ـ 186
من قصص القناعة: ـ 186
المحاضرة الرابعة عشرة: الرضا بقضاء الله ـ 191
المحاضرة الخامسة عشرة: برّ الوالدين وعقوقهما ـ 201
المحاضرة السادسة عشرة: صِلَة الرَحِم ـ 215
اشارة ـ 215
مَن هم الأرحام ؟ ـ 219
آثار قطيعة الرحم: ـ 220
آثار صلة الرحم ـ 222
أقل ما يتحقق به صلة الرحم ـ 223
أفضل صور صلة الرحم ـ 223
المحاضرة السابعة عشرة: وجوب تنصيب الإمام ـ 227
اشارة ـ 227
الإمامة عند الشيعة: ـ 232
الأدلّة على هذا الأصل ـ 233
المحاضرة الثامنة عشرة: سورة العصر ـ 241
اشارة ـ 241
القَسَم ومعناه: ـ 244
أركان القسم: ـ 245
القسم فى سورة العصر: ـ 246
ما هو العصر: ـ 246

جواب القسم فی السورة المبارکة: 249
الإستثناء فی السورة المبارکة: 251
المحاضرة التاسعة عشرة: قسوَة القلوب 257
اشارة 257
قسوةُ القلوبِ وأسبابها: 261
قلوبٌ تشبه الحجارة: 265
الحجارةُ ألين من قلوبِ بنی إسرائيل: 266
المحاضرة العشرون: الدعاء سلاح المؤمن 272
اشارة 272
سبب نزول الآية المبارکة 277
أُسلوب الآية وبيانها 277
الخلاصة: 278
القُرب الإلهی 279
شروط استجابة الدُعاء 280
الاستجابة لله والإيمان به عزّ وجلّ 286
المحاضرة الحادية والعشرون: أنصار الله عزّ وجلّ 290
اشارة 290
کيف نکون أنصار اً لله عزّ وجلّ 295
مَن هم الحواريون ؟ 297
حواريّو الإسلام وأنصاره 298
المحاضرة الثانية والعشرون: إحياء الموتی 304
اشارة 304
السؤال طلباً لليقين 308
هل الواقعة علی نحو الحقيقة أو المثال ؟ 310
الطيور الأربعة 312

ظهور الإعجاز وتجليّه لإبراهيم عليه السلام 314
استفادة فقهية 315
الولاية التكوينية عند أهل البيت عليهم السلام 316
ختام الآية 316
المحاضرة الثالثة والعشرون: مقوّمات الزعامة الإلهية 318
اشارة 318
نهضة الأُمم بامتثال أوامر أنبيائها عليهم السلام 323
الاعتراض على الاختيار الإلهى 324
طالوت وكيفيّة اختياره 325
الإصطفاء الإلهى لطالوت 326
علامة ملک طالوت 328
المحاضرة الرابعة والعشرون: ناقة الله 331
اشارة 331
الأمر الأول: مَن هو ثمود؟ 335
الأمر الثانى: ما هو سرّ التعبير ب - (أخاهم صالحاً)؟ 336
الأمر الثالث: الدعوة إلى التوحيد 338
المحاضرة الخامسة والعشرون: أوهن البيوت 345
اشارة 345
أولياءٌ من دون الله 349
الإعجاز فى هذا التشبيه 350
مواصفات هذا البيت 353
الله يعلم بمَن يتوّلى غيره عزّ وجلّ 354
إشكال البعض على التشبيهات القرآنية 355
المحاضرة السادسة والعشرون: استدراج العُصاة 357
اشارة 357

أسبابُ الغفلة والنسيان 361
جزاء الغفلة والنسيان 362
الاستدراج عقوبة أم تنبيه ؟ 363
حقيقة الإستدراج 364
الأخذ بغتةً ونتيجته 365
المحاضرة السابعة والعشرون: الحياة الدنيا متاع الغرور 371
المحاضرة الثامنة والعشرون: حسن الظنّ وسُوء الظنّ 383
المحاضرة التاسعة والعشرون: الحَسَد 394
المحاضرة الثلاثون: معجزات الإمام الحسين عليه السلام 406
فهرست أهم المصادر 418
تعريف مركز 441

معین الخطباء (محاضرات فی العقیدة والأخلاق) المجلد 2

اشارة

سرشناسه:بهادلی، احمدکاظم

عنوان و نام پدیدآور:معین الخطباء: محاضرات فی العقیده والاخلاق/ تالیف کاظم البهادلی

مشخصات نشر: کربلای معلی - عراق

ناشر: العتبةالحسینیةالمقدسه، قسم الشوون الفکریه والثقافیه 1435

مشخصات ظاهری:3ج

یادداشت:عربی.

یادداشت:کتابنامه.

عنوان دیگر:محاضرات فی العقیده والاخلاق.

موضوع:خاندان نبوت -- فضایل

موضوع:Muhammad, Prophet, d. 632 -- Family -- Virtues

موضوع:چهارده معصوم -- فضایل -- مقاله ها و خطابه ها

موضوع:Fourteen Innocents of Shiite -- Virtues -- *Addresses, essays, lectures

شناسه افزوده:مرکز الدراسات التخصصیه فی النهضه الحسینیه. قسم الشوون الفکریه فی العتبه الحسینیه المقدسه

ص: 1

اشارة

بسم الله الرحمن الرحيم

ص :3

معين الخطباء

محاضرات فى العقيدة والأخلاق

الجزء الثانى

تأليف

الشيخ كاظم البهادلى

المطبعة

الصنوبر

الإخراج والمتابعة الفنية

على حسين مطر

اصدار

مركز الدراسات التخصصية

فى النهضة الحسينية

رحمه الله رحمه الله رحمه الله. markazadersat.net

info@markazadersat.net

ص:4

بسم الله الحرمن الرحيم

ص:5

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أكرمنا بسيّد أنبيائه وأشرف

أصفيائه محمد، والنجباء من عترته وأوصيائه، حجج الله

فى أرضه وسمائه، صلوات الله عليه وعليهم ما استنارت

بحبّهم قلوب أحبّائه، وانشرحت بولائهم صدور أوليائه.

وبعد، هذا هو الجزء الثانى من كتابى (مُعين الخطباء).

ص:7

المحاضرة الأولى: التوبة

ص:9

يا قتيلاً أصبحتْ دارُ العُلى بعده قفرَى وربعُ الجُود مَحْلا

ما حسبنا أن نرى مِن بَعدهِ للتُقى مغنًى وللجود محلاّ

لا خطت بعدكَ فرسانٌ ولا جرّد الشجعان يومَ الرّوعِ نصلا

ما نعتک الخلقُ لكن قد نعت فيک إحساناً ومعروفاً وبذلا

بأبى المقتول عطشاناً وفى كفّه بحر يروّى الخلق جملا

بأبى العارى ثلاثاً بالعَرى ولقد كان لأهلِ الأرضِ ظِلاً

وإذا عاينت أهليه ترى نُوَبَاً فيها رزايا الخلقِ تُسلى

من أسيرٍ وسدّتهُ البزل حلساً وقتيلٍ وسَّدته البيدُ رملا

وبنفسى من غدت نادبةً جَدّها والدمعُ فى الخدّ استهلاّ

جدّ لو تنظرنا إذ قَرَّبوا نحونا للسير أنقاضاً وهُزلاً

لرأَت عيناک خَطْبَاً فادحاً جلَّ أنْ يلقى لهُ الناظرُ مثْلا(1)

1- (1) القصيدة للحاج هاشم الكعبى رحمه الله، قال عنه فى أدب الطفّ (ج 6، ص 218 - ص 219): «الحاج هاشم بن الحاج حردان الكعبى الدورقى. ولد ونشأ فى (الدورق) - مسكن عشائر كعب فى الأهواز - ثم سكن كربلاء والنجف، توفى سنة 1231 ه -. الكعبى نسبة إلى قبيلة كعب العربية التى تسكن الأهواز ونواحيها، من فحول الشعراء وفى طليعتهم، ونظم فى رثاء أهل البيت عليهم السلام فأكثر وأبدع وأجاد، واحتجّ وبرهن وأحسن وأتقن، وكلّ شعره من الطبقة الممتازة. تحفظ الخطباء شعره وترويه فى مجالس العزاء وتشنف به الأسماع. له ديوان أكثره فى الأئمة عليهم السلام... وشعره يعاد ويكرر فى محافل سيد الشهداء، ويحفظه المئات من رجال المنبر الحسينى، وهو مقبول مستملح، بل نجد الكثير يطلب تلاوته وتكراره وكأن عليه مسحة قبول، وهذا ديوانه الذى يضمّ بين دفتيه عشرين قصيدة حسينية أو أكثر، لقد طُبع وأُعيدت طبعاته والطلب يتزايد عليه، فهذه رائعته التى عدد فيها مواقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام البطولية تهتزّ لها القلوب وتدفع بالجبناء ليكونوا شجعاناً، وتنهض بهممهم ليصبحوا فرساناً، وهى تزيد على 150 بيتاً».

هذا لسان حال العقيلة زينب عليها السـلام مع جدّها الرسول صلى الله عليه و آله. أمّا لسان حال الموالين مع بعضهم البعض فی مثل هذه الليلة كمايصفه الشاعر:

(بحرانی)

إلبس اثياب السود واهمل دمعة العين هلّ الهلال البيه راح ابكربله احسين

هلّ الهلال وبيه مرتسمه الحمره من دم أبو السّجاد يوم اگطعوا نحره

اگصد الماتم بالبكی اوساعد الزهره اوكثّر يهل ترجه الشفاعة اهناک الونين

هل يوم يحضر ماتم المظلوم جدّه يسمع الناعی لونعه اويبچی الفگده

ويصيح آيبنی البگه معفور خدّه فوک التراب وچبدته امن العطش نصّين

يحسين ما تبرد الجمره ابصبّ الدموع ليل اونهار أنحب اوگلبی اعليک موجوع

يحسين خيل الرضرضت صدرک والضلوع رضّت اضلوعی ريت دونک بالميادين

***

قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ (1).

عرّف العلماء التوبة بأنّها: الرجوع من الذنب القولى والفعلى، أو هى ترک المعاصى فى الحال، والعزم على ترکها مستقبلاً، وتدارک ما سبق من التقصير. وهى ضدّ الإصرار(2).

وتورُّط الإنسان فى معصية الله تبارک وتعالى نوع من أنواع الضعف؛ لأنَّ الذنب دليل الضعف والقصور، فمثلاً شخصان يعيشان فى جوٍّ واحدٍ، وهما أخوان من أب وأُمّ، ويعيشان فى بيتٍ واحدٍ، ولكنّ أحدهما يعانى من الضعف فيتورّط فى المعصية؛ لأنَّ إيمانه ضعيف، والآخر عنده مناعة تجاه المعصية وإيمانه قويّ فلا يتورّط بها.

ومَن يُذنب فإنّ له أحد موقفين: موقف الإصرار وتكرار الذنب، وموقف آخر هو موقف العودة والتوبة. قد يذنب الإنسان يوماً، ولكنّه يعود وينتزع نفسه من مخالب المعصية.

ومن هنا كان على الإنسان اتّخاذ الموقف الثانى، وهو موقف العودة والتوبة والندم والاستغفار، وهكذا يصنع كُلّما أذنب، حتّى لو تكررت منه المعصية، عليه أن يعود ويستغفر، ويسأل الله تبارک وتعالى العون والمساعدة على اجتناب المعاصى.

روى أنَّه قال رجل للنبى صلى الله عليه و آله: يا رسول الله إنّى أذنبت، فقال:

«استغفرِ الله. فقال: إنّى أتوب ثُمَّ أعود. فقال: كُلّما أذنبت استغفر الله. فقال: إذن، تكثر ذنوبى، فقال: عفو الله أكثر، فلا تزال تتوب حتّى يكون الشيطان هو المدحور»(3).

ولكن على الإنسان المؤمن أن لا يؤخّر التوبة؛ فإنّ تأخير التوبة اغترار كما روى عن

1- (1) التحريم: آية 8.

2- (2) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص 268.

3- (3) وسائل الشيعة: ج 16، ص 81، باب تجديد التوبة، ح 5.

صادق العترة الطاهرة صلوات الله عليهم أجمعين(1).

ثمّ لو تأمّلنا فی الآية نجدها تأمر الذين آمنوا، حيث قالت: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ....

فهل هذا الأمر محمولٌ على وجوب التوبة، أم محمولٌ على استحبابها وندبها؟

الجواب: إنَّ التوبة واجبة بالإجماع بين المسلمين، وهی واجبة سواء كانت من الذنوب الكبيرة أم من الذنوب الصغيرة، بلا فرق فی ذلک.

ويمكن الاستدلال على وجوبها بما يأتی:

أولاً: الدليل القرآنی، وهو عبارة عن مجموعة من الآيات الشـريفة، كقوله تعالى: وَ تُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (2)، وقوله تبارک وتعالى: وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ (3)، مضافاً للآية التی صدّرنا بها المحاضرة.

ثانياً: الدليل الروائی، فقد روی عن إمامنا الرضا عليه السلام أنَّه قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه و آله اعترفوا بنعم الله، وتوبوا إلى الله من جميع ذنوبكم...»(4).

ثالثاً: الدليل العقلی، وهو ما ذُكر فی عدّة كتب، منها: الباب الحادی عشـر، حيث قال الشارح: «أو هی [التوبة] واجبة لوجوب الندم إجماعاً على كلّ قبيح وإخلال بواجب... لكونها دافعة للضرر، ودفع الضرر - وإن كان مظنوناً - واجب، فيندم على القبيح...»(5). وعليه فالإجماع مع الأدلّة الشرعيّة والعقليّة قائمٌ على وجوب التوبة(6).

1- (1) انظر: كنز الفوائد: ص 195.

2- (2) النور: آية 31.

3- (3) هود: آية 3.

4- (4) بحار الأنوار: ج 48، ص 153.

5- (5) شرح الباب الحادی عشر: ص 93.

6- (6) فی رحاب التوبة: ص 41 - ص 45.

ثمّ الآية قالت: (نصوحاً)، فما معنى نصوح؟

وردت هذه الكلمة فى التفاسير، وكانت مورد بحث واهتمام المفسرّين، والذى كادوا أن يتفقوا عليه هو أنَّ المراد من التوبة النصوح: التوبة بإخلاص.

وأمّا كيف أنَّ الإنسان يحصل على التوبة النصوح؟ أى كيف يُحقّق هذا الأمر وهو التوبة النصوح؟ فهذا هو المهم وهذا هو المطلوب.

ولعلَّ ذلک يتحقق بما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة أنَّ قائلاً قال بحضرته عليه السلام: استغفر الله، فقال له:

«ثكلتک أُمُّک! أتدرى ما الاستغفار؟ إنَّ الاستغفار درجة العليّين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ، أولها: الندم على ما مضى. الثانى: العزم على ترک العود إليه أبداً. والثالث: أن تؤدّى إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله سبحانه أملس ليس عليک تبعة. الرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليک ضيّعتها فتؤدّى حقّها. والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذى نبت على السحت، فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينها لحم جديد. والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية؛ فعند ذلک تقول استغفر الله»(1).

فيتّضح من خلال هذا الحديث الشريف الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام شروط التوبة النصوح، فإذا حقَّقها الإنسان بإخلاص، فقد أدّى وامتثل الأمر بوجوب التوبة النصوح وعُدَّ تائباً نصوحاً، وإلاّ فلا. ويمكن تفصيل الشروط المتقدِّمة كالتالى:

أولها: الندم على ما مضى، كما عبّر الإمام زين العابدين عليه السلام فى مناجاته:

«إلهى إن كان الندم على الذنب توبة، فإنّى وعزتک من النادمين»(2).

ثانيها: العزم على ترک العود إليه أبداً، بأن يتعهّد أن لا يعود إلى ما ارتكبه سابقاً.

1- (1) نهج البلاغة - قصار الحكم -: الرقم 412.

2- (2) الصحيفة السجادية (مناجاة التائبين): ص 402.

وثالثها: أن يؤدّى إلى المخلوقين حقوقَهم بأن لا يترك حقّاً من حقوق الناس عليه، سواء كانت ماليّة أم غيرها من غيبة أو غير ذلک حتى يأتى يوم القيامة أملس ليس عليه تبعة للآخرين.

ورابعها: أن يعمد إلى كلِّ فريضةٍ عليه ضيّعها فيؤدّى حقّها، من صلاة أو صوم أو حجّ، إلى غير ذلک ممّا فى ذمته.

وخامسها: أن يعمد إلى اللّحم الذى نبت على السحت فيُذيبه بالأحزان، بأن يسهر ليله ويظمأ فى نهاره إلى أن يذيب ذلک اللحم الذى نشأ على لقمة الحرام.

وسادسها: أن يُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذاقه حلاوة المعصية. فالإنسان المذنب كما استأنس بالمعصية وحلاوتها سابقاً يأتى الآن ليذيق الجسم والروح آلام الطاعات، بأن يُتعب نفسه فى العبادات والطاعات والصبر عليها.

فإذا تمّت هذه الشروط الستُّ عندئذ يتمكّن الإنسان أن يقول: أستغفر الله، ويكون قد حقّق التوبة التى أرادها الله تبارک وتعالى.

فإذا حقَّق الإنسان ذلک سوف تترتّب ثمرات ونتائج مهمّة، أشارت الآية المباركة إلى بعضها، وتركت البعض الآخر لتشير إليه آياتٍ أُخر، بالإضافة إلى الأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السلام.

وأما الثمرات المترتّبة على التوبة النصوح فى هذه الآية، فهى:

الأُولى: تكفير السيئات؛ إذ قالت الآية: عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ....

الثانية: دخول الجنات، حيث صرّحت الآية: (ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ.

وهناک ثمرات ونتائج أُخرى قد تناولتها بعض الآيات الكريمة والروايات الشريفة.

منها: تبديل السيئات بالحسنات، أشارت إليه الآية المباركة: إِلاّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ

وَ عَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِکَ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ کانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً1.

ومنها: حبُّ الله لهم؛ إذ قال تعالى: إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ (1).

ومنها: نزول الرحمة على التائب، وقد أشار إلى ذلک الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«التوبة تستنزل الرحمة»(2).

ومنها: طهارة القلب، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«التوبة تطهّر القلوب، وتغسل الذنوب»(3). إلى غير ذلک من الثمرات والنتائج الدنيوية والأُخروية.

ولا فرق حينئذٍ بين أن يتوب الإنسان قبل سنة من موته، وبين توبته حينما تظهر علامات الموت؛ لِمَا ورد عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«مَن تاب إلى الله قبل موته بسنة تاب الله عليه، ثُمَّ قال: ألا وسنة كثير، مَن تاب إلى الله قبل موته بشهر تاب الله عليه، وقال: شهر كثير، مَن تاب إلى الله قبل موته بجمعة تاب الله عليه، قال: وجمعة كثير، مَن تاب إلى الله قبل موته بيوم تاب الله عليه، قال: ويوم كثير، مَن تاب إلى الله قبل موته بساعة تاب الله عليه، ثُمَّ قال: وساعة كثير، مَن تاب إلى الله قبل أن يغرغر بالموت تاب الله عليه»(4).

المهم أنَّ الإنسان يخلص فى توبته إلى الله تبارک وتعالى، ويخرج من الدنيا وهو نادم على ما عمله من أعمال لم تُرضِ الله تبارک وتعالى.

ومصداق التائب توبةً نصوحاً، النادم قبل أن تغرغر روحه بالموت، الحرّ بن يزيد الرياحى يوم جعجع بالحسين عليه السلام فى ألف فارسٍ ليحبسه عن الرجوع، حينها استقبلهم الإمام الحسين عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

«إنّها معذرة إلى الله عزّ وجلّ وإليکم،

1- (2) البقرة: آية 222.

2- (3) عيون الحكم والمواعظ: ص 43. مستدرک الوسائل: ج 12، ص 129.

3- (4) مستدرک الوسائل: ج 12، ص 129.

4- (5) الكافى: ج 2، ص 440، ح 2، وفيه: (قبل أن يعاين الموت).

وإنّی لم آتکم حتّی أتتنی کتبکم وقدمِت بها علیَّ رسُلُکم: أن أقدم علینا فإنَّ لیس لنا إمام، ولعلَّ الله یجمعنا بک علی الهدی. فإن کنتم علی ذلک فقد جئتکم، فأعطونی ما أطمئنّ به من عهودکم ومواثیقکم».

فقال الحرّ: ما أدری ما هذه الکتب التی تذکرها؟ فأمر الحسینُ عقبة بن سمعان، فأخرج خرجین مملوءین کتُباً، وهی کُتب أهل الکوفة تشکو للحسین ظلم یزید، ویدعونه للقدوم علیهم لیکون إمامهم.

ولم یقتنع الحرّ بکلِّ هذا الکلام، وصمّم علی قطع المسیر علی أبی عبد الله علیه السلام، إلی أن وصل یوم عاشوراء، ورأی القوم مُصرّین علی قتال الحسین علیه السلام، حینئذٍ قال لعمر بن سعد: أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: إی والله، قِتالاً أیسره أن تسقط الرؤوس، وتطیح الأیدی. فأخذ الحُرّ یقول: إنّی أُخَیِّر نفسی بین الجنّة والنار، فو الله، لا أختار علی الجنّة شیئاً، ولو قُطّعت وحُرّقت، ثُمَّ ضرب فرسه، فلحق بالحسین، وجاز علی عسکر ابن سعد واضعاً یده علی رأسه، وهو یقول: اللَّهُمَ إلیک أنبتُ فتب علیَّ، فقد أرعبت قلوب أولیائک، وأولاد نبیّک، ثُمَّ قال للحسین علیه السلام: جُعلت فداک أنا صاحبک الذی حبستک عن الرجوع، وسایرتک فی الطریق، وجعجعت بک فی هذا المکان، وما ظننت أنّ القوم یردّون علیک ما عرضته علیهم، وأنا تائب إلی الله ممّا صنعت، فهل تری لی من توبة؟ فقال له الحسین علیه السلام: «نعم یتوب الله علیک»(1).

وعندما رمی ابن سعد سهماً نحو مخیم الحسین علیه السلام وصاح: اشهدوا لیَّ عند الأمیر إنّی أول مَن رمی. فرمی أصحابه کلّهم، فلم یبقَ من أصحاب الحسین أحد إلاّ أصابه سهمٌ من سهامهم، فقال الحسین علیه السلام لأصحابه:

«قوموا رحمکم الله إلی الموت الذی لا بدّ منه، فإنَّ هذه السهام رُسل القوم إلیکم... فقال له الحرّ: یا بن رسول الله، کنت أوّل خارج

1- (1) مثیر الأحزان: ص 44.

علیک فأذن لی لأکون أوّل قتیل بین یدیک، وأوّل مَن یصافح جدَّک غداً»(1).

فأذن له الحسین علیه السلام، فتقدّم وهو یقول:

إنّی أنا الحرّ ومأوی الضیفِ أضرب فی أعناقکم بالسیفِ

عن خیرِ مَن حلَّ بأرض الخیفِ

فقاتل قتالاً شدیداً حتّی قتل أکثر من أربعین فارساً وراجلاً، وبعدما عُقِر فرسه، بقی یُقاتل راجلاً، فحملت علیه الرجّالة وتکاثروا علیه حتّی قتلوه، فاحتمله أصحابُ الحسین ووضعوه بین یدیه، فجعل الحسین یمسح وجهه ویقول: «أنت الحرّ کما سمتک أُمّک، وأنت الحرّ فی الدنیا والآخرة»(2).

هُوه او جاه او وگف یمّه المشکّر وشافه اعلی الثره مرمی امعفر

مسح وجهه وگله أنت صدگ حرّ ورد المرکزه والدمع منثور

لکن لو سألتنی عن بُعد قبر الحرّ عن سائر الشهداء، لأجبتک: إنّ السبب فی ذلک أنّ الحرّ لم یُقطع رأسُه کما قُطعت رؤوس أصحاب الحسین علیه السلام، بل حملته عشیرته عندما أمر ابن سعد بفصل الرؤوس عن الأجساد، قامت بنو ریاحٍ وقالت: والله، لا یُقطع رأسُ زعیمنا وأیدینا علی قوائم سیوفنا، فقال ابن سعد: احملوا جسد شیخکم، فحملته عشیرته ودفنوه فی هذا المکان.

هذا وزینب واقفة تنظر إلی الحرّ وقد حملته عشیرته، والحسین علیه السلام مُلقی علی وجه الأرض، وکأنّی بها تنادی: وا حسیناه، وا غریباه(3).

1- (1) بحار الأنوار: ج 45، ص 13.

2- (2) ثمرات الأعواد: ج 1، ص 184 - ص 188.

3- (3) مجمع مصائب أهل البیت علیهم السلام: ج 1، ص 125 - ص 127.

العشيره شالته ابحر الظهيره الكلّ منهم عليه شالته الغيره

بس ظلوا الماعدهم عشيره ضحايه بالشمس من غير تغسيل

والله العشيره اشلون تنفع منها اليطيح اعليه تفزع

اوحالاً على الروس ايتشيّع وانه اخوتى وين المشعشع

كلّ منهم اعلى الثرى موزع جسمه وچتل حتّى الرضَّ ع

وبلا دفن خلوهم اجمع

(أبوذية)

يحادى لا تسج بالظعن بيداى دليلى الفگد أبو السجّاد بيداى

ريّض خل اغسل احسين بيداى وادفنه لا يظل جسمه رميّه

***

ليس الغريب غريب الأهل والوطن بل الغريبُ غريب الغسلِ والكفنِ

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:20

المحاضرة الثانية: التقوى

ص:21

لستُ أنساهُ مُفرداً بين جمعٍ أبرزوا فيه كامِنَ الأحقادِ

يحطمُ الجيشَ رابطَ الجأشِ حتّى صَبغَ الأرضَ مِنْ دماء الأعادى

لم يزلْ يحصدُ الروؤسَ بعضبٍ أبداً للدماءِ فى الحربِ صادى

وإذا بالنداء عَجّلْ فلبّى وهوى للسجودِ فوقَ الوهادِ

عجباً للسماء لم تهوِ حزناً فوقَ وجهِ البسيط بعد العمادِ

عجباً للمهادِ كيف استقرّتْ ونظام الوجود تحت العوادِى

عجباً للنجومِ كيف استنارت لم تغبْ بعد نورِها الوقّادِ

حيثُ لولا وجودُه لأُهيلت ولساختْ وبُرِقِعت بسوادِ

ومُثيرُ الأشجان رزءُ الأيامى مُذ وعت بالصهيل صوت الجوادِ

برزت للقاء تعثر فى الذَّيلِ ودامى الدموعِ شبه الغوادى

فرأت سرجه خليّاً فنادت تلک وا والدى وذى وا عمادى

وغدت وُلَّهاً بغير شعورٍ نحو مثوى بقيّة الأمجادِ

فرأت فى الصعيد مُلقىً حماها هشّمت صدرَه خيولُ الأعادى

فدعت والعيون عبرى وفى القلب لهيبٌ من الأسى ذو اتّقادِ

أَحِمى الضايعات بعدک ضِعنا فى يد النائبات حسرى بَوادى

أوَ ما تنظرُ الفواطمَ فى الأسرِ وستر الوجوه منها الأيادى

ثُكّلاً ما ترى لها من كفيلٍ حُسَّراً بين عُصبة الإلحادِ

ثمّ تدعو فما ترى من مجيبٍ لِنداها غيرَ الصَدى فى الوادى(1)

1- (1) القصيدة للشيخ عبد الحسين شكر رحمه الله، قال عنه السيّد جواد شبّر رحمه الله فى (أدب الطفّ: ج 7، ص 187 - ص 188): «الشيخ عبد الحسين بن الشيخ أحمد بن شكر النجفى بن الشيخ أحمد بن الحسن بن محمد بن شكر الجباوى النجفى. توفى بطهران سنة

1285، وكان والده الشيخ أحمد من العلماء

تصیح بصوتها یحسین وینک جاوبنی وصِد لیَّ ابعینک

یخویه ذاب گلبی من ونینک یخویه ما هوگلبی صخر مرمر

***

ناداها ابضعیف الصوت یختی مهو حچیچ کسر گلبی اسکتی

ینور العین خلیّنی ابمهجتی أعالجها تری گلبی تمرمر

***

یخویه یابس امن العطش چبدی یخویه والترابه احرگت زندی

یخویه والشمس حرگت خدّی دفیلی بطرف ثوبچ عن الحَرّ

***

قال تعالی: وَ لَقَدْ وَصَّیْنَا الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ إِیّاکُمْ أَنِ اتَّقُوا اللّهَ (1).

التقوی معناها: أن لا یراک الله حیث نهاک، ولا یفقدک حیث أمرک(2). أو بمعنی آخر: هی الخشیة والخوف من الله عزّ وجلّ، فهی أیضاً اتّقاء ما یجرُّ الإنسان إلی النار من خلال امتثال أوامر الله واجتناب نواهیه، والتخلّی عن کلّ رذیلةٍ، والتحلّی بکلّ فضیلةٍ.

1- (1) النساء: آیة 131.

2- (2) انظر: بحار الأنوار: ج 67، ص 285، حیث فسّرها الإمام الصادق علیه السلام بهذا المضمون.

ومن هنا جعل النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله الکفَّ عن المحارم ثمرة الدین، وذلک عندما قال صلی الله علیه و آله:

«جاءنی حبیبی جبرئیل، وقال: یا أحمد، إنّ مثلَ هذا الدین کمثل شجرةٍ ثابتة، الإیمان أصلها، والصلاة عروقها، والزکاة ماؤها، والصوم سعفها، وحسن الخلق ورقها، والکفّ عن المحارم ثمرها، فلا تکمل الشجرة إلاّ بالثمر، کذلک الإیمان لا یکمل إلاّ بالکفّ عن المحارم»(1).

وروی أنَّ رجُلاً استوصی رسولَ الله صلی الله علیه و آله، فقال صلی الله علیه و آله:

«... وقد أجمع الله ما یتواصی به المتواصون من الأوّلین والآخرین فی خصلةٍ واحدةٍ وهی التقوی، قال الله عزّ وجلّ : وَ لَقَدْ وَصَّیْنَا الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ إِیّاکُمْ أَنِ اتَّقُوا اللّهَ ،

وفیه جماع کلّ عبادةٍ صالحةٍ، وبه وَصَلَ من وَصَلَ إلی الدرجات العلی، والرتبة القصوی، وبه عاش مَن عاش بالحیاة الطیبة والأُنس الدائم، قال الله عزّ وجلّ : إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنّاتٍ وَ نَهَرٍ * فِی مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِیکٍ مُقْتَدِرٍ »(2).

ثُمَّ إنّ المراد بالآیة أنَّ الأمر بتقوی الله شریعة عامّة لجمیع الأُمم لم یلحقها نسخ ولا تبدیل، بل هو وصیة الله فی الأولین والآخرین(3).

فالوصیة بتقوی الله أمر ضروری بحیث أکّدت الآیة أنّ الیهود والنصاری وکلّ مَن کان له کتاب سماوی قبل المسلمین قد طُلب منهم جمیعاً - کما طُلب مِنکم أیها المسلمون - مراعاة التقوی.

فهذه الآیة علی غرار بعض الآیات الأُخری التی تُشیر إلی ثبوت بعض الأحکام فی الشرائع السابقة، کما فی قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُتِبَ عَلَیْکُمُ الصِّیامُ کَما کُتِبَ

1- (1) بحار الأنوار: ج 6، ص 109.

2- (2) تفسیر البرهان: ج 2، ص 339.

3- (3) التفسیر الکبیر: ج 11، ص 70.

عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتَّقُونَ (1).

وللتقوى درجات متعدّدة تختلف باختلاف قوّة الإنسان وضعفه، فنجد البعض من الناس له من التقوى ما يُؤدّى به إلى الاجتناب عن كلّ ما يلزم منه ويؤدّى بصاحبه إلى الفساد، وتجد البعض منهم يجتنب عن كُلِّ شبهة؛ لاحتمال وجود الفساد فيها.

والبعض الآخر يترک ما لا بأس به مخافة ما به بأس.

وتجد البعض منهم يملک من مراتب التقوى الدرجات العليا، فيجتنب عن كلّ ما ليس لله تبارک وتعالى.

والله سبحانه وتعالى يُعطى من الأجر على قدر مرتبة التقوى عند الإنسان، فالتقوى التى يمتلكها بعض العلماء كالشيخ مرتضى الأنصارى رحمه الله – صاحب المصنّفات الدقيقة التى ربّت مئات العلماء، بل عشرات المئات – هى من النوع العالى، بل العالى جدّاً.

فى أحد الأيام جاءه رجلٌ وقال له: شيخنا، لقد رأيت البارحة فى المنام عجباً! قال له الشيخ: ما رأيت؟

قال الرجل: لقد رأيت الشيطان وعلى رأسه قلنسوة ملونة بألوانٍ مختلفة، ورأيتُ بيده حبالاً غليظةً، وحبالاً دقيقة، وسلاسل من حديد طويلة وقصيرة، ورأيت سلسلةً طويلة مقطّعة فى سبع مواضع منها، فتقدّمت إليه، وقلت له: ما هذه الألوان التى تحملها معک؟ وما هذه الحبال والسلاسل التى بيدک؟

قال الشيطان: هذه هى مصائدى التى أصيد بها الناس، وأجرّهم بها إلى المهالک؛ فإنسان يأتينى باللون الأحمر، وآخر باللون الأخضر، وثالث باللون الأزرق، ورابع لا أتمكن أن أجرّه بالألوان، فأجرّه بالحبال الدقيقة، وآخرون بالحبال الغليظة، وآخرون من الزهاد والعُبّاد والعلماء بالسلاسل القصيرة والطويلة.

1- (1) البقرة: آية 183.

قال الرجل: فقلت له: فما هو اللون الذى تجلبنى به؟ وأين الحبل الذى تسحبنى بسببه؟

فقال الشيطان: إنّک وأمثالک لا تحتاجون إلى حبال، ولا إلى ألوان، وإنّما أجلبکم بإشارة خفيفةٍ.

فسأله الرجل قائلاً: وما هذه السلسة المقطّعة فى مواضع متعددة منها؟

قال الشيطان: إنّها سلسلة الشيخ مرتضى، فإنّى قد جذبته ليلة البارحة سبع مرات بهذه السلسلة، وهى أغلظ سلاسلى وأطولها، وفى كلّ مرةٍ يقطع الشيخ السلسلة تقطيعاً، ويصرعنى وينفلت من حبائلى، والآن أنا آيس منه، ومتحيّر ماذا أصنع معه؟!

فلمّا انتهى ذلک الرجل من نقل منامه إلى الشيخ، تبسّم الشيخ وقال: الحمدُ لله ربِّ العالمين. ثُمَّ قال الشيخُ: نعم، لقد كان من قصّتى البارحة: أنّ زوجتى أخذها الطلق وألم المخاض والولادة، ولم يكن عندنا فى البيت شىء يُكتفى به لأجل هذا الأمر، ففكّرت ماذا أصنع فى أمرها؟

فتذكّرت بأنّ هناک أمانة كانت لأحد الناس قد أودعها عندى، ويمكننى التصرّف فيها بالفحوى – فإنّه وإن لم يصرّح لى بالإذن فى التصرّف فيها إذناً صريحاً، لكنّ ظاهر حاله أنّه يأذن لى إذناً فحوائياً بالتصرّف فيها – ثُمَّ إرجاعها بعد الوسع إلى مكانها، ومن جهة ثانية كنت مضطرّاً إلى الاستفادة منها.

وعلى ذلک عزمت على التصرّف فى المال وقمت لأخذه حتّى أتصرّف فيه، لكنّى رجعت وقلتُ: لعلّ الله يُيَسِّرُ الولادة بدون حاجة إلى التصرّف فى هذا المال، ثُمَّ بعد مدّة عاودتنى الفكرة من جديد، فعزمت ثانية على التصرّف فى المال، لكنّى رجعت أيضاً دون أن آخذ المال، وفى مرّة ثالثة عاودتنى الفكرة وعزمت من جديد على أخذ المال والتصرّف فيه، لكنّى رجعت للمرّة الثالثة وانصرفت عن عزمى، وهكذا تردّدت إلى سبع مرات.

ثُمّ عزمت أخيراً على غضّ النظر عن المال والانصراف عن التصرّف فيه، حتّى إذا كان قريباً من الفجر سهّل الله سبحانه وتعالى على المرأة أمر الولادة، فولدت بسلامة وعافية من دون حاجة إلى أن آخذ من المال شيئاً.

فهذا نوع من أنواع التقوى، لكن من أعلى مراتبها وأنواعها، وهو ترك ما لا بأس به خوفاً من الانجرار إلى ما به البأس، ولذا ترى أنَّ البارى عزّ وجلّ رتّبَ نتائج على التقوى، منها:

أولاً: المخرج والرزق من دون احتساب، قال تعالى: (وَ مَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ (1).

ثانياً: إنَّ الله تبارک وتعالى يجعل للإنسان المتَّقى فُرقاناً؛ إذ قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً (2)، والفرقان على ما جاء فى كلام المفسّرين هو الشىء الذى يفصل بين الحقّ والباطل(3).

ثالثاً: العزّ والهيبة حسبما جاء فى كلام مولى الموحّدين أميرِ المؤمنينَ عليه السلام حيث قال:

«مَن أراد عِزاً بلا عشيرة، وهيبةً بلا سُلطانٍ، فليخرج من ذلِّ معصية الله إلى عزِّ طاعته»(4).

رابعاً: تعليم الله للمتّقين وإلهامه لهم، قال تعالى: وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللّهُ (5).

خامساً: إتيان الله لصاحبها الرحمة والنور، قال تبارک وتعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ (6).

1- (1) الطلاق: آية 2 - آية 3.

2- (2) الأنفال: آية 29.

3- (3) انظر: تفسير الأمثل: ج 5، ص 405.

4- (4) ورد بألفاظ أُخرى. انظر: خصائص الأئمّة: ص 99. بحار الأنوار: ج 44، ص 139. وغيرهما.

5- (5) البقرة: آية 282.

6- (6) الحديد: آية 28.

والعلم فى الآية المتقدّمة فى المورد الرابع هو نفسه النور فى هذه الآية. وأمّا الشرط فنفسه، وهو التقوى.

والناس المتّقون لا يختلف عندهم الحال سواء فى السراء أم الضراء؛ لذا لمّا صار الظهر من يوم عاشوراء، ولم يبقَ من أصحاب الحسين عليه السلام إلاّ القليل وبقية أهل بيته، التفت إليه ذلک العبد الصالح (أبو ثمامة الصيداوى) المتقى المحبّ لله ولرسوله ولإمامه، انظر ماذا يريد فى التفاتته هذه، قال: يا بن رسول الله، إنَّ العدو قد اقترب منک، وإنّک لا تُقتل حتّى نُقتل دونک، وأُحبُّ أن أصلى معک هذه الصلاة، وقد دنا وقتها، فرفع الحسين طرفه نحو السماء ونظر إلى الشمس وقد زالت، فقال عليه السلام: ذكرت الصلاة جعلک الله من المصلّين الذاكرين. نعم، هذا أول وقتها، فاسألوهم أن يكفّوا عنا حتّى نصلى، فرفض العدو.

وصاح الشمر (لعنة الله عليه): يا حسينُ، إنّها لا تُقبلُ. فقال له حبيب: أزعمت لا تقبل صلاة ابن رسول الله، وتُقبل صلاتک؟! فوقف الحسين عليه السلام يُصلّى صلاة الظهر بعد أن وقف رجلان من أصحابه أمامَه، مواجهين للعدو؛ ليدرأوا السهام عنه، لأنّ العدو ما كف عن رشق الحسين بالسهام، فوقف سعيد بن عبد الله الحنفى (رضوان الله عليه) أمام الحسين عليه السلام يتلقّى السهام بصدره وبنحره إلى أن صلّى الحسين عليه السلام، فلمّا فرغ عليه السلام من الصلاة سقط سعيد بن عبد الله إلى الأرض، وفيه ثلاثة عشر سهماً، وهو يجود بنفسه، فقال للحسين عليه السلام: سيدى أوفيتُ يابنَ رسول الله؟! فقال الإمام الحسين عليه السلام: نعم أنت أمامى فى الجَنّة، إقرأ جدى رسول الله عنى السلام، وقل له: إنّى تركت الحسين وحيداً فريداً.

قد صلّى الإمام الحسين عليه السلام صلاةَ الخوف بأهل بيته وبمَن بقىَ من أصحابه، ولكن هل صلّى صلاة المغرب والعشاء؟ نعم صلاها فى أول وقتها، وطالت صلاته، ولكن على وجه الأرض، خدّه على وسادة التراب.

اختلف العسكر فى حالة الحسين هل هو حىّ أم ميت؟ لأنّه لا حراک فيه، فيخافون أن يدنوا منه، فصاح عمر بن سعد (لعنه الله): إذا أردتم أن تعرفوا حال الحسين هل هو

حيٌّ أم ميّت فاهجموا على نسائه وعياله؛ لأنّه إذا سـمع صـراخ الأطفال لا يتمالک نفسه، فهجم الجيش نحو مخيم الحسـين، خرجت زينب عليهما السـلام وقفت على التل وصاحت: نور عينى يا حسـين، يا بن أُمّى يا حسين، عزيزى يا حسين، إن كنت حيّاً فأدركنا، فهذه الخيل قد هجمت علنيا، وإن كنت ميتاً فأمرک وأمرنا إلى الله.

ما هى إلاّ ساعات وإذا بها تنظر إلى رأس أخيها الحسين عليه السلام على رمحٍ طويل، صاحت وا أخاه وا حسيناه.

لمّن شافته صفگت بديها وشگت ثوبها ويلى عليها

ما تنلام من شافت وليها فوک الرمح راسه ايلوح بالبرّ

سالت عينها بدموعها عليه وشالت راسها وتّلفتت ليه

خفگ ويلى گلبها وأومت عليه وصاحت باچيه إبصوت المذعر

يشايل راس حامينه وولينه ريّض خلّى تودعه اسكينه

ليش إحسين ساكت عن ونينه گلى تعب يوجرحه تخدّر

يا شيال نعش المات مظلوم عله الشاطى وعن المای محروم

تحوم گلوبنا فوک النعش حوم أخوى الطاح مثل النجم من خرّ

(تغريد الحزين)

إنعمت عينى ولا شوفک ذبيح ويجرى دم نحرک

وأصحابک وأهل بيتک ضحايه مطرّحه إبكترک

عساها اتعگرت هلخيل ولا داست على صدرک

بعد الذبح يا خويه داسوک ولا راعوا لعد جدک ولا بوک

چنت ذخرى وتحت الخيل خلّوک

فلو علمتْ تلکَ الخيولُ کأهلِها بأنَّ الذى تحتَ السنابِک أحمدُ

عليهم کما ثاروا بها وتمرّدوا لثارت على فُرسانِها وتمرّدت

***

إنّا لله و إنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:31

المحاضرة الثالثة: الاستغفار وآثاره

اشارة

ص:33

لم أنسَ زينبَ بعد الخدرِ حاسرةً تُبدی النياحةَ ألحاناً فألحاناً

مسجورةَ القلبِ إلاّ أنَّ أعيُنَها کالمُعصراتِ تصبُّ الدمعَ عقيانا

تدعو أباهَا أميرَ المؤمنين ألا يا والدی حکمت فينا رعاينا

وغاب عنّا المُحامی والکفيلُ فمَن يحمی حمانا ومَن يؤوی يتامانا

إن عسعسَ الليلُ وارى بذْلَ أوجُهِنا وإن تنفّسَ وجهُ الصُبح أبدانا

ندعو فلا أحدٌ يصبو لدعوتِنا وإن شکونا فلا يُصغی لشکوانا

قُم يا عليُّ فما هذا القعودُ وما عهدی تغضُّ علی الأقذاء أجفانا

وتنثنی تارة تدعو عشيرتَها من شيبةِ الحمدِ أشياخاً وشُبّانا

قُوموا غضاباً من الأجداثِ وانتدبوا واستنقذوا من يد البلوی بقايانا

ويل الفراتِ أباد اللهُ غامرَه وردَّ واردَه بالرغمِ لهفانا

لم يُطفِ حرَّ غليلِ السبطِ باردُهُ حتّی قضی فی سبيلِ اللهِ عَطشانا

لم يُذبح الکبشُ حتّی يُروَ من ظمَأ ويُذبحُ ابنُ رسولِ اللهِ ضمآنا(1)

***

يجدّی گوم شوف احسين مذبوح علی الشاطی وعلی التربان مطروح

يجدّی من الطبر ما بگت بيه روح يجدّی من العطش گلبه تفطّر

يجدی الرمح بفاده تثنّه يجدی بالوجه للسيف رنّه

يجدی الخيل صدره رضرضنّه ولا مفصل بجسمه عيب مهشوم

1- (1) القصيدة لشاعر أهل البيت عليهم السلام الحاج محمّد علی آل کمّونه، کما جاء فی رياض المدح والرثاء (ص 648 - ص 649) قال عنه الزرکلی: «محمد علی بن محمد بن عيسی الأسدی الحائری، من آل کمّونة: شاعر، من أعيان کربلاء، وبها وفاته. جمع شعره بعض حفدته فی ديوان کبير سمّاه (اللآلی المکنونة فی منظومات ابن کمّونة) وتلف هذا الديوان، فجمع محمد السماوی ما بقی من نظمه متفرّقاً فی (ديوان - ط) صغير [کانت وفاته سنة 1282 ه -]» الأعلام: ج 6، ص 299.

قال تعالى: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (1).

«نستفيد من الآيات المختلفة فى القرآن، ومنها الآيات التى هى محل بحثنا، أنَّ الإيمان والعدالة سبب لعمران المجتمعات، والكفر والظلم والخطايا سبب للدمار، نقرأ فى الآية (96) من سورة الأعراف: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ ، وفى الآية (41) من سورة الروم نقرأ: ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النّاسِ ، وفى الآية (30) من سورة الشورى: وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وفى الآية (66) من سورة المائدة: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . وآيات أُخرى من هذا القبيل.

هذه الرابطة ليست رابطة معنوية فحسب، بل هناك رابطة مادّية واضحة فى هذا المجال أيضاً...

والحقيقة أنّ الحرمان فى هذا العالم سببه العقوبات على الذنوب، وفى الوقت الذى يتوب فيه الإنسان ويتَّخذ طريق الطهارة والتقوى، يصرف الله تعالى عنه هذه العقوبات»(2).

إذن هناك رابطة وثيقة بين الذنوب وآثارها من جهة، وبين الأعمال الصالحة وآثارها من جهة أُخرى.

ولو رجعنا إلى قصّة هذه الآيات الثلاث فى سورة نوح عليه السلام، نجد أنّها جاءت بعد دعوات وإنذارات كثيرة تحدَّثت عنها السورة المباركة المسمّاة باسم نبى الله نوح عليه السلام وبشتّى

1- (1) نوح: آية 10 - آية 12.

2- (2) تفسير الأمثل: ج 19، ص 55 - ص 57.

أنواع الإبلاغ وأساليبه، حتّى وصل بهم المقام أن يضعوا أصابعهم فى آذانهم؛ كى لا يسمعوا الحقيقة التى لا تندمج مع أهوائهم، كان صبره عليه السلام عجيباً، وأعجب ما فيه رأفته، همّتُه واستقامتُه الفريدة كانتا رأسَ مالِه فى السير ومواصلة طريق الدعوة إلى دين الحقّ.

والأعجب من ذلک أنَّه عليه السلام طيلة دعوته التى دامت (950) عاماً لم يؤمن به إلاّ ثمانون شخصاً، ولو قسّمنا هذه المدة على عدد الأنفار يتّضح لنا أنَّ مدة هدايته لكلّ فرد دامت اثنتى عشرة سنة تقريباً!!(1).

«يستمر نوح عليه السلام فى تبليغه المؤثِّر لقومه المعاندين العصاة، ويعتمد هذه المرّة على عامل الترغيب والتشجيع، ويوعدهم بانفتاح أبواب الرحمة الإلهية من كلّ جهة إذا ما تابوا من الشرک والخطايا، فيقول: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً»2.

والآيات الشريفة المباركة جاءت لتحل مشاكل تعرّض لها قوم نوح عليه السلام بسبب عصيانهم وجحودهم الحقَّ ومخالفته، بل روى أنّ ذلک الأمر منه عليه السلام إنّما جاء بعد أن حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة(2) ، عندها جاء الأمر بحلِّ هذه المصائب والبلاءات عن طريق الاستغفار والتوبة إلى الله عزّ وجلّ.

ولو لاحظنا جانباً آخر من حياة الأنبياء عليهم السلام نجد أنّ هذا الأمر قد تكرَّرَ مع نبيِّ الله هود عليه السلام، حيث عصوه وعبدوا الأصنام، وابتلاهم الله عز وجل، إذ يقول: وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (3).

1- (1) انظر: تفسير الأمثل: ج 19، ص 51.

2- (3) انظر: التفسير الأصفى: ج 2، ص 1357. بحار الأنوار: ج 88، ص 291.

3- (4) هود: آية 52.

حقيقة الاستغفار

ولكى ننعم بهذه النعم المترتّبة والمتفرّعة على الاستغفار كان من اللازم علينا التعرّف على حقيقة الاستغفار لكى نعمل به؛ لأنّ العمل فرع العلم، فما هو الاستغفار، وما هى حقيقته؟

أمّا الاستغفار فهو: «طلب من الله بالقلب واللسان، مثل اللَّهُمَّ اغفر لنا، وعدم الإصرار يكون كناية عن التوبة»(1).

وقد يُفرّقُ بين الاستغفار والتوبة ب – «أنَّ الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء والتوبة أو غيرهما من الطاعة، والتوبة الندم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة، فلا يجوز الاستغفار على الإصرار؛ لأنّه مسلبة لله ما ليس من حُكمه ومشيئته ما لا تفعله»(2).

وقد جعل البعض بين توبة العبد، وهى انقطاع العبد إليه بالكلّية، وبين طلب المغفرة بوناً بعيداً(3) ، وهو غريبٌ! ووجه الغرابة فيه: أنّ طلب المغفرة مقدّمة موصِلة إلى انقطاع العبد بالكليّة إلى الله عزّ وجلّ، وهو التوبة بحسب ما ذكره.

وأمّا الاستغفار بحسب ما حدّه لنا أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام، الذين لا يزاد على كلامهم، ولا يُتمّم من نقصٍ إن حدّوا ووصفوا، فيبينُه ما جاء على لسان مولى المتّقين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال – لقائلٍ قال بحضرته: استغفر الله –: «ثكلتك أُمّك أتدرى ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليّين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ:

أوّلها: الندم على ما مضى. والثانى: العزم على ترك العود إليه أبداً. والثالث: أن تؤدّى إلى المخلوقين حقوقَهم حتّى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة. والرابع: أن تعمد إلى كُلِّ

1- (1) زبدة البيان: ص 330.

2- (2) الفروق اللغوية: ص 48.

3- (3) انظر: شرح الرضى على الكافية: ج 4، ص 389.

فريضـة عليک ضـيّعتها فتؤدی حقّها. والخامس: أن تعمد إلی اللحم الذی نبت علی السـحت، فتذيبه بالأحزان حتّی تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلک تقول: أستغفر الله»(1).

وهذه الكلمة الشـريفة صارت هی الأصل الذی تؤخذ عنه حقيقة الاستغفار والتوبة، حتّی أنَّ ابنَ أبی الحديد فی شرحه علی النهج بعد ذكره لهذه الكلمة قال: «وينبغی أن نذكر فی هذا الموضع كلاماً مختصـراً ممّا يقوله أصـحابنا فی التوبة، فإنَّ كلام أمير المؤمنين هو الأصل الذی أخذ منه أصحابنا مقالتهم، والذی يقولونه فی التوبة فقد أتی علی جوامعه عليه السلام فی هذا الفصل علی اختصاره»(2).

فلكی نحصل علی حقيقة الاسـتغفار علينا أن نُحقّقَ هذه المعانی الستّة، وهی وإن كانت فی غاية الوضوح إلاّ أنّها ليست سهلة الإمتثال، بل تحتاج إلی عزيمة شديدة، وإرادة أكيدة، ولعلّ ما فی دعاء كميل رحمه الله يشترک مع هذه المعانی لتحقق التوبة النصوح، إذ يقول الدعاء:

«وقد أتيتک يا إلهی بعد تقصـيری وإسـرافی علی نفسـی، معتذراً نادماً، منكسراً مستقيلاً، مستغفراً منيباً، مقرّاً مُذعناً معترفاً، لا أجدُ مفرّاً ممّا كان منّی، ولا مفزعاً أتوجّه إليه فی أمری...»(3).

آثار الاستغفار

اشارة

ثمَّ إنّه إذا تحقّق الاستغفار بشروطه المتقدّمة، ومعانيه الستّة الآنفة الذكر، فستحصل الآثار المترتّبة عليه، وهی آثار مهمّة يُبذل من أجلها كُلّ غالٍ ونفيس، وهی ستّة أيضاً، وهذه من نعم الله تبارک وتعالی التی تفضّل بها علی خلقه، بأن يُضاعف لهم فی أفعالهم كما

1- (1) نهج البلاغة: ج 4، ص 97 - ص 98، رقم 417.

2- (2) شرح نهج البلاغة: ج 20، ص 56.

3- (3) مصباح المتهجّد: ص 846.

يُضاعف الحسنات، حيث يقول عزَّ وجلَّ: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها (1).

الأثر الأوّل: غفران الذنوب

بمعنى أنّ المستغفر يحصل على أوضح أثر من آثار عمله، وهو ما سنلخ من نفس العمل، وهو غفران الذنوب والمعاصى، كقوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ (2).

فالآيـة رتّبت على التوبة تكفيرَ السيئات، ثمَّ دخول الجنَّات، وهذا أمر طبيعى، فكلّ فعلٍ يصدر لا بدَّ من تحقّق أقرب آثاره إليه، وأقرب آثاره إليه شموله إلى نفس الفعل الصادر، كما هو معلوم بالوجدان.

والملفت للنظر أنَّه تبارک وتعالى لم يقل: «إنّه غفّاراً»، بل قال: «إنّه كان غفّاراً»؛ لأنّه كان غفّاراً فى حقّ كُلِّ مَن استغفره، كأنَّه يقول: لا تظنّوا أنّ غفّاريّته إنّما حدثت الآن، بل هو أبداً هكذا كان، فكأنّ هذا هو حرفته وصنعته(3).

وعبّرت الآيـة ب - (غفّاراً)، ولم تعبر ب - (غافراً، أو غفوراً) لمزيد العناية فى كثرة المغفرة، وغفّار من غفر، والغفر هو التغطية، ومنه قولهم: غفرت المتاع أى: جعلته فى الوعاء(4).

ويؤيّد هذا المعنى اللغوى الروايات الشّريفة فى باب التوبة من الذنوب والاستغفار.

ففى الكافى الشريف، عن معاوية بن وهب، قال:

«سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أحبّه الله فستر عليه. فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: يُنسى ملكيه

1- (1) الأنعام: آية 160.

2- (2) التحريم: آية 8.

3- (3) انظر: تفسير الرازى: ج 30، ص 137.

4- (4) انظر: الصحاح: ج 2، ص 77.

مـا كانا يكتبان عليه، ويوحى [الله] إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض: أن أكتمى عليه ذنوبه، فيلقَى الله عزّ وجلّ حين يلقاه وليس شـىءٌ يشـهد عليه بشىء من الذنوب»(1).

ولا معنى للستر عليه إذا لم يكن تغطية لذنوبه حتّى يصـير التائب والمسـتغفر لا ذنب عليه، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«والتائب من الذنب كمَن لا ذنب له»(2).

هذا هو الأثر الأول للإستغفار، وهو غفران الذنوب، وهو أثر معنوى، بخلاف الخمس البواقى الآتية.

الأثر الثانى: كثرة الأمطار

الأثر الثانى من آثار الاسـتغفار (كثرة المطر) فلا يغفر لكم ذنوبكم وحسب، بل يرسل السـماء عليكم مدراراً، وهى من صيغ المبالغة أيضاً، فيفيض عليكم بأمطار الرّحمـة، كما ينسـكب الحليب من صـدر الأُمّ؛ ولـذا لم تقل الآية: ينزل عليكم المطر أو الماء، كما فى قوله تعالى وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (3) ، وإنّما عبّرت الآية ب - (يرسل السـماء)؛ فالسّماء تكاد أن تهبط من شـدّة هطول الأمطار، وبما أنّها أمطار رحمـة وليست نقمـة؛ فلذا لا تُسـبب خراباً وأضـراراً، بل تبعث على الإعمار والبركة والحياة(4).

من هنا ذكر العلماء فى مسألة صلاة الاستسقاء المتابعة فى الدعاء والاستغفار.

قال المحقّق الحلّى رحمه الله: «يبالغ فى الـدُعاء و الاسـتغفار، ويُعاودون إن تأخرت الإجابـة، أمّا تأكيد الاسـتغفار؛ فلقوله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً * يُرْسِلِ السَّماءَ

1- (1) الكافى: ج 2، ص 436، ح 12.
2- (2) وسائل الشيعة: ج 16، ص 75، ح 14.
3- (3) الحجّ: آية 5.
4- (4) انظر: تفسير الأمثل: ج 19، ص 54.

عَلَيْكُمْ مِدْراراً» 1.

والأمطار الغزيرة هنا أمطار رحمة وبركة، كما يدلّ عليه قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ (1) ، فواحدة من بركات السماء التى ينزلها عزّ وجلّ عندما يؤمن أهل القُرى ويتّقوا هى أمطار الرحمة(2).

فمن علَّلَ الجدوبة وقلّة الأمطار بكثرة الذنوب والمعاصى، يرى أنَّ الاستغفار يرفعها ويزيلها، ويثبت ما هو ضدها، وهو الخصب، ونزول المطر الكثير النافع.

الأثر الثالث: المدُّ المالى

والأثر الثالث المترتّب على الاستغفار هو المدّ المالى الذى ارتفع وانقطع، أو ضعف بسبب الذنوب والمعاصى، فإنّه يعود مرّة أُخرى إليكم بعد أن تتابعوا الاستغفار والتوبة، فمَن ضاقت عليه معيشته أو قُدِرَ عليه رزقُه فعليه بكثرة الاستغفار، فعن نصر بن زياد، قال:

«كُنتُ عند جعفر بن محمّد - يعنى الإمام الصّادق عليه السلام - فأتاه سفيان الثورى، قال: يا ابن رسول الله، حدِّثنى فقال: يا سفيان. إذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار»(3).

فلاحظ كيف ترتّب على التوبة «إيتاء الفضل فى الآخرة، وناسبَ كلَّ جوابٍ لِما وقع جواب له؛ لأنَّ الاستغفار من الذنوب أوّل حال الراجع إلى الله، فناسب أن يرتّب عليه حال الدنيا، والتوبة هى المنجية من النار، والتى تُدخِل الجنّة»(4).

1- (2) الأعراف: آية 96.

2- (3) انظر: تفسير الميزان: ج 8، ص 201.

3- (4) الفرج بعد الشدّة: ج 1، ص 28.

4- (5) تفسير البحر المحيط: ج 5، ص 202.

الأثر الرابع: المدّ بالبنين

والأـثر الرابع المُترتّب على الاستغفار، المـدُّ بـالبنين، وهو أثر لا يقلّ أهمّيـة من المـدِّ المالى، إن لم يكن أهم، كما نرى فى حياتنا اليوميّة الكثير من الناس ممّن لهم الاستعداد فى أن يبـذلوا كلَّ ما عنـدهم من أموال فى سبيل أن تكون لهم ذريّة، مع أنَّ المال والبنين كليهما زينة الحياة الـدنيا، كما قال تعالى: (الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا (1) لكنّنا نسـمع من هنا وهناك الكثير حول هذا الموضوع، (لا قيمة للمال إذا لم يكن عنـدك عيال) وهـذا ممّا ابتلى به البارى عزّ وجلّ عبادَه، حيث يقول جلّت أسـماؤه: لِلّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (2). وهذه الآية الشريفة تعبيرٌ واضحٌ عن هذا المصير، حتّى وردت روايات كثيرة عن سؤال بعض المؤمنين للإمام المعصوم عليه السلام فى تعليمهم ما يُمكّنهم من الحصول على الذريّة، وسأنقل هنا شواهد على الثلاثة الأخيرة، أعنى: الجدوبة، والفقر، وعدم البنين.

فقد رُوى أنّ رجلاً أتى الإمامَ الحسنَ عليه السـلام فشـكا إليه الجدوبة، فقال الحسن عليه السـلام: «استغفر الله»، وأتاه آخر فشكا إليه الفقر، فقـال له: «اسـتغفر الله»، وأتـاه آخر فقـال له: ادعُ الله أن يرزقنى ابناً، فقال له: «اسـتغفر الله»، فقلنا له: أتاك رجالٌ يشـكون أبوابا، ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كُلَّهم بالاستغفار؟ فقال: «ما قلت ذلک من ذات نفسى، إنّما اعتبرت فيه قول الله: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (3)»(4).

1- (1) الكهف: آية 46.

2- (2) الشورى: آية 49 - آية 50.

3- (3) نوح: آية 10 - آية 12.

4- (4) وسائل الشيعة: ج 7، ص 178.

الأثر الخامس والسادس: جعل الجنّات والأنهار

وهذان الأثران من الآثار المترتّبة على الاستغفار لاحقاً فى الدار الآخرة، وبمعنى آخر: إنَّ رحمة الله تبارک وتعالى المترتّبة على الاستغفار تعدّت محيط الحياة الدنيا؛ لتنتقل إلى سعادتين أُخريين تنتظران المستغفرين، وهما سعادة الجنات والأنهار، بمعنى دخول الجنّة، وليست الجنّة بأدنى مراتبها - مع أنّها أفضل من الدنيا بما لا يُعدُّ ولا يُحصى - بل الجنّات المشتملة على الأنهار، وأى جنّات هذه التى قسّمتها هذه الأنهار!! وأىّ حدائقٍ هذه التى جُعلت فيها الأنهار لتزيدها بهاءً وحُسناً!!.

فلا شكّ أنّها حدائق ذات بهجة، إلاّ أنّها ليست حدائق دنيوية، كما قال تعالى: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ (1)، بل هى حدائق أُخروية.

ومن تلک الأنهار التى يتنعّم بها المؤمنون يومَ القيامة فى الجَنّة نهر الفرات(2)، ولعلّه لأجل أن يتذكّر المؤمنون وهم فى الجَنّة تلکَ المُصيبةَ التى جرت على أبى عبد الله عليه السلام على شاطى الفرات.

ينقل شيخنا المنصورى رحمه الله:

إنّ الله تعالى فتح باباً للزهراء عليها السلام يوم عاشوراء، وهى فى مكانها المعدّ لها بعد الوفاة لتنعم به، فتح لها باباً لمشاهدة ولدها الحسين عليه السلام فرأته صريعاً يتلظّى عطشاً، قعدت به كثرة الجراح من الحركة، وكان أملُها أن يُداوى أو يُسقى ماءً، ولكن لمّا أقبل الشمر ومكّن السيف من نحره، لم تطق النظر إليه، ولكن توجّهت إلى مَن معها من الحور العين، وكأنّى بها عليها السلام تخاطبُ الحورَ العين:

يالحور گوموا زيّنوا جنّة الفردوس باچر تجى ليكم جنايز ما لها روس

1- (1) النمل: آية 60.

2- (2) انظر: مستدرک الوسائل: ج 17، ص 25، ح 2. بحار الأنوار: ج 57، ص 41، ح 6.

منهم جنازة الصدر منها ابخيل مديوس جنازة حبيب الله انذبح بالغاضرية

ثمَّ تلتفت إلى الأمين جبرئيل عليه السلام:

جبريل وين أجسادهم دلّيني بيها گلها يزهره اشلون بيكِ تشاهديها

گلها بلايه روس واحزنى عليها ظلت وزينب والحرم راحت سبيّه(1)

***

إنّا لله و إنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتقين.

1- (1) انظر: ميراث المنبر: ص 159. والأبيات لشاعر أهل البيت عليهم السلام ابن فايز رحمه الله، كما أشار إليه شيخنا المنصورى رحمه الله فى هامش كتابه القيّم (ميراث المنبر).

المحاضرة الرابعة: عداوة الشيطان لبنى آدم

اشارة

ص:47

أحلماً وكادت تموتُ السُنن لِطولِ انتظارِک يا بنَ الحَسَن

وأوشکَ دينُ أبيکَ النَبيِّ يُمحى ويَرجَعُ دينُ الوَثن

وهذى رَعاياکَ تَشکو إليکَ ما نالها مِنْ عَظيمِ المِحَن

تناديکَ مُعلنة بالنحيب إليکَ ومُبدية للشَجَن

فمذ عمّنا الجَورُ واستحکموا بأموالِنا واستَباحوا الوطن

شَخَصنا إليکَ بأبصارنا شخوصَ الغَريقِ لِمرِّ السفن

أتنسى مصائبَ آبائِکَ التى هَدّ ممّا دَهاها الرُکن

مصابَ النبيَّ وغصبَ الوصيِّ وذبحَ الحسين وسُمَّ الحَسن

ولکنَّ لا مثلَ يومِ الطفوف فى يومِ نائبةٍ فى الزّمن

غداةَ قضى السِّبطُ فى فِتيةٍ مصابيحِ نورٍ إذا الليل جَن

تفانَوا عُطاشى فليتَ الفراتَ لِما نالَهُم ماؤهُ قد أجَن

وأعظمُ ما نالکم حادثٌ لهُ الدمعُ ينهلُّ غيثاً هَتن

هُجومُ العدوِّ على رَحلِکم وسَلبُ العَقائِلِ ابرادِهِن

تدافعُ بالساعدين السِّياط وتَسترُ وَجهاً بفضل الرُدُن(1)

1- (1) القصيدة لشاعر أهل البيت عليهم السلام السيد محمّد القزوينى رحمه الله، قال عنه فى مَن لايحضره الخطيب: «السيَّد محمّد السيد مهدى القزوينى، ولد فى الحلّة سنة 1262 ه -، وتوفى فيها سنة 1335 ه - ودفن فى النجف الأشرف، نال درجة الاجتهاد وكان زعيماً دينياً فى الحلة، له أعمال جليلة فى التربية والإصلاح، وله آثار علميّة فى الفقه والأدب». مَن لا يحضره الخطيب: ج 1، ص 386.

***

طبّوا للخيام وفرهدوها وعزيزات النبوّة سلّبوها

اوچم طفلة النبيهم روّعوها اوفرت من خِيَمها اتحوم واتدور

عگب ما فرهدوا ذيچ الصواوين شبّوا نارهم بخيام الحسين

اوطلعت هايمه ذيچ النساوين يتاماها تعثر بين الصخور

***

قال تعالى: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (1).

من السّنن الإلهية فى هذه الحياة الدنيا سّنّةُ الإبتلاء والإمتحان، وهى سّنّةٌ عامّةٌ أكيدةٌ، وقد أشارَ القُرآنُ الكريمُ إلى عموميّة هذه السّنة فى آياتٍ عديدةٍ، كقوله تعالى: أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (2).

وهذهِ السّنَنُ لا تتخلّفُ من جيلٍ إلى آخر، وإن كانت تختلف فى صورها وأشكالها، فتتصوّر تارةً بالفقر، وأُخرى بالشّك، وثالثة بالوسوسة، وهكذا.

وخيرُ شاهدٍ على ذلک قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (3).

ومن الفتن والابتلاءات: الأموال والزوجة والأولاد، وقد يصل الأمر إلى حدّ أن تصبح الزوجة والأولاد هم العدوّ الذى يصدُّ عن الله وذكره.

1- (1) فاطر: آية 6.

2- (2) العنكبوت: آية 2 - آية 3.

3- (3) الأعراف: آية 130.

قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (1).

ومن أشدّ الأعداء – مع ابتلاءات الدنيا وعقوباتها، والنفس والأولاد والزوجة – إبليس (عليه اللعنة).

ورحم الله القائل:

«ابليسُ والدُنيا ونفسى والهوى كيفَ الخلاصُ وكُلّهُم أعدائى»(2)

هـذا العـدو الـذى أقسم لأبينـا آدم وأُمنّـا حوّاء بـأعظم الأقسـام ولم يكن صادقاً، كما حكاه لنا القرآن الكريم، حيث يقول تبارک وتعالى: وَ قاسَمَهُما إِنِّى لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ 3 فهو (لعنه الله) مع القَسم والتأكيد بالنصيحة يخادع ويمكر، فكيف معنا نحن البشر، الذين تعهد بأنّ لا يتركنا طرفة عينٍ، وأقسم بعزّة الله أن يغوينا؟! كما حكى القرآن الكريم ذلک على لسانه.

قال تعالى: قالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ 4.

وهـذا تحـذيرٌ رهيبٌ و إشارةٌ خطيرةٌ؛ إذ مع النصـيحة يخدعُ ويمكرُ، فكيف نتصورُ حالَنا مع الأقسام المغلّظة بالإغواء والخديعة، فلا شـکَّ سيكونُ الأمر أخطر وأمرّ!!

والنتيجـة هى عـذاب السـعير، كما فى الآيـة التى افتتحنا بها الكلام، وهكـذا فى قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (3).

فهو (لعنه الله) بعد أن تمَّ طرده من ساحة القدس والجلال، طلب من الله أن ينظره

1- (1) التغابن: آية 14.

2- (2) الفتوحات المكية: ج 1، ص 278. ولم ينسبه لأحد.

3- (5) الحج: آية 4.

إلى يوم القيامة.

قال تعالى: فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلاّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ (31) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلاّ تَكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ (32) قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (35) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (1).

وبعد هذا الخسران الذى أصاب إبليس، وخيبة الأمل التى تعرّض لها، اتّخذ طريقاً للإغواء والمخادعة لبنى البشر، كما حكى لنا القرآن الكريم كلَّ ذلک، حيث يقول: قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (2).

ولكن مع شديد الأسف، هذا الشيطان الرجيم صار عند الإنسان من أقرب أصدقائه الحميمين، لايبارحنا نحن البشر وقد اتّخذناه بدلاً عن الهداية والاستقامة، فاستبدلْنا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

قال تعالى: أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظّالِمِينَ بَدَلاً (3).

إبليس عدوٌ لا كالأعداء

هذا العدو يختلف عن باقى الأعداء؛ لأنَّ المُحتملات فى كلّ الأعداء ثلاثة:

إمّا أن تتغلّبَ عليه، أو يتغلّب عليک، أو تكون هناک هدنة أو صلح، بخلاف عدوّنا

1- (1) الحجر: آية 30 - آية 38.

2- (2) الأعراف: آية 16 - آية 18.

3- (3) الكهف: آية 50.

إبليس، فـالموجود إحتمالان اثنان لا ثالث لهما، وهما: إمّا أن يستسـلم على أيـدينا ونتغلّبَ عليه، أونستسـلم على يـديه ويتغلّب علينا، ولا يوجد احتمال الهدنة؛ بعد أن سمعنا أقسَامَه المُغلّظة بالغواية المستمرّة لنا.

من هنا سُئل رسول الله عندما ذكر أنَّ لكلّ إنسانٍ شيطان، فقيل له: وأنت يا رسول الله ألک شيطان؟

فقال صلى الله عليه و آله:

«إنَّ الله أعاننى على شيطان حتى أسلم على يدى»(1).

وباستسلام إبليس وعدم قدرته على غوايتنا نكون أفضل من الملائكة، وإلاّ فنحن والبهائم على حدٍّ سواء، فالمسأله جدُّ خطيرة.

فقد روى عن عبد الله بن سنان، قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليها السلام، فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال:

«قال أمير المؤمنين علىُّ بنُ أبى طالب عليه السـلام: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ركّبَ فى الملائكة عقلاً بلا شـهوةٍ، وركّبَ فى البهائم شـهوةً بلا عقلٍ، وركّب فى بنى آدم كليهما، فمَن غَلَبَ عقلُه شهوتَه فهو خيرٌ من الملائكة، ومَن غَلبَتْ شهوتُه عقلَه فهو شرٌّ من البهائم»(2).

طُرُق الشيطان وخطواته

والشـيطان له طُرُقه الخاصّـة به وبأبالسـته، وهى المُعبّر عنهـا بالخطوات، التى نهانا اللهُ تبارک وتعالى عن إتّباعها، كما صـرّح بـذلک القُرآن الكريم، حيث يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لكِنَّ اللّهَ يُزَكِّى مَنْ يَشاءُ وَ اللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (3) ،

1- (1) مناقب آل ابى طالب: ج 1، ص 197.
2- (2) علل الشرائع: ج 1، ص 5، ح 1.
3- (3) النور: آية 21.

و (الخطـوات) جمـع (خطوة) وهى المرحلـة الـتى يقطعهـا الشـيطان للوصول إلى هـدفه، وهو التغرير بالنـاس. وعبـارة لاـ تتّبعوا خطوات الشـيطان، تكرّرت خمس مرات فى القُرآن الكريم، وكـانت فى موضـعين بشـأن الاسـتفادة من الأطعمـة والرزق الإـلهى، وهى تحـذير من اسـتهلاک هـذه النعم الإلهيـة فى غير موضـعها، وحثٌّ على الاسـتفادة منها على طريق العبوديـة والطاعة، لا الفساد والطُغيان فى الأرض؛ للنهى عن إتّباع خطوات الشـيطان فى اسـتثمار مواهب الطبيعة، توضحه آيات أُخرى تنهى أيضاً عن الإفساد فى استثمار ما وهبه الله للناس، كقوله تعالى: كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (1) ، وكقوله سبحانه: كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ (2) ، هذه المواهب والإمكانات ينبغى أن تكون طاقةً دافعةً نحو الطاعة، لا وسيلة لارتكاب الذنوب، وعبارة إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ تكرّرت فى القُرآن الكريم عدّة مرات بعد الحديث عن الشـيطان؛ كى تحفّز الإنسان، وتجعله متأهباً لمُجابهة هذا العدو اللدود الظاهر، والآية التالية تؤكّد على عداء الشيطان، وعلى هدفه المتمثّل فى شقاء الإنسان، وتقول: إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ.

ومنهج الشيطان يتلخّص فى ثلاثة أبعاد هى:

(السوء، والفحشـاء، والتقوّل على الله) الفحشـاء من (الفُحش)، وهو كـلّ عمـل خارج عن حـدّ الاعتـدال، ويشـمل كلّ المنكرات والقبائح المبطّنة والعلنية، واستعمال هذه المفردة حالياً بمعنى الأعمال المنافية للعفّة هو من قبيل استعمال اللفظ الكلّى فى بعض مصاديقه(3).

1- (1) البقرة: آية 60.

2- (2) طه: آية 81.

3- (3) انظر: تفسير الأمثل: ج 1، ص 474 - ص 476.

فأسلوب الشيطان هو التدرّج فى أخذ الإنسان إلى الهاوية، فيبدأ معه رويداً رويداً إلى أن يرميه فى الهاوية، وفى وادٍ سحيقٍ نسألُ اللهَ العونَ والهدايةَ والتنبّهَ من الغفلة.

ويمكن تلخيص دعوته إلى السعير بعدّة مصاديق، نذكر منها:

1 – زرع الفتن والبغضاء والعداوة بين الناس، وإشعال نار الحقد والعداء بين بنى البشر، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلک فى عدّة آيات:

منها: قوله تعالى: إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ (1).

وقوله تعالى: وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ (2).

وقوله تعالى: مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي (3)، وعن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال:

«يقول إبليس لجنوده: ألقوا بينهم الحسد والبغى، فإنهما يعدلان عند الله الشرک»(4).

2 – تزيين العمل القبيح لصاحبه، وهذا من أشدِّ الأخطار على الإنسان حذرّنا منه القُرآن الكريم: فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (5).

3 – الوعود والأُمنيات الكاذبة والمخادعة الباطلة التى يفضحها لنا البارى عزّ وجلّ؛ إذ يقول: يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاّ غُرُوراً (6).

ومن هنا يُسئل إمامنا الصَّادق عليه السلام عن قوله تعالى: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ

1– (1) المائدة: آية 91.

2– (2) الإسراء: آية 53.

3– (3) يوسف: آية 100.

4– (4) الكافى: ج 2، ص 327، ح 2.

5– (5) الأنعام: آية 43.

6– (6) النساء: آية 120.

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذّنُوبَ إِلاّ اللّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (1) ، فيقول:

«لمّا نزلت هذه الآية صعد إبليس جبلاً بمكة يُقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه. فقالوا: يا سيدنا، لِمَ دعوتنا؟ قال: نزلت هـذه الآيـة، فمَن لها؟ فقام عفريت من الشـياطين، فقال: أنا لها بكـذا وكذا. قال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلک، فقال: لست لها. فقال الوسواس الخنّاس: أنا لها، قال: بماذا؟ قال: أعـدهم وأمنيهم حتى يواقعوا الخطيئـة، فإذا واقعوا الخطيئة أنسـيتهم الاسـتغفار، فقال: أنت لها، فوكّله بها إلى يوم القيامة»(2).

وهـذا هو الذى حصل مع أُخوة يُوسُف عليه السـلام بعينه كما قصَّ لنا القرآن الكريم ذلک، حيث يقول: اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (3).

ولكن الذى يقتل نبيّاً أو وصيّاً أو وليّاً هل يوفّق للتوبة؟!

ونفس هذا المعنى تكرّرَ مع ابنِ سـعدٍ – لعنه الله – حيث غرّته الأمانى ووسوس له الشـيطان بأنّه إذا قتل الإمام الحُسـينَ عليه السـلام سوف يتوب بعد ذلک، عندما عُرضت عليه إمارة الرّى كان فى البدء متردّداً فى الخروج، ثمَّ ذهب إلى منزله وأخذ يمشى فى فناء الدار وينشد:

فواللهِ ما أدرى وإنّى لصادقٌ أفكّرُ فى أمرى على خطرينِ

أأتركُ مُلکَ الرىّ والرىُّ مُنيتى أم أصبحُ مأثوماً بقتلِ حُسينِ

حُسينُ ابنُ عمّى والحوادثُ جمّةٌ ولكن لى فى الرى قُرةُ عينى

يقولون إنَّ اللهَ خالقُ جنّةٍ ونارٍ وتعذيبٍ وغلٍّ يدينِ

1- (1) آل عمران: آية 135.

2- (2) أمالى الشيخ الصدوق: ص 551، ح 5.

3- (3) يوسف: آية 9.

فإنْ صدقوا ممّا يقولون إنّنى أتوبُ إلى الرَّحمنِ من سنتينِ

وإنْ كذبوا فُزنا بدنيا عظيمةٍ ومُلكٍ عقيمٍ دائمِ الحَجِلَين(1)

وهذا اللعين هو أوّلُ مَن رَمى مُخيّمَ الحُسينِ ومُعسكرِه مُفتخِراً بذلک.

يقولُ ابنُ أعثمَ الكوفى: «وتقدّم عُمرُ بنُ سعدٍ حتّى وقف قبالة الحُسين على فرسٍ له، فاستخرج سهماً فوضعه فى كبد القوس، ثمَّ قال: أيُّها النَّاس! اشهدوا لى عند الأمير عُبيدِ الله بن زياد أنّى أوّل مَن رمى بسهمٍ إلى عسكر الحُسين بن علىّ! قال: فوقع السهم بين يدى الحُسين، فتنحّى عنه راجعاً إلى ورائه، وأقبلت السهام كأنّها المطر، فقال الحسين لأصحابه:

أيها الناس، هذهِ رسُلُ القومِ إليكم، فقوموا إلى الموت الذى لا بدَّ منه»(2).

هذا مبدأ أعماله وأمّا خاتمةُ الأعمال التى قام بها ابنُ سعدٍ – لعنه الله – فهى أدهى وأمرّ!!

ماذا صنع؟ الأمرُ شديدٌ، وسماعُهُ مُحرِقٌ للقُلوبِ، ومُقرحٌ للجفون، فاستعد لسماعه لتُشارِکَ الزهراءَ فى لوعتها ومُصابها.

«نعم نادى ابنُ سعدٍ – لعنه الله –: هلمّوا ودُوسوا صدرَ الحُسين.

ثمَّ أمر النبىُّ صلى الله عليه و آله بحمزة أن تمدَّ عليه برقته، وهو فى القبر وكانت قصيرةً وكانوا إذا خمروا بها رأسه بدت رجلاه، وخمروا بها رجليه انكشف وجهه فبكى المسلمون، وقالوا: يا رسول الله، عمّ رسول الله يُقتل فلا يوجد له ثوب؟ فقال: بلى. فلمّا دفن القتلى انصرف رسول الله صلى الله عليه و آله إلى المدينة، وخرجت نساء المدينة؛ لأنَّ إبليس صاح ألا قد قُتل محمد، فخرجن النساء باكيات صارخات، فأُخبرن بأنَّ النبىَّ صلى الله عليه و آله حىٌّ ولم يصبه شىء فحلفنَ أن لا يرجعن إلى خدورهن حتى يرين رسول الله صلى الله عليه و آله، وهن واقفات حتى دخل رسول الله،

1- (1) اللهوف: ص 193.

2- (2) كتاب الفتوح: ج 5، ص 101.

فلما رأينه ولولن وبكين، ثمَّ دخلن خدورهن، وإلى هذا أشار بشير بن جذلم فى قوله: يا أهل يثرب لا مقام لكم بها.

يعنى لو كنتم صادقين فى دعواكم أن لا تُسكن بيوتُنا حتى نرى النبىَّ فيحقّ الآن أن لا تسكنوا المدينة؛ لأنَّ الحُسينَ عليه السلام قد قُتل. فمرَّ النبىُّ صلى الله عليه و آله ببعض بيوتات الأنصار، فسمع بكاء النوائح على قتلاهن، فترقرقت عينا رسول الله صلى الله عليه و آله وبكى، ثمَّ قال: لكن حمزة لا بواكى له اليوم. فلمّا سمعه سعد بن معاذ قال: لا تبكين امرأة حميمها حتى تأتى فاطمة فتسعدها فى البكاء على حمزة. فاجتمعن النساء عند فاطمة وهن يسعدنها على حمزة، ومَن أسعد فاطمة فى البكاء على الحسين؟! أسعدها ألف نبى، وألف صدِّيق، وألف شهيد، وألف ألف من الكروبيين، وهم يسعدونها فى البكاء على الحسين عليه السلام. ولمّا لم يكن لحمزة نوائح ناحت عليه نساء المهاجرين، والحسين كانت له نوائح، لكن إن دمعت من إحداهن عين قرع رأسها بالرمح»(1).

وكأنّى بها عليهما السلام تخاطب أخاها أبا عبد الله عليه السلام:

بس ما غبت وگفيت يحسين عن كربلا صرنه مضعنين

خذونى يسيرة وتدمع العين ومدرى وجوه الگوم لا وين

للكوفة يو للشام ناوين والدرب تدرى يريد إله اثنين

أنصار يو أخوه المبينين ولويای ما غير النساوين

أبارى الظعن ماليش تمكين عاد أرضه والله يريحنى البين

دليلى بجور سيف الدهرينشاف ولى ناظر يكت ما بعد ينشاف

زينب طولها الماچان ينشاف يسيره تروح لولاد الدعية

1- (1) شجرة طوبى: ج 2، ص 287.

وأعظم ما يشجى الغيور دخولها إلى مجلس ما بارح اللهو والخمرا

يقارعها فيه يزيد مسبّة ويصرف عنها وجهه معرضاً كبرا

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:59

المحاضرة الخامسة: هَجْرُ القرآن

اشارة

ص:61

إن كانَ عندکَ عَبرةٌ تُجريها فانزلْ بأرضِ الطَّفِّ کی نُسقيها

فعسی نبلُّ بها مضاجِعَ صفوةٍ ما بُلّتِ الأکبادُ من جاريها

ولقد مررتُ علی منازلِ عصمةٍ ثقلُ النبوّةِ کان أُلقیَ فِيها

فبکيتُ حتّی خلتُها ستُجيبُنی بُبکائِها حُزناً علی أهليها

وذکرتُ إذ وقفت عقيلَةُ حيدرٍ مذهولةً تُصغی لصوتِ أخيها

بأبی التی ورثتْ مصائبَ أُمّهِا وغدتْ تُقابلُها بصبرِ أبيها

لم تلَهُ عن جمعِ العيالِ وحفظِهم بفراقِ إخوتِها وفقدِ بنيِها

لم أنسَ إذ هتکوا حماها فانثنت تدعو تشکو لواعجَها إلی حاميها

فتحترقُ القُلوبُ کأنّما يرمی حَشاها جمرُهُ مِن فيها

هذی نساؤُکَ مَن يکون إذا سرت فی الأسرِ سائقُها ومَن حاديها

أيسوقُها زجرٌ بضربِ متُونِها والشمرُ يحدوها بسبِّ أبيها(1)

1- (1) الأبيات للسيد رضا الهندی رحمه الله. قال عنه السيد جواد شبّر رحمه الله فی أدب الطف (ج 9، ص 242 - ص 255): «السيد رضا الهندی شيخ الأدب فی العراق، والعالم الجليل المؤرّخ، والبحّاثة الشهير، وهو ابن السيّد محمّد ابن السيّد هاشم الموسوی الهندی. ولد رحمه الله فی الثامن من شهر ذی القعدة سنة (1290 ه -)، وهاجر إلی سامراء بهجرة أبيه سنة (1298 ه -) حين اجتاح النجف وباء الطاعون، وکان خامسَ إخوته الستّة، ومَکَثَ يواصل دروسه فی سامراء، وکان موضع عناية من آية الله المجدِّد الشيرازی لذکائه وسرعة البديهة وسعة الاطّلاع، وفی النجف واصل جهودَه العلمية علی أساطين العلم حتّی نال درجة الاجتهاد... مؤلفاته: الميزان العادل بين الحقّ والباطل فی الرد علی الکتابيين (مطبوع) وبلغة الراحل فی الأخلاق والمعتقدات، والواقی فی شرح الکافی فی العروض والقوافی، سبيکة المسجد فی التأريخ بأبجد (وقد فُقِد)، وشرح غاية الإيجاز فی الفقه. أمّا الرائعة التی ختم بها حياته وطلب أن تکون معه فی قبره، فهی هذه القطعة الوعظية: أری عُمری مؤذناً بالذهابتمرُّ لياليه مرَّ السّحاب وتفجأنی بيض أيامهفتسلخُ منّی سواد الشّباب

وكأنّی بها علیها السلام:

ودعّتک الله یا عیونی یردون عنّک یاخذونی

زجر وخوّله الیبارونی نخیت إخوتی وما جاوبونی

یهل الحمیّة ما تجونی من إید الأعادی تخلصونی

***

یحادی لا تسج بالضعن بیدای وگلبی الفگد أبو السجّاد بیدای

ریّض خل أغسل حسین بیدای ودفنه لا یضل جسمه رمیّه

***

قال تعالی: وَ قالَ الرَّسُولُ یا رَبِّ إِنَّ قَوْمِی اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30) وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِینَ وَ کَفی بِرَبِّکَ هادِیاً وَ نَصِیراً1.

هناک جملة من المخلوقات تشتکی إلی الله یومَ القیامة، وتطالب بالحقوق والمظلومیات التی أصابتها وتعرّضت لها.

وأفضل هذه المخلوقات وأکملها الإنسان، الذی فضّله الله عزّ وجلّ علی جمیع المخلوقات، حیث یقول: وَ لَقَدْ کَرَّمْنا بَنِی آدَمَ (1).

1- (2) الإسراء: آیة 70.

وأفضل بنى آدم بما فيهم جميع الأنبياء والرسل هو النبيُّ الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله.

وشـهادة الرسول صـلى الله عليه و آله حقيقة قرآنية، لا يمكن انكارها؛ للتصريح بها فى غير واحدة من الآيات، حيث يقول عزّ وجلّ: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً (1).

وقال تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (2).

وقال تبارک وتعالى: وَ وُضِعَ الْكِتابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ (3).

«وقول الرسول صـلى الله عليه و آله هذا، وشـكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئة عظيمة من المسلمين، يشكو بين يدى الله أنّهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الذى هو رمز الحياة، ووسيلة النجاة، القرآن الذى هو سبب الانتصار والحركة والتفوّق»(4).

وقد يسأل سائل ويقول: كيف يشكو رسول الله صلى الله عليه و آله قومَه ويشهد ضدهم، وفيهم من أهل القرآن والدين الكثير؟

والجواب: «إنَّ هـذه الشـكوى والشـهادة لا تعمّ جميعَ أُمّة النبيِّ صـلى الله عليه و آله، وإنّما البعض. كيف! وفيهم أولياء القرآن، ورجال لا تلهيم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله»(5).

وممّا لا إشـكال فيه أنّ المراد بالرسول هنا هو شخص النبيّ الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله بقرينة ذكر القرآن، وعبّر عنه بالرسول تسجيلاً لرسالته، وإرغاماً لأولئک القادحين فى رسالته وكتابه... وهذا القول ممّا يقوله الرسول يوم القيامة لربه على طريق البثّ والشكوى،

1- (1) النساء: آية 41.

2- (2) النحل: آية 84.

3- (3) الزمر: آية 69.

4- (4) انظر: الأقسام فى القرآن الكريم: ص 53 - ص 54.

5- (5) تفسير الميزان: ج 1، ص 297.

وعلى هـذا فالتعبير بالماضـى بعنايـة تحقق الموضوع، والمراد بالقوم عامّـة العرب، بل عامّـة الأمّة لكن بلحاظ الكفرة والعصاة منهم، فليس الأمر فيهم على حدّ سواء(1).

ومن طريف القول ما وقع من النزاع بين رجلين من أُمّـة النبيِّ الأكرم صـلى الله عليه و آله فى ذلک، والأوّل هو معاوية بن أبى سـفيان، حيث كان يفتخر بأنّه من قريش، حيث يقول أمامَ الرَّجُل الثانى – وهو رجل من الأنصار –: «فضّل الله قريشاً بثلاث:

1 – وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ الْأَقْرَبِينَ (2) ، ونحن الأقربون.

2 – وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ (3) ، ونحن قومه.

3 – و لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (4).

فقال الرجل الأنصارى: على رَسْلِکَ يا معاوية، قال الله: وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُکَ (5) وأنت من قومِه، و إِذا قَوْمُکَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (6) وأنت من قومه، و إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (7) وأنت من قومه، فهذه ثلاث بثلاث، ولو زدتنا لزدناک. فأفحمه»(8).

نعود إلى أصل البحث، وهو اتّخاذ القرآن مهجوراً؛ حتّى نعرف ما هو الهجر الذى يسبب الشكوى؛ لكى نجتنبه ولا نكون ممَّن يتّصف به.

1– (1) انظر: تفسير الميزان: ج 15، ص 205.

2– (2) الشعراء: آية 214.

3– (3) الزخرف: آية 44.

4– (4) الإيلاف: آية 1.

5– (5) الأنعام: آية 66.

6– (6) الزخرف: آية 57.

7– (7) الفرقان: آية 30.

8– (8) الصراط المستقيم: ج 3، ص 49.

الهَجْر لغة:

الهَجْر فى اللغة: هو قول الخنا والإفحاش فى المنطق(1) ، أو قول غير الحقّ، مثل قول المريض(2) أو الهذيان(3).

وعليه نزّل بعض المُفسّرين تفسير الآية المباركة، حيث قال:

«واختلف أهلُ التأويل فى معنى اتّخاذهم القرآن مهجوراً، فقال بعضهم: كان اتّخاذهم ذلک هجراً قولهم فيه السىء من القول، وزعمهم أنّه سحر، وأنّه شِعْر»(4).

وفى تفسير الثعلبى قال:

«... وقال الآخرون: هو من الهجران، أى: أعرضوا عنه وتركوه، فلم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه»(5).

ومن هنا نعرف

«أنَّ هذا الهجر لا يكون إلاّ بعد وصل، فالمشركون لم يأتوا إلى القرآن، ولم يدخلوا فى ظلّه؛ ليهجروه بعد ذلک، بل هو فى بعض أُمّة محمّد صلى الله عليه و آله»(6).

هذا ما وقفت عليه من كلمات أهل اللغة.

الهَجر اصطلاحاً

اشارة

وأمّا الهَجر اصطلاحاً، فيمكن أن يتحقّقَ فى الخارج بأحد الأنحاء التالية:

النحو الأول: عدم قراءته

قد يكون أوضح مصداق لهَجْر القرآن الكريم هو عدم التلاوة والقراءة له، وهذا صريح فى روايات أهل البيت عليهم السلام، فقد روى عن الإمام أبى الحسن الرضا عليه السلام أنّه قال:

1- (1) انظر: كتاب العين: ج 3، ص 387. الصحاح: ج 2، ص 851.

2- (2) لسان العرب: ج 5، ص 253.

3- (3) مجمع البحرين: ج 4، ص 406.

4- (4) تفسير جامع البيان: ج 19، ص 13.

5- (5) تفسير الثعلبى: ج 7، ص 132.

6- (6) الإمامة تلک الحقيقة القرآنية: ص 307.

«أمر الناس بالقراءة فی الصلاة؛ لئلا یکون القرآن مهجوراً وضیعاً، ولیکون محفوظاً مدروساً»(1).

وهذا هَجرٌ للقرآن باللسان، فقد یکون قلب الإنسان متعلّقاً بالقرآن الکریم لکنّه لم یتعاهده ولم یقرأه؛ لانشغاله بأمور دنیویة أو معاشیة واجبة أو مستحبة.

ولذا قسّم الراغب الأصفهانی الهَجر إلی هَجْرِ القلب، وهَجْرٍ بالقلب واللسان(2).

ومن هنا ورد الحثُّ الأکید، والثواب الجزیل علی تلاوة القرآن الکریم وتعاهده؛ لکی لا تحصل القطیعة بین العبد وبین دستوره الأساس القرآن الکریم.

ففی الکافی الشریف عن أبی عبد الله الصادق علیه السلام أنَّه قال:

«القرآن عهد الله إلی خلقه، فقد ینبغی للمرء المسلم أن ینظر فی عهده، وأن یقرأ منه کُلَّ یوم خمسین آیة»(3).

وفیه أیضاً عن أبی جعفر علیه السلام قال:

«قال رسول الله صلی الله علیه و آله: مَن قرأ عشر آیات فی لیلةٍ لم یُکتب من الغافلین، ومَن قرأ خمسین آیة کُتب من الذاکرین، ومَن قرأ مائة آیة کُتب من القانتین، ومَن قرأ مائتی آیة کُتب من الخاشعین، ومَن قرأ ثلاث مائة آیة کُتب من الفائزین، ومَن قرأ خمسمائة آیة کُتب من المجتهدین، ومَن قرأ ألف آیة کُتب له قنطار من تبر؛ القنطار خمسة عشر ألف مثقال من ذهب، والمثقال أربعة وعشرون قیراطاً أصغرها مثل جبل أُحد، وأکبرها ما بین السماء إلی الأرض»(4).

النحو الثانی: عدم التدبّر فیه

ومن مصادیق هَجْر القرآن الکریم عدم التدبّر فی معانیه، وعدم التأمّل فی مضامینه، فقد لا یکون العبد متّصفاً بالنحو الأول من الهَجر – عدم التلاوة – بل کان یُکثر من القراءة

1- (1) علل الشرائع: ج 1، ص 26. عیون أخبار الرضا: ج 1، ص 113.
2- (2) انظر: مفردات غریب القرآن: ص 536.
3- (3) الکافی: ج 2، ص 609، ح 1.
4- (4) المصدر نفسه: ج 2، ص 612، ح 5.

له، لكنّها قراءة غير متدبّرة، بل قراءة عابرة لا تزيد على لقلقة اللسان.

وقد ذمّ الله عزّ وجلّ أقواماً لم يتدبّروا القرآن، حيث يقول تبارک وتعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها1.

وعن النبيِّ صلى الله عليه و آله أنّه لما نزلت بعض الآيات، قال:

«ويلٌ لمَن لاكها بين فكّية، ولم يتأمّل فيها»(1).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال:

«ألا لا خيرَ فى قراءةٍ لا تدبُّر فيها»(2).

بل ورد فى الأدعيـة المرويّة عن أهل البيت عليهم السـلام الدعاء برفع الغشاوة عن البصـر والقلب؛ لأجل فهم الآيات المباركة، والتدبّر فى معانيها، والتأمّل فى مضامينها.

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه كان إذا قرأ القرآن يأخذ المصحف ويقول:

«... اللَّهُمّ أنّى أشهد أنَّ هذا كتابک المنزل من عندک، على رسولک محمّد بن عبد الله... ولا تطبع عند قراءتى على قلبى، ولا على سمعى، ولا تجعل على بصرى غشاوةً، ولا تجعل قراءتى قراءةً لا تدبُّر فيها، بل اجعلنى أتدبّر آياته وأحكامه، آخذاً بشرائع دينک»(3).

وقال بعض الأكابر: «... وأمّا مَن وفّقه الله تعالى لتلاوته بتفكّر وتدبّر وتفهّم لمعانيه واسـتنباط لأحكامه، فلا مرية أنَّ تلاوته وإن قلّت أفضـل من ختمات»(4).

ولا يخفى أنّ الثمرة من هـذا الحثّ الأكيد، والطلب الشديد على التدبّر فى التلاوة مرجعها إلى القارىء نفسه أولاً، فهو المسـتفيد الأول من هذه القراءة التى تدبَّر فيها، فكم من عاصٍ اهتدى بآيةٍ، وكم من قاطع طريق اهتدى بتدبّرٍ فى استماعه لقارئٍ لآيةٍ من

1- (2) تفسير مجمع البيان: ج 2، ص 470. التفسير الأصفى: ج 1، ص 188.

2- (3) مشكاة الأنوار: ص 242.

3- (4) مكارم الأخلاق: ص 343.

4- (5) شرح أصول الكافى: ج 11، ص 44.

القرآن الكريم. حتّى روى أنّ رجلاً – وهو الفضيل بن عياض – كان يقطع الطريق، وأنّه عشق جاريةً وارتقى جداراً لها، فسمع تالياً يتلو أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّهِ (1) فتاب ورجع، فورد مكة وجاور بها الحرم ومات بها سنة 187 ه –(2).

فلو لم يكن قد تأمّل فى هذه الآية التى تطلب الرجوع إلى الله عزّ وجلّ، والخشوع أمام عظمته وجبروته؛ لما اهتدى ولما تاب، بل مضت الآية كغيرها من آلاف الآيات التى قُرأت وسُمعت فى آناء الليل وأطراف النهار.

وقد ضرب أهل البيت عليهم السلام أروع أمثلة التدبّر فى القرآن الكريم، فعن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال:

«لو أردتُ أن أختُمَ فى أقلّ من ثلاث لختمتُ، ولكن ما مررتُ بآيةٍ قطّ إلاّ فكّرت فيها، وفى أىِّ شىءٍ أُنزلت، وفى أى وقتٍ، فلذاك صرت أختمه فى ثلاث»(3).

النحو الثالث: عدم التطبيق وترک العمل بالمضمون

النحو الثالث من أنحاء الهَجْر هو عدم العمل بالمضمون، فقد يكون العبد كثير التلاوة والتدبّر، لكن ما إن ينتهى من تلاوته وتدبّره تنتهى عنده حالة التفاعل مع المضمون الذى تدبّر فيه، فلا ينزله إلى الواقع الخارجى ولا يعمل بمضمونه.

فمثلاً نجد قارئاً للقرآن الكريم يقرأه على أحسن وجه، ويتدبّر جيداً فى قوله تعالى: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (4)، ويتدبّر فيها جيداً، ويعلم أنّ القرآن لا يفوته شىء لا صغير ولا كبير، حيث يقول عزّ من قائل: وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلاّ

1– (1) الحديد: آية 16.

2– (2) حاشية ردّ المختار: ج 1، ص 62.

3– (3) مناقب آل أبى طالب: ج 3، ص 469.

4– (4) الجاثية: آية 29.

أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً (1) لکنّه فی التطبیق الخارجی تارةً یسخر من هذا، وأخری یکذب علی ذاک، فیُملی علی حافظیه کتاباً مملوءاً بالذنوب والمعاصی.

وهذا النحو من الأنحاء الثلاثة هو أکثر ما یقع به الناس، بل أکثر ما یتورّط به أهلُ الدرایة والفهم، فللأسف الشدید تجد الکثیر من هؤلاء ممَّن ینطبق علیه عبارة (یعرف ویحرف) فلعلَّکَ لا تجده یفارق القرآن الکریم وتلاوته، ولا یفارق التدبّر فیه وفی مضامینه العالیة، لکنّه ما إن ینتهی حتّی تجده یرتکب عین ما قرأه، وعین ما تدبّر فیه، وهذه مصیبة عظمی، ورزیة کبری، سواء کانت المخالَفة علی مستوی العقائد أم علی مستوی الأحکام والآداب، فهو یقرأ قول تعالی: إِنَّما یُرِیدُ اللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً (2)، وبصوتٍ حسنٍ، ویتأمّل فیها ویتدبّرها جیداً، لکن عندما یرید أن یصل إلی العمل بمضمونها تراه یتردّد؛ لأنها لا توافق معتقده ومزاجه المُرّ، ونفسه الخبیثة.

وفی نفس السیاق هناک آیة أُخری، وهی قوله تعالی: وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِینَ وَ کَفی بِرَبِّکَ هادِیاً وَ نَصِیراً .

وقد ورد قریب من هذا المعنی فی قوله تبارک وتعالی: وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا شَیاطِینَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ 3.

والمعنی الإجمالی للآیة الشریفة هو التسلیة لقلب رسول الله صلی الله علیه و آله «أی: کما جعلنا هؤلاء المجرمین عدوّاً لک، کذلک جعلنا لکلّ نبیٍّ عدوّاً منهم، أی: هذه من سنتنا الجاریة فی الأنبیاء وأُممهم، فلا یسؤنَّکَ ما تلقی من عداوتِهم، ولا یشقّنَّ علیکَ ذلک، ففیه تسلیة للنبیِّ صلی الله علیه و آله... ومعنی جعل العدوّ من المجرمین: أنّ الله جازاهم علی معاصیهم بالختم علی

1- (1) الکهف: آیة 49.

2- (2) الأحزاب: آیة 33.

قلوبهم، فعاندوا الحقّ وأبغضوا الداعی إلیه، وهو النبیُّ، فلعداوتهم نسبه إلیه تعالی بالمجازاة، وقوله: وَ کَفی بِرَبِّکَ هادِیاً وَ نَصِیراً معناه – علی ما یعطیه السیاق – لا یهولنَّکَ أمر عنادهم وعداوتِهم، ولا تخافنَّهم علی اهتداء الناس، ونفوذ دینک فیهم وبینهم، فحسبک ربُّکَ کفی به هادیاً، یهدی مَن استحق من الناس الهدایة واستعدَّ له... فظهر أنَّ صدر الآیة مسوق لتسلی النبیِّ صلی الله علیه و آله، وذیلة للاستغناء عن المجرمین من قومه»(1).

ولذا لم تنتهِ العداوة بشخص النبیِّ الأکرم صلی الله علیه و آله، بل تتبّعتْ کلّ مَن له صلة وثیقة به صلی الله علیه و آله من أهل بیته الأطهار علیهم السلام؛ بیت علیّ وفاطمة علیها السلام، فکان القوم أبناء القوم، بالأمس کان العدو للرسول الأکرم هو أبو جهل، وأبو لهب، وأبو سفیان، والیوم معاویة، ومروان، ویزید، وأضرابهم.

ومن هنا نری أنَّ معاویة لمّا قدِمَ المدینة صعد المنبر، فخطب ونال من علیّ علیه السلام، فقام الحسن، فحمد الله وأثنی علیه، ثمّ قال:

«... إنّ الله لم یبعث نبیّاً إلاّ جعل له عدوّاً من المجرمین، قال الله وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِینَ

فأنا ابنُ علیٍّ وأنت ابنُ صخرٍ، وأُمّک هند وأُمّی فاطمة، وجدتُک قتیلة وجدتی خدیجة، فلعن الله ألأمَنا حَسَبَاً، وأخملنا ذکراً، وأعظمنا کفراً، وأشدَّنا نفاقاً».

فصاح أهلُ المسجد: آمین، آمین، فقطع معاویة خطبته ودخل منزله(2).

واستمرّت عداوة المجرمین، وشیاطین الجنّ والإنس تأجّج نار العداوة والبغضاء، حتّی تجلّت بأبشع صورها، وأشدّ مظاهرها علی جسد أبی عبد الله الحسین علیه السلام، یعنی علی جسد رسول الله صلی الله علیه و آله؛ لأنَّه جدّ الحسین وهو القائل:

«حُسینٌ منّی وأنا من حُسین»(3)، فقتّلت

1- (1) تفسیر المیزان: ج 15، ص 205 – ص 206.

2- (2) کشف الغمّة: ج 2، ص 196.

3- (3) کامل الزیارات: ص 116 – ص 117.

ذریـة رسول الله بأیـدی أعـداء الله وأعـداء رسوله، والأـدهی من ذلک أنّهم یقتلون أولاد الأنبیاء، ویتکلّمون بکلام الصـدّیقین، کما قالها ابن عفیف الأزدی أمامَ عبید الله بن زیاد فی الکوفة(1) ، بل یتکلّمون بکلام الله عزّ وجلّ، وهو ما أمر به تبارک وتعالی من تکبیر وتهلیل.

وکما یقول الشاعر:

ویُکبّرون بأن قُتلتَ وإنّما قتلوا بکَ التکبیرَ والتهلیلا(2)

بل قتلوا القرآن ونحروه وضیّعوه، ولذا تقرأ فی زیارة الإمام الحسین علیه السلام المطلقة:

«... فقُتلتَ مظلوماً، وأصبح رسولُ اللهِ صلی الله علیه و آله بکَ موتوراً، وأصبح کتابُ اللهِ من أجلِکَ مهجوراً»(3).

نعم، أصـبح کتاب الله مهجوراً بکلّ أنحاء الهَجر الثلاثة؛ فلم یقرؤوا الحسـین ولم یتدبّروه، ولم یعملوا بمضمونه ومدالیله التی تخرجهم من الظلمات إلی النور، فو الله لحظهم أخطأوا، وعن ثواب الله زاغوا، وعن جوار محمّدٍ صلی الله علیه و آله تباعدوا(4).

وساعد الله قلب أُمّه فاطمة الزهراء علیها السلام، کأنّی بها تنادیه:

منی حاضرة یحسین یبنی یمَن ریت ذبّاحک ذبحنی

اسعدنی علی ابنی یالتحبنی صوابه تره بگلبی وشعبنی

ونسّانی الضلع وسواد متنی

1- (1) انظر: جواهر المطالب: ج 2، ص 293.

2- (2) کتاب التعجّب: ص 117.

3- (3) المقنعة: ص 490.

4- (4) اقتباس من قول الإمام الصادق علیه السلام. انظر: کامل الزیارات: ص 493.

أنا الوالدة والگلب لهفان وأدوِّر عزه ابنى وين ما چان

أويلى على ابنى المات عطشان ولعبت عليه الخيل ميدان

***

ص:74

وأما الموالى فينادى:

ما هو لأجل الثواب ابجيت واجره لا جن نار بصميم الگلب وجره

إمصاب حسين أبد ما صار وجره فرض كلّ يوم ننصبله عزيّه

اليمّة تنصب بعاشور عشره على الداست ضلوعه خيول عشره

ولا تنسه الشبجت على الراس عشره تنادى حسين خويه الحگ علىَّ

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:75

المحاضرة السادسة: التوسّل حقيقة قرآنية

اشارة

ص:77

دُمْ يا حُسينُ مدى الزّمانِ مُخلَّدا نوراً وصوتَ هدايةٍ لن يُخمدا

هذا طريقُک وهو سيفٌ قاطعٌ فيه نُحطِّمُ مَن عليه تمرّدا

يا سيّد الأحرار يا رمزَ الإبا لولاکَ ما وجد الزمانُ موحّدا

شيّدتَ دينَ محمّدٍ وأقمتَه لمّا سللتَ على الضلالِ مُهنّدا

وبذلتَ ما ملکتْ يَداکَ لنصره حتّى استوى رَغمَ العدوّ مُشيّدا

تاللهِ لا ننساکَ يا ابنَ المُصطفى فوقَ الصَّعيدِ مُبضّعاً ومُجرَّدا

رضوا بجُردِهُمُ قِراکَ وأضرموا ناراً بأخبيةِ المکارمِ والنَّدى

قَتَلوکَ ضمآناً کأن لم يعلموا قتلوا بقتلِکَ فى الطفوفِ مُحمّدا

وسبوا إليکَ کرائماً سبىَ الإما للشام فى رکبٍ به الحادى حدا

ولمجلسِ الطاغى جُلبن حواسراً يَندُبنَ يا جدّاه ما بين العدا(1)

1- (1) القصيدة لأستاذنا الخطيب البارع المرحوم الشيخ محمد سعيد المنصورى رحمه الله، وهو الخطيب الكبير، محمد سعيد بن الشيخ موسى المنصورى، ولد فى النجف الأشرف عام 1350 ه - ق (فى حدود 1931 م)، درس المقدمات والسطوح فى مسقط رأسه النجف الأشرف، ثمّ هاجر إلى إيران فى حدود الستينيات، وسكن مدينة عبادان، وبقى ينتقل بينها وبين البصرة، وبقية محافظات العراق إلى زمان مجىء زمرة البعثيين المجرمة، ثمّ انتقل إلى مدينة قم المقدّسة فى سنة 1980 م، تتلمذ على يد مجموعة من فطاحل الخطابة أمثال أستاذه المرحوم السيد محمد سعيد العدنانى الغريفى. لأستاذنا المنصورى حسٌّ شعرى رائع، وخطابة حسينية فريدة، ونغمة حنين نادرة، وعبرات وآهات تبكى صمّ الصخور قبل رقائق القلوب. انتقل إلى رحمة الله وإلى جوار من أحبّهم وندبهم ورثاهم، وبكى عليهم ليلاً ونهاراً إلى جوار رسول الله وآله الأطهار إن شاء الله تعالى، وذلک يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الأول عام 1428 ه -، فشيّع تشييعاً مهيباً من قبل العلماء وطلاب العلم وطلابه، ودفن فى مثواه الأخير جنب ولده الخطيب المرحوم الشيخ عبد الحسين المنصورى الّذى سبقه إلى القضاء؛ فتركه بحسرةٍ شديدةٍ وألمٍ لطالما قرأتُه على صفحات محيّاه، وذلک فى قم المقدّسة فى مقبرة (باغ بهشت).

طبيت والديوان والناس متّجمعه من كلّ الأجناس

يهود ونصارى وكفر وأرجاس من شاهدونى مهبّطة الراس

صاحوا يا زينب وين عبّاس

***

قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (1).

القرآن الكريم دستور متكامل، وكتاب هداية، يأخذ كلّ قارئ له بما يستوعبه عقلُه، ويُحيط به فهمُه، ففيه العبارة، ولديه الإشارة، وفى طياته اللطائف، وفى أعماقه الحقائق.

فقد يدرك البعضُ منه الأكثرَ، وقد يُدركُ القليلُ منه الكثيرَ، ولكن يحيط بفهمه مَن كان عِدلاً وترجماناً له، وهم مَن أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا(2)، فإنّه لا يمسّه إلاّ المطهرون(3)، ولا يصل إلى حقائقه وفهمه المذنبون والمغفّلون والظالمون، بل العلم والحفظ لا يؤتاه عاصى، كما فى آداب المتعلّمين(4).

1- (1) المائدة: آية 35.

2- (2) انظر: الأحزاب: آية 33.

3- (3) انظر: الواقعة: آية 79.

4- (4) انظر: منية المريد: ص 224.

ومن هنا روى عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال:

«كتاب الله عزّ وجلّ على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»(1).

وقد اشتملت هذه الآية المباركة على أكثر هذه الأشياء الأربعة، التى أشار إليها الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام.

والخطاب فى هذه الآية موجّه للمؤمنين: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...، وأمرَهم أن يتَّقوه ويجتنبوا معاصيه، ويبتغوا إليه الوسيلة ويجاهدوا فى سبيله لأجل الفلاح، فالآية مشتملة على أوامر ثلاثة: (التقوى، وابتغاء الوسيلة، والجهاد فى سبيله) وبما أنّ كلَّ واحدةٍ من هذه الثلاث تحتاج إلى بحثٍ مفصّل، سأقتصر فى حديثى هنا على واحدة فقط، مع الإشارة إلى إرتباطها بالاثنتين، والواحدة هى الوسيلة والتوسّل وابتغاؤها الذى أمرنا به القرآن الكريم.

الوسيلة لُغةً

قال الجوهرى:

«الوسيلة ما يُتقرّب به إلى الغير، والجمع الوسيل والوسائل، والتوسّل واحد، يُقال: وسل فلان إلى ربّه وسيلةً، وتوسّل إليه بوسيلة، أى: تقرّب إليه بعمل»(2).

وفى لسان العرب: «الوسيلة: المنزلة عند الله، والوسيلة الدرجة، والوسيلة القربة، ووسل فلان إلى الله وسيلةً إذا عمل عملاً تقرّب به إليه، والواسل الراغب إلى الله»(3).

فالوسيلة تشبه الذريعة إلاّ أنّه يوجد بينهما فرق.

1- (1) بحار الأنوار: ج 89، ص 103، ح 81.
2- (2) الصحاح: ج 5، ص 1841.
3- (3) لسان العرب: ج 11، ص 724.

قال فی الفروق اللغویة:

«الفرق بین الوسیلة والذریعة: أنّ الوسیلة عند أهل اللغة هی القربة، وأصلها من قولک: سألت أسأل، أی: طلبت، وهما یتساولان أی: یطلبان القربـة التی ینبغی أن یُطلب مثلها، وتقول: توسّـلت إلیه بکـذا، فتجعل کـذا طریقاً إلی بغیتک عنـده، والذریعة إلی الشـیء هی الطریقة إلیه، ولهذا یُقال: جعلت کذا ذریعة إلی کذا، فتجعل الذریعة هی الطریقة نفسها، ولیست الوسیلة هی الطریقة، فالفرق بینهما بیّن»(1).

وکلام أهل اللغة لا یخرج عن هذا المعنی فی بیان الوسیلة، وما ذکرته خلاصة ما یمکن أن یقال فی الوسیلة لغةً.

الوسیلة اصطلاحاً

وأمّا الوسـیلة عنـد المفسّـرین فی الآیـة المبارکة - بعد اتفاقهم علی أنّه شـیء یُتوصل به إلی الله عزّ وجلّ - فقد وقع الخلاف فی بیانها علی أقوال:

القول الأول: أنّ المقصود من الوسـیلة فی الآیـة المبارکـة محل البحث، وفی الآیـة الأُخری التی وردت فیها هذه المفردة، وهی قوله تعالی أُولئِـکَ الَّذِینَ یَـدْعُونَ یَبْتَغُـونَ إِلی رَبِّهِمُ الْوَسِـیلَةَ أَیُّهُمْ أَقْرَبُ وَ یَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ یَخـافُونَ عَـذابَهُ (2) هو القربـة، ولعل هذا مشـهور مفسِّری الجمهور، کالطبری(3) والسمرقندی(4) والسمعانی(5) وصاحب زاد المسیر(6) فی أحد قولیه، والحاکم فی المستدرک(7).

1- (1) الفروق اللغویة: ص 572.

2- (2) الإسراء: آیة 57.

3- (3) انظر: جامع البیان: ج 6، ص 308.

4- (4) انظر: تفسیر السمرقندی: ج 1، ص 411.

5- (5) انظر: تفسیر السمعانی: ج 1، ص 411.

6- (6) انظر: زاد المسیر: ج 2، ص 272.

7- (7) انظر: المستدرک علی الصحیحین: ج 2، ص 312.

والذی یؤاخذ علی هؤلاء أنّهم لم یفسّروا الماء – بعد الجهد – إلاّ بالماء؛ فإنّهم لم یزیدوا علی بیان الوسیلة شیئاً، فما هذه القربة التی یُتقرَّب بها إلیه عزّ وجلّ، فهل هی الصلاة، أم الصوم، أم ماذا؟

وعلی سبیل المثال، فالطبری قال ما نصّه:

«واطلبوا القربة إلیه بالعمل بما یرضیه»(1)، ولعلّه یقصد کلّ ما یرضیه، وحینئذٍ یکون قوله کالقول الثانی الآتی.

القول الثانی: أنّ المقصود بالوسیلة الواردة فی القرآن الکریم، هو: کلّ شیء یُتوسّل به إلی الله من قرابةٍ أو صنیعة أو غیر ذلک، کما نصّ علیه النسفی فی تفسیره(2).

والأمر حینئذٍ یکون واضحاً من دونِ حاجةٍ للإکثار من ذکر المصادیق، فعلی هذا القول کلّ ما یمکن التقرُّب بهِ إلی الله عزّ وجلّ، من صلاة، أو صیام، أو تقوی، أو ترک غِیبة، أو إحسان وما شاکل ذلک، فهو من الوسیلة التی أمر بها اللهُ عزّ وجلّ.

قال الراغب الأصفهانی: «وحقیقة الوسیلة إلی الله تعالی مراعاة سبیله بالعلم والعبادة، وتحرّی مکارم الشّریعة، وهی کالقربة، والواسل الراغب إلی الله تعالی»(3).

وقال ابن عربی فی تفسیره: اتَّقُوا اللّهَ بالتزکیة، وَ ابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَةَ بالتحلیة، وَ جاهِدُوا فِی سَبِیلِهِ بمحو الصفات والفناء بالذات لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ من ظهور بقایا الصفات والذات(4).

القول الثالث: شخصُ النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله أو الإمام المعصوم علیه السلام، وقد دلّت علی ذلک روایات من الفریقین.

1- (1) جامع البیان: ج 6، ص 308.
2- (2) انظر: تفسیر النسفی: ج 1، ص 281.
3- (3) مفردات غریب القرآن: ص 524.
4- (4) تفسیر ابن عربی: ج 1، ص 201.

منها: ما ذكره فی الإنصاف، قال: «قال الإمام أحمد للمروزی: یتوسّل بالنبیِّ صلی الله علیه و آله فی دعائه، وجزم به فی المستوعب وغیره، وجعله الشیخ تقی الدین کمسألةِ الیمین به، قال: والتوسّل بالإیمان به، وطاعته ومحبّته، والصلاة والسلام، وبدعائه وشفاعته، ونحوه، ممّا هو من فعله أو أفعال العباد المأمور بها فی حقّه، مشروع اجماعاً، وهو من الوسیلة المأمور بها فی قوله تعالی: اتَّقُوا اللّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَةَ 1.

ومنها: ما فی العهود المحمدیّة، عن عائشة، قالت: «فمفتاح قضاء الحاجة الهدیة بین یدیها، فإذا حمدنا الله تعالی رضی عنّا، وإذا صلّینا علی النبیّ صلی الله علیه [وآله] وسلم شفع لنا عند الله فی قضاء تلک الحاجة، وقد قال تعالی: اتَّقُوا اللّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَةَ.

وتأمّل بیوت الحُکّام [والکلام لصاحب العهود المحمدیة] تجدها لا بدّ لک فیها من الواسطة الذی له قرب عند الحکّام، وإدلال علیه؛ لیمشی لک فی قضاء حاجتک، ولو أنّک طلبت الوصول إلیه بلا واسطة لم تصل إلی ذلک.

وإیضاح ذلک: أنَّ مّن کان قریباً من الملک، فهو أعرف بالألفاظ التی یخاطب بها الملک، وأعرف بوقت قضاء الحوائج، ففی سؤالنا للوسائط سلوک للأدب معهم، وسرعة لقضاء حوائجنا، ومن أین لأمثالنا أن یعرف أدب خطاب الله عزّ وجلّ. إذا سألتم الله حاجة فاسألوه بمحمد صلی الله علیه [وآله] وسلم وقولوا: اللَّهُمَّ إنا نسألک بحقّ محمد أن تفعل لنا کذا وکذا، فإنَّ لله مَلَکاً یبلغ ذلک لرسول الله صلی الله علیه [وآله] وسلم ویقول له: إنَّ فلانا سأل الله تعالی بحقّک فی حاجة کذا وکذا، فیسأل النبیَّ صلی الله علیه [وآله] وسلم ربه فی قضاء تلک الحاجة فیجاب؛ لأنَّ دعاءَه صلی الله علیه [وآله] وسلم لا یُردّ. قال: وکذلک القول فی سؤالکم الله تعالی بأولیائه، فإنَّ الملَک یبلغهم فیشفعون له فی

قضاء تلک الحاجة»(1).

ومنها: ما فی مجمع البیان عنه صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«سلوا الله الوسیلة، فإنّها درجة فی الجَنّة لا ینالها إلاّ عبد واحدٌ، وأرجو أن أکون أنا هو»(2).

ومنها: ما أخرجه البخاری من أنَّ عمر بن الخطاب کان إذا قحطوا استسـقوا بالعباس بن عبد المطلب، فقال: «اللهم إنا کنّا نتوسّل إلیک بنبینا صلی الله علیه [وآله] وسـلّم فتسـقینا، وإنّا نتوسّل إلیک بعمِّ نبینا فاسـقنا. قال: فیُسقون» وعلّق علیه ابن حجر فی فتح الباری قائلاً: «ویستفاد من قصّة العبّاس استحباب الإستشفاع بأهل الخیر والصلاح، وأهل بیت النبوّة»(3).

وروی الشّیخ الصّدوق رحمه الله عن الإمام الباقر علیه السـلام روایة تنهی عن سؤال الحاجة من المخالفین، وقد علّل الإمام علیه السـلام ذلک بقوله:

«لا تسألوهم الحوائج؛ فتکونوا لهم الوسیلة إلی رسول الله یوم القیامة»(4).

وأمّا الروایات الواردة فی خصوص طرقنا فی معنی الوسیلة، وأنّها الإمام المعصوم علیه السلام، فهی کثیرةٌ، ووردت بألسن متعددة.

منها: ما عن رسول الله صلی الله علیه و آله:

«نحن الوسیلة إلی الله»(5).

منها: ما ورد بلسان أمیر المؤمنین علیه السلام

«أنا وسیلته»(6).

ومنها ما ورد فی بعض الأدعیة والزیارات، کما فی قوله علیه السلام:

«وجعلْتَهُم الوسیلةَ إلی رضوانِکَ»(7)، أو

«وجعلْتَهُم الذرائعَ إلیکَ، والوسیلةَ إلی

1- (1) العهود المحمّدیة: ص 280.

2- (2) مجمع البیان: ج 3، ص 326 - ص 327.

3- (3) فتح الباری: ج 2، ص 413.

4- (4) علل الشرائع: ج 2، ص 564، ح 2.

5- (5) بحار الأنوار: ج 25، ص 23.

6- (6) مناقب آل أبی طالب: ج 2، ص 273.

7- (7) مكيال المكارم: ج 1، ص 326.

رضوانِکَ»(1) کما فی دعاء الندبة.

وفی دعاء الإمام السّجاد علیه السلام فی عرفة:

«وجعلْتَهُم الوسیلةَ إلیکَ، والمسلکَ إلی جنّتکَ»(2).

ولنِعمَ ما قال الشاعر:

آلُ النبیّ ذریعتی وهُم إلیهِ وسیلتی

أرجو بأن أُعطی غداً بیدِ الیمین صحیفتی(3)

ورحم الله السیّد الحمیری حیث یقول:

وإذا الرجال توسّلوا بوسیلةٍ فوسیلتی حبّی لآل محمدٍ(4)

ویکفیک إذعاناً بذلک مراجعة سبب نزول قوله تعالی: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَیِّئاً عَسَی اللّهُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (5) ، فالمروی عن المعصوم علیه السلام أنّها نزلت فی أبی لُبابة بن عبد المنذر، وکان رسول الله صلی الله علیه و آله لمّا حاصر بنی قریظة، قالوا له: ابعث إلینا أبا لبابة نستشیره فی أمرنا، فقال رسول الله صلی الله علیه و آله: «یا أبا لُبابة، ائتِ حلفاءَک ومواليک» فأتاهم، فقالوا له: یا أبا لُبابة، ما تری ننزل علی حکم محمّد؟ فقال: أنزلوا واعلموا أنَّ حکمه فیکم هو الذبح! وأشار إلی حلقه، ثمَّ ندم علی ذلک، فقال: خنتُ الله ورسوله، ونزل من حصنهم، ولم یرجع إلی رسول الله صلی الله علیه و آله، ومرّ إلی المسجد، وشدَّ فی عُنقِهِ حبلاً، ثمَّ شدّه إلی الإسطوانة التی تُسمّی إسطوانة التوبة، وقال: لا

1- (1) بحار الأنوار: ج 99، ص 105.

2- (2) إقبال الأعمال: ج 2، ص 91.

3- (3) مناقب آل أبی طالب: ج 2، ص 3.

4- (4) مناقب آل أبی طالب: ج 3، ص 299.

5- (5) التوبة: آیة 102.

أحلّه حتّى أموت، أو يتوب الله علىّ، فبلغ رسول الله صـلى الله عليه و آله فقال: «أمّا لو أتانا لاسـتغرفنا الله له، فأمّا إذا قصد إلى الله ربه فالله أولى به». وكان أبو لبابة يصوم النهار ويأكل بالليل ما يمسک به رمقه، فكانت ابنته تأتيه بعشائه، وتحلّه عند قضاء الحاجة، فلمّا كان بعد ذلک ورسول الله صـلى الله عليه و آله فى بيت أُمّ سلمة، نزلت توبته، فقال: «يا أُمّ سلمة، قد تاب الله على أبى لبابة»، فقالت: يارسول الله، أفأوذنه بذلک؟ فقال: لتفعلِن، فأخرجت رأسـها من الحجرة، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر! قد تاب الله عليک، فقال: الحمد لله، فوثب المسلمون ليحلّوه، فقال: لا والله، حتّى يحلّنى رسول الله، فجاء رسول الله صـلى الله عليه و آله فقال: «يا أبا لبابـة، قـد تاب الله عليک توبـةً لو ولدت من أُمّک يومک هذا لكفاک»(1).

هذا؛ لأنَّ أبا لبابة لم يقتل نبيّاً، ولاحجةً من حجج الله، وإلاّ لما قُبِلت توبته؛ لما روى فى الكافى الشريف:

«... فأمّـا ما يجب فيه النار فرجلٌ يقصـد لرجل مؤمن من أولياء الله فيقتله على دينه متعمّـداً، فقـد وجبت فيه النار حتماً وليس له إلى التوبة سبيـلٌ، ومثـل ذلـک مثـل مَن قتـل نبيـاً من أنبيـاء الله عزَّ وجـل، أو حجّـة من حجـج الله على دينه، أو ما يقرب من هـذه المنازل فليس له توبة...»(2).

والذين تكاثروا على الإمام الحسين عليه السلام فقتلوه، لم يكتفوا بقتله فحسب، بل مثّلوا بجسده الطاهر، وسبوا عياله من بلدٍ إلى بلد، وكأنّى بالحوراء زينب عليها السلام تنادى أُمّها فاطمة عليها السلام:

يا فاطمة يمّ الميامين يلگبرچ خفى ما يندره وين

أخبرچ بالجره والصار بحسين ظل علثره من غير تكفين

وعبّاس البطل مگطوع الايدين واتسلّبت كلّ النساوين

1- (1) انظر: تفسير القمى: ج 1، ص 303 - ص 304.

2- (2) الكافى: ج 7، ص 277.

وأنا ادخلت يمّه الدواوين

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:88

المحاضرة السابعة: الصبر

اشارة

ص:89

حكمُ المنيّةِ فی البريةِ جاری ما هذه الدُنيا بدارِ قرارِ

بينا يُرى الإنسانُ فيها مُخبراً حتّی يُرى خبراً مِنَ الأخبارِ

طُبعتْ علی كَدَرٍ وأنتَ تُريدُها صفواً من الأقذاءِ والأكدارِ

ومكلّفُ الأيامِ ضدَّ طباعِها متطلبٌ فی الماءِ جذوةَ نارِ

وإذا رجوتَ المستحيلَ فإنّما تبنی الرجاء علی شفيرٍ هارِ

فالعيشُ نومٌ والمنيّةُ يقظةٌ والمرءُ بينهما خيالٌ سارِ

والنفس إنْ رضيتْ بذلک أو أبتْ منقادةٌ بأزمّةِ الأقدارِ

إيّاک أن تغترَّ بالدهر الذی أودی بآل المُصطفی الأبرارِ

نُحرت نحورُهم بعرصة كربلا عطشاً وماء النهر فيها جاری

أبكيهم تحت العَجاج وبينهم ثاوٍ شبيهُ المصُطفی المُختارِ

لم أنسَهُ والسبطُ جاثٍ حولَه يدعو بدمعٍ هاطلٍ مدرارِ

يا كوكباً ما كان أقصرَ عُمره وكذا تكونُ كواكبُ الأسحارِ

عجل الخسوفُ عليهِ قبلَ أوانه فطواه قبلَ مظنّةِ الإبدارِ

فكأنَّ قلبی قبره وكأنّه فی طيّهِ سرٌ من الأسرارِ

جاورتُ أعدائی وجاور ربّه شتان بينَ جوارهِ وجوارِ(1)

1- (1) القصيدة لأبی الحسن التهامی رحمه الله، قال عنه الزركلی فی الأعلام: (ج 4، ص 327). وابن خلكان فی وفيات الأعيان: (ج 3، ص 378 - ص 471): «هو علی بن محمد بن فهد أبو الحسن التهامی الشاعر، مولده ومنشؤه باليمن وطرأ علی الشام وسافر منها إلی العراق وإلی الجبل، ولقی الصاحب بن عبّاد وقرأ عليه، وتقلّد الخطابة بالرملة وتزوّج بها، وكانت نفسه تحدثّه بمعالی الأُمور، وكان يكتم نسبه فيقول تارةً: إنّه من الطالبيين، وتارة من غيرهم، ولا يتظاهر بشیء من الأمرين، نسخ شعر البُحتری... اعتقل بخزانة البنود بالقاهرة لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة 416 ه -، ثمّ إنّه

(أبوذية)

شافه والنبل نابت علیّ راح گعد عنده وصفگ راح علی راح

وگام وصاح یا زینب علی راح یختی أظلّمت الدنیا علیَّ

***

قال تعالی: وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَیْ ءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصّابِرِینَ (155) اَلَّذِینَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِیبَةٌ قالُوا إِنّا لِلّهِ وَ إِنّا إِلَیْهِ راجِعُونَ (156) أُولئِکَ عَلَیْهِمْ صَلَواتٌ

ص:92

مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (1).

الصبر

اشارة

هو حبس النفس عمّا تُحب وترک الجزع عندما تکره. وهو أيضاً تحمّلُ الإنسان لحالة حدثت له تستدعی فيه التحمّل والهدوء، ومعالجة الأُمور بتعقّل ولو طالت مدّة هذه الحالة.

مثل تحمّل المريض لمرضه، وصاحب المصيبة لمصيبته، وأيضاً تحمّل الإنسان لترک الذنوب، وتحمّل البقاء علی شکر الله عند حصول النعمة، والاستمرار فی طاعته وعدم معصيته.

والصبر من فروع الرضا بقضاء الله وقدره، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وضده الجزع الذی هو عدم الصبر علی البلاء.

وقد قُسّم الصبرُ إلی أقسامٍ وأنواع منها:

1 - الصبر علی الطاعة

بمعنی أن يتحمّل المداومة التی تحتاجها الطاعة، فترى البعض من الناس ليس عنده القدرة علی تحمّل رکعتی صلاة الصبح، بل أکثر من ذلک، البعض لا يستطيع أن يتحمّل الزمان الذی يستغرقه الآذان أو تستغرقه الإقامة.

حُکی أنّ أحد الولاة - ولعلّه معاوية بن يزيد بن معاوية - سمع أحدَ الرعيّة يدعو عليه بالهلاک، ويقول: اللّهُمَ خلّصنا منه. فخرج هذا الوالی، وقال له: عَلامَ أنت تدعو علیَّ وأنا لم يکن لی معکم إلاّ بعض الأيام، فما لکم قد مللتمونی؟!

قال الرّجل: أيّها الوالی! إننی أبتدأ بالأذان وأشرع حتّی إذا بلغت وسطه مللتُ

1- (1) البقرة: آية 155 - آية 157.

فقطعته(1).

فهذا نموذج من الناس تراهم ليس لهم القابلية على تحمّل أبسط الأُمور، وهذه الحالة تعترى الكثير من بنى البشر.

فالصبر على المداومة على الطاعة – بالحقيقة – هو صبر على النعمة التى أنعم الله بها على الإنسان؛ بأن يصبر على الشكر لصاحب النعمة، وهو الله فيسير فى طريق الإستقامة، فيصبر على الطاعة كما يصبر على أن لا يعصى خالقه، ويستمر فى العبادة والصلاة لوقتها وصوم شهر رمضان وغير ذلک، وهو بتوفيق الله تعالى والمداومة يصبح يسيراً، وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنّا وجدنا الصّبرَ على طاعةِ اللهِ أيسرَ من الصّبرِ على عذابه»(2).

2 – الصبر على عدم معصية الله

بأن يصبر أن لا يغتاب، ولا يكذب، ولا يتكبّر، ولا يرتكب المحرّمات، وغيرها، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«اصبروا على عملٍ لا غنى لكم عن ثوابه، واصبروا على عملٍ لا طاقة لكم على عِقابه»(3).

وهذا النوع من الصبر من الأنواع التى تحتاج إلى المجاهدة والرياضة النفسية العالية، حتّى قيل: إنّ الصبر على عدم المعصية أفضل من كلّ مراتب الصبر(4).

3 – الصبر على البلاء والمصائب

وهذا هو محل الكلام، فكلّ إنسان يُعانى من هذه الأُمور، فإنْ أراد الراحة فى الدنيا والثواب فى الآخرة، فعليه أن يصبر ويسلّم أمره إلى الله، ويتوكّل عليه ويرضى بقضاء الله

1– (1) (1) لم أعثر على مصدرها، وإن كنت قرأتها من قَبل فى كتاب طرائف، لم يحضرنى اسمه.
2– (2) مستدرک الوسائل: ج 11، ص 261، ح 7.
3– (3) أمالى الصدوق: ص 170، ضمن الحديث الخامس.
4– (4) الأربعون حديثاً: ص 251.

وقدره، ويحاول أن يعالج البلاء بتعقّل وهدوءٍ.

فعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«الجَنّةُ محفوفةُ بالمكاره والصبر، فمَن صبر على المكاره فى دار الدنيا دخل الجَنّة، وجهنم محفوفة باللَّذات والشهوات، فمَن أعطى نفسه لذّتَها وشهوتَها دخل النار»(1).

ولوتأمّلنا فى الآيات التى افتتحنا بها المحاضرة، نلاحظ عدّة امتحانات وبأشكال مختلفة، فتارةً يكون الامتحان عن طريق الخوف، وأُخرى عن طريق الجُوع، وثالثة عن طريق النقص فى الأموال والأنفس من خلال الموت وما شاكله، فالآية تعرّضت للاختبار الإلهى العام، ولمظاهره المختلفة، باعتباره سنّة كونية لا تقبل التغيير، وكما كان الانتصار فى هذه الاختبارات لا يتحقّق إلاّ فى ظل الثبات والمقاومة، قالت الآية بعد ذلک: (وبشّر الصابرين)، فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الامتحانات لا غيرهم.

ثُمَّ الآية التى بعدها تُعرِّفُ الصابرين، وتقول: الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنّا لِلّهِ وَ إِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ، فالإقرار التامّ بالعبودية المطلقة لله يعلّمنا أن لا نحزن على ما فاتنا؛ لأنّه سبحانه مالكنا ومالک جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إيّاها، وإن استوجبت المصلحة أخْذَها سَلَبَها مِنّا، وفى المنحة والمحنة مصلحة لِنا.

والالتفات المستمر إلى حقيقة عودتنا إلى الله سبحانه وتعالى، يشعرنا بزوال هذه الحياة، وبأنَّ نقص المواهب المادية وتوفرها عَرض زائل، ووسيلة لارتقاء الإنسان إلى سنّ تكامله، فاستشعار العبودية والعودة فى عبارة (إنا لله وإنا إليه راجعون) له الأثر الكبير فى تعميق روح المقاومة والاستقامة والصبر فى النفس(2).

1- (1) الكافى: ج 2، ص 89 - ص 90، ح 7.

2- (2) روى عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّه قال: «إنّ قولنا: إنا لله، إقرارٌ على أنفسنا بالملک، وقولنا: إنا إليه

ومن الواضح أنَّ المقصود من قول هذه العبارة ليس ترديدها باللسان فقط، بل استشعار هذه الحقيقة، والالتفات إلى ما تنطوى عليه من توحيد وإيمان(1).

وقد يسأل سائل: لماذا هذا الاختبار الإلهى وبأشكاله المختلفة؟ من عادتنا نحن البشر أن نختبر الأفراد؛ لنفهم ما نجهله عنهم، فهل الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى مثل هذا الاختبار لعِباده، وهو العالم بكلّ الخفايا والأسرار؟! وهل هناك شىء خَفِيَ عنه سبحانه وتعالى حتّى يظهر له من خلال ذلك؟!

والجواب: إنّ مفهوم الاختبار الإلهى يختلف عن الاختبار البشرى؛ لأنَّ اختبارات البشر بعضهم للبعض الآخر غايتها - كما ذُكر آنفاً - لرفع الإبهام والجهل، وأمّا الاختبار الإلهى فالأمر فيه ليس كذلك، بل المقصود منه التربية.

فالاختبار الإلهى يشبه عمل مُزارعٍ خبيرٍ، ينثر البذور الصالحة فى الأرض الصالحة؛ كى تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعة، وتبدأ بالنمو، ثُمَّ تصارع هذه البذور كلّ المشاكل والصعاب بالتدريج، وتقاوم الحوادث المختلفة كالرياح العاتية، والبرد الشديد، والحرّ اللاّفح؛ لتخرج بعد ذلك نبْتة مزهرة أو شجرة مثمرة، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب.

وهذا هو سرّ الاختبارات الإلهية، فقد قال سبحانه وتعالى: وَ لِيَبْتَلِيَ اللّهُ ما فِى صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِى قُلُوبِكُمْ وَ اللّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (2) ، فمع أنّه تبارک وتعالى عليم بذات الصدور، ولا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض، وما تسقط من ورقة ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ وهو تعالى مطّلع عليه

1- (1) تفسير الأمثل: ج 1، ص 440 - ص 442. (بتصرّف).

2- (2) آل عمران: آية 154.

وحاضر لديه، إلاّ أنّه يبتلى عباده لا ليفهم ويطّلع، بل ليربى ويروّض.

ومن هنا يقول أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة مبيِّناً سبب الاختبارات الإلهية

«... وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التى بها يُستحقُّ الثواب والعقاب»(1) ، أى أنّ الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معياراً للثواب والعقاب، فلا بدَّ أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، والله يختبر عِباده؛ ليتجلّى ما يضمرونه فى أعمالهم، ولكى تنتقل قابليّاتهم من القوّة إلى الفعل، وبذلك يستحقّون الثواب أو العقاب.

فإذا صبر الإنسان على ما ابتلاه به الله تبارک وتعالى من خوف، أو جوعٍ، أو نقصٍ فى الثمرات، أو الأنفس، أو غير ذلک، أعطى الصبرُ نتائجَه؛ لأنّ لكلّ زرعٍ ثمراً، ولكلّ فعل ردَّ فعل.

وأوّل نتائج الصبر هذا هو ما ذكرته الآية الأخيرة من الآيات التى صدّرنا بها المحاضرة، وهى قوله تعالى: أُولئِکَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ، هذه الصلوات والرحمة تجعل هؤلاء على بصيرةٍ من أمرهم، فى مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق والأخطار؛ لذلک تقول الآية: وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (2).

والنتيجة الثانية المترتبة على الصبر هى: الراحة فى دار الدنيا، والثواب العظيم فى الآخرة.

والنتيجة الثالثة هى: حبّ الله تبارک وتعالى للصابرين، حيث قال تعالى: وَ اللّهُ يُحِبُّ الصّابِرِينَ 3.

والنتيجة الرابعة هى: كون الله تبارک وتعالى معهم، إذ قال تعالى: وَ اللّهُ يُحِبُّ

1- (1) نهج البلاغة: ج 4، ص 645، الحكمة رقم 93.

2- (2) انظر: تفسير الأمثل: ج 1، ص 441.

الصّابِرِينَ 1.

والنتيجة الخامسة هى: التحيّة والسلام من الله عزّ وجلّ، قال تعالى: سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدّارِ2.

وهـذا فيض من غيضٍ، وقطرة من بحر متلاطم، من النتائـج المترتّبة على التمسُّک بالصبر، وإلاّ فالآياتُ عديدة، والروايات كثيرة وكثيرة جداً فى الصبر وأجره وما أعدَّه الله للصابرين، ممّا قد يخرج عن حدّ الإحصاء.

لقد روى أنّ نبىّ الله عيسـى عليه السلام: «مرَّ برجلٍ أعمى وأبرص ومقعد، مضروب الجنبين بالفالج، قد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذى عافانى ممّا ابتلى به كثيراً من خلقه. فقال له نبىّ الله عيسـى عليه السـلام: يا هذا، وأىّ شـىء من البلاء تراه مصـروفاً عنک؟ فقال: يا روح الله، أنا خير ممَّن لـم يجعل الله فى قلبه ما جعل فى قلبى من معرفته، فقال: صـدقت، هات يـدک. فناوله يـده، فإذا هو أحسـن الناس وجهاً، وأفضلهم هيئةً، قد أذهب الله عنه ما كان به»(1).

هـذا الرجل الذى سـمعتم حكايته كان يحمد الله على معرفته به، ولكن مِنَ المقطوع به أنّه لـم يُصب كما أصاب الدهر أبا عبد الله الحسـين عليه السلام، صاحب المصيبة والرزية العظمى، حيث ورد عنه عليه السلام أنّه قال بعد أن تفاقم الخطب أمامه فى كربلاء، واستُشهد أصحابه وأهل بيته:

«هوّن علىّ ما نزل بى أنّه بعين الله»(2).

ما أعظمكم يا آل مُحَمّـدٍ! انظروا ما يقول: بأبى وأُمّى: إنَّ الـذى خفّف علىَّ هذه المصائب، وهذه الرزايا والمحن كونها فى منظر الله تبارک وتعالى، فهو يعلم بها، ويحتسبها

1- (3) مُسكنُ الفؤاد: ص 87. بحار الأنوار: ج 79، ص 153 - ص 154.

2- (4) اللهوف: ص 69، عنه البحار: ج 45، ص 46.

عنده ليومٍ لا ريب فيه.

ولكن يقول كما يقول جدّه المصطفى صلى الله عليه و آله:

«العين تـدمع، والقلب يحزن... وإنّـا بفراقِک يا إبراهيم لَمحزونون»(1)، وكـذلک: وإنّا بفراقک يا عليّ الأكبر لمحزونون، وخاصّة أنّه أشـبه الناس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً بالنبيِّ الأعظم صـلى الله عليه و آله، فالحسين يوم عاشوارء - بالحقيقة - فقد النظر إلى رسول الله صلى الله عليه و آله، وهذا ما يعظّم الخطب.

ولـذا قالوا: إنّ أبا عبـد الله الحسـين عليه السـلام صار فى حالة احتضار عند مصـرع ولده عليّ الأكبر، زينب تعلم بأنّه إذا بقى الحسـين عند مصـرع ولـده على واضـعاً خـدَه على خدِه سوف تفارق روحه الدنيا، فأرادت زينب عليها السـلام أن تحافظ على حياة أخيها الحسـين، وأن تشـغله عن مصـيبة ولده؛ لذا خرجت من الخيمة تنادى وا علياه وا نورَ بصـراه وا ثمرة فؤاداه، لمّا سـمع الحسـين صوت زينب قام إليها قائلاً: أُخيه زينب ارجعى إلى الخيمة، لا تُشـمتى بنا الأعداء، فرجعت عليها السلام، ولكن لمّا جىء به إلى الخيمة أقبلت حتّى رمت بنفسها على جسده، وهى تنادى: وا علياه.

هوت فوگه تحب خدّه وتشمه وغدت تصبغ وجهها إبفيض دمه

عسه إبعيد البله تگله يعمّه عله التربان نايم ليش بالحَرّ

بعـد ذلک جاءت إليه أُمُّه ليلى - بعدما أتوا به إلى المخيم - وقعت عليه، احتضـنته، وهى تشـمّه وتضـمّه، وأحاطت به عمّاته وأخواته يبكينه ويندبنه، وكذلک حضر والده الحسين عليه السلام، وكأنّى به يخاطب ولده الأكبر عليه السلام:

1- (1) صحيح البخارى: ج 2، ص 85.

يبويه إشلون ما تبچى الزچيه اوگطع يبنى الدهر وصلک علىَّ

يبويه جدک اوجدتک هيه أعتنوا يبنى يعزونى على فگدک

يبويه يا لفجعنى ابفگدک البين يا روحى اوچبدتى اوشوفت العين

اشحال أُمّک الظلت بالصواوين تهل اعيونها اوتربى اعله دربک

***

أمّا أُمّه ليلى فكأنّى بها تخاطبه:

گلبى ابيا سبب يبنى وداعى تصد عنّى اولا تسمع وداعى

أنا ما أطلب بحگى وداعى گلى اوداعة الله اوهاى هيه

***

يا كوكباً ما كان أقصرَ عمره وكذا تكون كواكب الأسحارِ

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:100

المحاضرة الثامنة: العبادة

اشارة

ص:101

خانَ الزمانُ بنا فشتّتنا كما خانت بنو صخرٍ ببيعةِ (مُسلمِ)

لم أنسَهُ بينَ العِدى وجبينُه كالبدرِ فی ليلِ العَجاج المظلمِ

أفديهِ من بطلٍ مهيبٍ إنْ سطا لفَّ الجموعَ مؤخّراً بمقدّمِ

شهمٌ دعته إلى البسالة هاشمٌ والشبلُ للأسدِ المجرّب ينتمی

حتّى إذا ما أثخنوه بالضُّ با ضرباً وفی وسط الحفيرة قد رُمی

جاءوا إلى ابن زياد فيه فمُذْ رأى للقصْر قد وافاهُ غير مُسلّمِ

قال اصعدوا للقصرِ وارموا جسمَه ومن الوريدين اخضبوه بالدّمِ

صعدوا به للقصرِ وهو مكبّلٌ تجری دماهُ من الجوارحِ والفمِ

قتلوه ظامٍ لم يبل فؤادَه أفديهِ من ظامِ الحشا متضرّمِ

دفعوه من أعلى الطّمار إلى الثری فتكسّرت منه حنايا الأعظمِ (1)

***

1- (1) القصيدة للسيد مهدی الأعرجی رحمه الله، قال عنه السيّد جواد شبّر رحمه الله فی أدب الطف (ج 9: ص 193 - ص 198): «السيد مهدی الأعرجی ابن السيد راضی ابن السيد حسين ابن السيد علی الحسينی الأعرجی البغدادی، ولد السيد مهدی فی النجف الأشرف سنة 1322 ه - ق، درس فن الخطابة علی خاله الخطيب الشهير الشيخ قاسم الحلی، زاول نظم الشعر وعمره أربعة عشر سنة، وأول قصيدة نظمها هی قصيدة فی رثاء الإمام الحسن السبط عليه السلام: قضی الزكی فنوحوا يا محبيه وأبكو عليه فذی الأملاک تبكيه درس العربية والعروض علی العلاّمة الكبير شيخ الأدب السيد رضا الهندی رحمه الله، توفی السيد مهدی سنة 1359 ه - ق غريقاً بشط الفرات فی الحلّة يوم الخامس من شهر رجب، جمع ديوانه شقيقه الخطيب السيد حبيب، وللسيد الأعرجی ظرافة وخفة روح بالرغم من الجهمة التی لا تفارق محيّاه، فلا تكاد تفوته النادرة والنكتة، وأمّا ولاؤه لأهل البيت وتفانيه فی حبّهم فهو من ألمع ميزاته، ولا زلت أتمثّله فی المآتم الحسينية يجهش بالبكاء، وقد أفنی عمره فی خدمة المنبر الحسينی».

یمسلم وین ذاک الیوم عبّاس یجیک بشیمته ومفرّع الراس

اویشوفک یوم صابک نذل الأرجاس وهویت من الگصر فوک الوطیه

یمسلم وین ذاک الیوم عمّک یجیک إیعاینک غارج إبدمک

وحید ومحّد من الناس یمّک غریب إبهل البلد مالک تچیه

(أبوذیة)

عدوک چیف یا مسلم تجاره ابحبل جسمک یشدونه تجاره

لمصابک دمع عینی تجاره اوعلیک الروح یا مسلم شجیه

***

قال تعالی: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِیَعْبُدُونِ (1).

إنّ الغایة من خلق السماوات والأرَضین وجمیع المخلوقات، هی العبادة والخضوع للخالق العظیم بنیّةٍ خالصةٍ عن طریق معرفته عزّ وجلّ.

ومن أهمِّ الأسئلة التی تختلج فی صدر کلّ إنسان: لِمَ خُلقنا؟! وما الهدفُ من خلق الناس، والمجیء إلی هذه الدنیا؟!

لا ـ شکّ أنّ کلّ فردٍ عاقلٍ وحکیمٍ حین یقوم بعمل ما فإنّما یهدف من وراء عمله إلی هدف معیّن، فکیف بالله تعالی، وهو الحکیم العلیم الذی لا ینبغی قیاسه بأیّ شیءٍ، ما هو هدفه من خلق الإنسان؟!

فهل کان یشعر بنقصٍ – أعوذ بالله – فارتفع ذلک النقص بخلق الإنسان؟!

أوکان محتاجاً – نستجیر به تعالی – إلی شیء فارتفع الاحتیاج بخلقنا؟!

وعلیه فلا بدّ لله تبارک وتعالی من هدف؛ لأنّه سیّد العقلاء ولا یخلق شیئاً عن عبث،

1- (1) الذاریات: آیة 56.

فلا بدّ من هدف لله تبارک وتعالی وراء خلقه للإنسان.

وبحکم کونه تبارک وتعالی یمثل الکمال المطلق، ولیس هناک من شیء یزیده أو ینقصه، لزم أن یکون الهدف عائداً للإنسان نفسه.

فما هو الهدف إذن ؟

الهدف هو ما صرّحت به الآیة المبارکة، وهو العبودیة، عبودیة الإنسان الناقص للکامل المطلق، عبادة المحدود للاّمحدود.

إلاّ أنّنا لو تأمّلنا فی بعض الآیات القرآنیة الأُخری، لرأینا أنّها تشیر إلی أهداف أُخری، ففی بعضها یصرّح القرآن الکریم بأنّ الهدف من الخلق هو الامتحان.

کما جاء فی قوله تعالی: وَ إِنْ قِیلَ لَکُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ1.

وفی آیة أُخری نجد أنَّ الهدف من خلق الإنسان هو حتّی یعلم بقدرة الله تبارک وتعالی وعلمه عزّ وجلّ.

کما فی قوله تعالی: الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیاةَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (1).

وآیة ثالثة تشیر إلی أنّ الهدف من الخلق هو الرحمة – رحمة الله –. قال تبارک وتعالی: اللّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ یَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَیْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ عَلی کُلِّ شَیْ ءٍ قَدِیرٌ وَ أَنَّ اللّهَ قَدْ أَحاطَ بِکُلِّ شَیْ ءٍ عِلْماً (2).

وأمّا الآیة التی هی محل البحث فهی – کما ذکرنا – صریحة بأنَّ الهدف من خلق الله تبارک وتعالی للإنسان هو العبادة، بل إنّها تحصر علّة وسبب الخلق فی العبادة، فما هو الوجه

1– (2) الطلاق: آیة 12.

2– (3) هود: آیة 118 – آیة 119.

فی الحصـر، ونحن نجد الآیات الأخری تذکر أسـباباً أخری هی السـبب فی الخلق، وخاصّة الآیة الثالثة فهی صـریحة جداً فی تعیین سبب الخلق، حیث قال تعالی: وَ لِذلِکَ خَلَقَهُمْ.

ولو تأمّلنا قلیلاً فی مفهوم هذه الآیات وما شابهها نری أنّه لا تضاد ولا اختلاف بینها، ففی الحقیقة بعضـها تشیر إلی هدف مُقدّمی، وبعضها إلی هدف متوسط، وبعضها إلی هدف نهائی، وبعضها إلی النتیجة.

فالهـدف الأصل هو (العبودیة)، وهو ما أُشـیر إلیه فی الآیة التی هی محل البحث، أمّا العلم والامتحان وأمثالهما فهی أهداف ضـمن مسـیر العبودیة لله، ورحمة الله الواسعة نتیجة العبودیة لله تبارک وتعالی.

وهکذا یظهر لنا بکلّ وضوح أنّنا خُلقنا لعبادة الله تبارک وتعالی، لکنَّ المهم أنّ نعرف ما هی حقیقة هذه العبادة؟!

فهـل المراد منهـا أداء المراسم أو المناسـک الیومیّـة وأمثالهـا من صوم وصـلاة إلی غیر ذلـک؟ أو هی حقیقـة وراء هـذه الأُمور وإن کانت المناسک کلّها واجدة للأهمیّة؟!

وللإجابـة علی هذا السؤال ینبغی معرفة معنی کلمة (العبد) و (العبودیة) وتحلیلها، فالعبد لغةً: هو الإنسان المتعلّق بمولاه وصاحبه من قَرنه إلی قدمه، وإرادته تابعة لإرادته، وما یطلبه ویبتغیه تبع لطلب سیده وابتغائه، فلا یملک فی قباله شیئاً، ولیس له أن یُقصّر فی طاعته(1).

وهـذا مفهوم عام یشـمل حتّی العبیـد مع مواالیهم العرفیّین؛ ولـذا یُذکر أنَّ عبداً شاهد مولاه مهموماً، فقال هذا العبد - وکان مؤدّباً وعاقلاً - لمولاه: لماذا أنت مهموم؟

قال المولی: إنّی مدیون والتفکیر فی الدیون سلبنی الراحة، فقال الغلام: حسناً، خذنی إلی سوق الرقیق، وأعرضنی للبیع وبثمنی سدد دیونک.

1- (1) انظر: تفسیر الأمثل: ج 17، ص 132 - ص 134.

قال: إنّ لديَّ قروضاً كثيرة وثمنک لا يكفى لعُشْر قروضى.

قال الغُلام: سعّرنى بنفس المقدار الذى أنت مدين به.

قال المولى: إنّهم لا يشترونک بهذا السعر، قال الغلام: قل للزبائن إنّ هذا الغلام لديه صفة حسنة جداً وارتفاعُ سعره ناجم عن حيازته تلک الصفة، و هى أنّه يعرف جيّداً أسلوب العبودية.

جاء المولى بالغلام – ولم يفهم مقصود الغلام جيداً – إلى سوق الرقيق، وسعّره بسعرٍ يعادل عشرة أضعاف سعره الطبيعى، مثلاً إذا كان السعر المتعارف لهذا الغلام عشرة آلاف دينار كان يقول إنّى أبيع هذا الغلام بمئة ألف دينار. وكان كلّ مَن يسمع ذلک يضحک، إلى أن سأله إنسان عاقل عن سبب ارتفاع سعر الغلام.

قال المولى: إنّ ارتفاع سعر الغلام يرجع إلى أنّه يعرف طريقة العبودية جيداً.

قال الرجل: إذا كان كما تقول فقيمتُه أكثر من ذلک، إنى اشترى هذا الغلام بشرط هذه الصفة، وإذا لم أجدها فيه يحقّ لى فسخ المعاملة.

وخلاصة الأمر: دفع هذا الرجل المبلغ وهو مئة ألف دينار، وأخذ الغلام للبيت، ومن أجل أن يعلم معرفة الغلام طريقة العبودية أمرَ بضربه بالسوط، والغلام لا يبكى ولا يتأوه، ولا يسأل عن سبب ضربه بالسوط!

أمر الرجل بترک الغلام، ثُمَّ قال له: ألم تكن تشعر بالألم؟ قال: نعم، قال: ألم تكن تعلم أنّک تضرب بدون سبب؟ قال الغلام: نعم، قال الرجل: إذن لماذا لم تحتجّ على ذلک؟

قال الغلام: أنا عبد وأنت مولى، ولا يليق أن يسأل العبد عن سبب تصرّفات مولاه، فالعبد يجب أن يكون مطيعاً لمولاه مئة بالمئة، إذا أنعمت علىّ فأنا مطيع لک، وإذا ضربتنى بالسوط أنا مطيع لک(1) ، وهذا هو معنى العبد والعبودية، فهى تعنى منتهى الخضوع والتسليم للمعبود.

1- (1) انظر: الأخلاق والآداب الإسلامية: ص 523 – ص 524.

والمعبود الوحيد الذى له حقّ العبادة على الآخرين هو الذى بذل منتهى الإنعام والإكرام، وليس ذلک سوى الله سبحانه وتعالى.

ثمَّ إنّ العبـادة على أقسـام، فمنها: عبادة المحبّين والملتـذّين والعارفين إلى غير ذلک من أنواع العبادة التى تختلف باختلاف درجات القُرب من المولى عزّ وجلّ، ومن هنا قسّم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العبادة إلى أقسام ثلاثة، قال عليه السلام:

«إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلک عِبادة التجار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلک عِبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوه شكراً فتلک عِبادة الأحرار»(1).

وللعبادة عدّة شروط مذكورة فى محلها، أهمها:

1 – النية الخالصة لله: فليس الهدف من العِبادة إرضاء الناس أو الحصول على مكسب دنيوى، بل يعبد الله قربة إلى الله.

2 – حضور القلب: فبـدون حضور القلب تعتبر العِبـادة ناقصـة، والطريق إلى إكمالهـا هو الإتيان بالنوافل، كما أشارت إليه بعض الروايات الشريفة(2).

3 – العِلم: فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «لا خير فى عِبادة لا فقه فيها»(3).

4 – الصلاة على محمّد وآل محمّد: فقد ورد أنّ الدعاء محجوب حتّى يصلّى العبد على محمّد وآل محمّد(4).

ومن هنا قال الشافعى:

يا أهلَ بيتِ رسولِ اللهِ حُبُّكُمُ فَرضٌ من اللهِ فى القرآنِ أنزلَهُ

كَفاكُمُ من عظيمِ القَدرِ أنَّكمُ مَنْ لم يُصَلِّ عَليكُمْ لا صلاةَ لَهُ (5)

1- (1) نهج البلاغة: ج 4، ص 53.

2- (2) انظر: وسائل الشيعة: ج 4، ص 53، باب عدد الفرائض اليومية، ح 22.

3- (3) مشكاة الأنوار: ص 242.

4- (4) انظر: الكافى: ج 2، ص 491، باب الصلاة على النبىّ وآله صلى الله عليه و آله، ح 1.

5- (5) إعانة الطالبين: ج 1، ص 200.

5 – اليقين: فعن رسول الله صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «لا عبادة إلاّ بيقين»(1).

فإذا جاء الإنسان بهذه الشروط توقّع من الله عزّ وجلّ حينئذٍ الثمار المترتّبة على العبادة، وأهم هذه الثمرات الفوز بالآخرة والحياة السعيدة المطمئنة الأبدية، وغيرها من الثمرات الدنيوية والأُخروية. وأعبَد عبادِ الله الأنبياء والأوصياء، ثُمَّ الأمثل فالأمثل.

وإذا أردنا أن نتعلّم العبادة وحقيقتها وكنهها، فلا بدّ أن نراجع سيرة أهل البيت عليهم السلام وأولادهم والذين نشأوا فى بيوتهم وتربَّوا فى كنفهم.

كانوا يقضون أيامهم بالعبادة، أمّا اللّيل فصافّون أقدامهم تالين لآيات القرآن، وأمّا النهار فصائمون حُلماء أبرار.

ومن هذه البيوت، ومن هؤلاء الذين تغذّوا من ثدى الإمامة وعاشوا فى كنفها، مسلم بن عقيل بن أبى طالب عليه السلام، كان فى بيت طوعة، وقُبَيل الفجر جاءت إليه بماءٍ ليتوضأ به قائلةً: يا مولاى ما رأيتک رقدت البارحة – حيث قضى تلک الليلة قائماً وقاعداً، راكعاً وساجداً – فقال لها: اعلمى أنّى رقدت رقدة فرأيت فى منامى عمّى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول: الوحى الوحى، العجل العجل، وما أظن إلاّ أنّه آخر أيامى من الدنيا.

فتوضّأ وصلّى صلاة الفجر، وكان مشغولاً بدعائه إذ سمع وقع حوافر الخيول وأصوات الرجال، فعرف أنّه قد أُتى إليه، فعجّل فى دعائه، ثُمَّ لبس لامةَ حربه، وقال: يا نفس، اخرجى إلى الموت الذى ليس له محيص.

فقالت المرأة: سيدى أراک تتأهب للموت! قال: نعم، لا بدّ لى من الموت وأنتِ قد أدّيتِ ما عليک من البرّ والإحسان، وأخذتِ نصيبکِ من شفاعة رسول الله صلى الله عليه و آله، فاقتحموا عليه الدار وهم ثلاثمائة، وقيل: سبعون فارساً وراجلاً، فخاف مسلم أن يحرقوا عليه الدار، فخرج وشدّ عليهم حتّى أخرجهم من الدار، ثُمَّ عادوا إليه، فحمل عليهم وهو

1- (1) مستدرک الوسائل: ج 11، ص 196، ح 8.

يقاتلهم ويقول:

هو الموتُ فاصنعَ ويکَ ما أنتَ صانعُ فأنت بكأسِ الموتِ لا شکّ جارعُ

فصبراً لأمر الله جلَّ جلالُه فحكم قضاء الله فى الخلق واقعُ

حتّى قتل منهم واحداً وأربعين رجلاً، وكان من قوّته أنّه يأخذ الرجل بيده فيرمى به فوق البيوت، وبعدما أكثر القتل فيهم، طلب قائد الجيش محمّد بن الأشعث النجدة من عبيد الله بن زياد قائلاً: أدركنى بالخيل والرجال، فأنفذ إليه ابن زياد يقول: ثكلتک أُمّک وعدموک قومک. رجل واحد يقتل هذه المقتلة العظيمة! فكيف لو أرسلتک إلى مَن هو أشدّ بأساً؟ - يعنى الحسين عليه السلام - فأرسل إليه ابن الأشعث يقول: تظنّ أنّک أرسلتنى إلى بقّال من بقّالى الكوفة؟ أو إلى جرمقان(1) من جرامقة الحيرة؟ وإنّما وجهتنى إلى بطل همام، وشجاع ضرغام، من آل خير الأنام. فأرسل إليه بالعساكر وقال: إعطه الأمان فإنّک لا تقدر عليه إلاّ به.

وقد أُثخن مسلم بالجراح لأنّهم أحتوشوه من كلّ جانبٍ ومكان؛ ففرقة ترميه من أعالى السطوح بالنار والحجارة، أُخرى بالسيوف، وثالثة بالرماح، ورابعة بالسهام، وكان قد اشتبک مسلم عليه السلام مع بكر بن حمران فضربه بكر على فمه الطاهر فقطع شفته العليا، فقال له ابن الأشعث: لک الأمان يا مُسلم لا تقتل نفسک، فقال: أىّ أمانٍ للغدرة الفجرة؟ وأقبل يقاتلهم وهو يقول:

أقسمت لا أقتل إلاّ حُرّاً وإنْ رأيتُ الموتَ شيئاً نُكرا

كلُّ إمرئٍ يوماً مُلاقٍ شرّاً أخاف أن أُخدَعَ أو اغرّا

1- (1) الجُرمقان: واحده جرموق، وهو ما يُلبس فوق الخفّ، والجرامقة: قومٌ بالموصل أصلهم من العجم. انظر: مختار الصحاح: ص 55.

وكان قد أَثخن بالجراح حتّى عجز عن القتال، فأسند ظهره إلى جنب جدار فضربوه بالسهام والأحجار، فقال: مالكم ترمونني بالأحجار كما تُرمى الكفار؟ وأنا من أهل بيت النبيّ المختار: ألا ترعونَ رسول الله فى عترته؟

قال السيد ابن طاووس رحمه الله: «... وتكاثروا عليه بعد أن أُثخن بالجراح، فطعنه رجل من خلفه فخرّ إلى الأرض، فأُخذ أسيراً»(1).

وقيل: قد حفروا له حفيرة فوقع فيها أثناء القتال. هذا وكانت طوعة واقفة وهى تخاطب القوم بلسان الحال:

(بحرانى)

ظلت تناديهم يهل كوفان أرحموه هذا ابن أخو الكرار حيدر لا تسحبوه

خلوه يمشى براحته گلبه شعبتوه خافوا من الله مالكم مذهب ولا دين

صاحت يمسلم يا عظمها خجلتى بيک شبيدى وأنه حرمه وضعيفه مگدر أحميک

لو يتركونک چنت أفت گلبى وداويک إنچان اسلمت من كيدهم سلِّم على احسين

گَلها يطوعه اليوم ما تحصل سلامه أوصيچ چان ابهل البلد طبو يتامه

1- (1) اللهوف على قتلى الطفوف: ص 35.

گولی تره مسلم یبلغکم سلامه واجرچ علی الله والنبی سید الکونین

أرکبوه علی بغلـة، وأخـذوه إلی ابن زیاد، فجعل یبکی، فقال له عبید بن العباس: إنَّ مَن یطلب مثلَ الذی تطلب إذا نزل به مثل ما نزل بک لم یبکِ.

قال: والله، ما لنفسی بکیت ولکن أبکی لأهلی المقبلین، أبکی للحسین وآل الحسین علیه السلام.

(نعی مجارید)

وین الذی یوصل إبهالحین لرض المدینة ویخبر إحسین

مسلم وحید أوماله إمعین ودارت علیه الگوم صوبین

چتفوه أوظل یدیر بالعین

(نصاری)

یمسلم ریت لن هاشم زلمها تجی أویخفج علی راسک علمها

لاچن حیف ما واحد علمها وحید أنت وغریب أدیر العیون(1)

***

إنْ کنتَ تحزنُ لاّدکار قتیلِ فاحزن لذکری مُسلمِ بنِ عقیلِ

***

إنّا لله وإنّا إلیه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلیّ العظیم،

وسیعلم الذین ظلموا آل مُحَمّد أیَّ مُنقلبٍ ینقلبون

والعاقبة للمتّقین.

1- (1) انظر: مجمع مصائب أهل البیت علیه السلام: ج 1، ص 251 - ص 253.

المحاضرة التاسعة: عبادة الحَرْف

اشارة

ص:113

أناعىَ قتلى الطّفِ لازلتَ ناعيا تُهيج على طُولِ الليالى البواكيا

أعدْ ذكرَهُم فى كربلاءَ إنَّ ذكرَهم طوى جزعاً طىَّ السجّل فؤاديا

ودعْ مقلتى تحمرُّ بعدَ ابيضاضها بعَدِّ رزايا تتركُ الدمعَ داميا

ستنسى الكرى عَينى كأنَّ جُفونَها حلفن بمَن تنعاهُ أن لا تلاقيا

وتُعطى الدموعَ المستهلاّتِ حقَّها محاجرُ تبكى بالغوادى غواديا

وأعضاءُ مجدٍ ما توزّعت الضُبا بتوزيعها إلاّ الندى والمعاليا

لئن فرّقتها آلُ حربٍ فلم تكن لتجمعَ حتّى الحشرِ إلاّ المخازيا

وممّا يُزيلُ القلبَ عن مستقرّه ويتركُ زندَ الغيظِ للحشر واريا

وقوفُ بناتِ الوحى عند طليقِها بحالٍ بها يُشجين حتّى الأعاديا(1)

1- (1) القصيدة لشاعر أهل البيت عليهم السلام السيّد حيدر الحلى، قال عنه السيّد جواد شبّر رحمه الله فى أدب الطف (ج 8، ص 8 - ص 14): «ولد السيد حيدر فى الحلة، وينتهى نسبه إلى الإمام أبى عبد الله الحسين عليه السلام، كان مولده (15) شعبان سنة 1246 ه - الموافق سنة (1830 م)، وقبل أن يكمل عامه الثانى من عمره فقد والده فعاش يتيماً، وتولّى تربيته عمُّه السيد مهدى... كان شاعراً مجيداً من أشهر شعراء العراق أديباً ناثراً جيد الخط، نظم فأكثر ولا سيما فى رثاء الحسين عليه السلام... وقال عنه الزركلى فى (الأعلام): السيد حيدر شاعر أهل البيت فى العراق أديب إمامى شعره حسن، وكان مترفعاً عن المدح والاستجداء، موصوفاً بالسخاء، له ديوان شعر سماه (الدرّ اليتيم)، وأشهر شعره حولياته فى رثاء الحسين عليه السلام... ولا تظنّ أنّ إبداعه يقتصر على مراثى أهل البيت، فإنَّ شعره فى شتّى النواحى مزدان بالإبداع مرصوص الجوانب كالسلاسل الذهبية... ومن آثاره الأدبية: (كتاب دمية القصر فى شعراء العصر) وغيرها. توفى السيد حيدر فى مسقط رأسه - الحلة - عشية الأربعاء، فى الليلة التاسعة من ربيع الثانى، وعمره 59 سنة، ودفن فى النجف الأشرف فى الجهة الشمالية من الصحن الحيدرى».

من طبّت وشافت الديوان مشحون من كلّ بلد وامچان

ما بيهم الينغر وعوّان كلّهم لأهل هالبيت عدوان

ويزيد على تخت المُلک سلطان متنومس وبالنصر فرحان

وكام يتنشّد على النسوان گصده ايعرف زينب الخَوّان

من شافها عليها الحزن بان تشمّت وسبّ داحى البيبان

حنّت وسال الدمع وديان

***

قال تعالى: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَ الآخِرَةَ ذلِکَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ 1.

لقد بُعث النبيُّ الأكرم صلى الله عليه و آله إلى مجتمع تسوده عادات كثيرة نابعة من صميم الجاهلية، وتحكمه ثقافات متنوّعة، وأطياف متعدّدة، وألوان يتلوّن بها بحسب المصالح والمفاسد، وليس هذا الأمر على مستوى المجتمع بما هو مجموعة من الأفراد، بل الأمر أساساً كان منعكساً على الفرد بما هو فرد، حتّى على مستوى العقيدة، فضلاً عن المستوى العبادى.

وما هذه الآية الشريفة إلاّ بيان موجز عن هذه الحالات التى كانت متأصّلة فى هذا المجتمع، فجاءت لِتُبيّنَ لنا هذه الحالة، وتحذّرنا فى نفس الوقت من التورّط فيها والتعاطى معها.

وقد ذكر الواحدى أنّها نزلت فى أعرابٍ كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه و آله المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدُهم إذا قدم المدينة فإن صحَّ وعاش معافى بها، ونتجت فرسُه مُهراً حسناً، وولدت امرأته غلاماً، وكثر ماله وماشيته، آمن به واطمأنّ، وقال: ما أُصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلاّ خيراً، وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية،

وأجهضت دوابه، وذهب ماله، وتأخّرت عنه الصّدقة، أتاه الشيطان، فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينک هذا إلاّ شراً، فينقلب عن دينه، فأنزل الله تعالى: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلى حَرْفٍ 1.

فمن أجل هكذا أُناس من أهل المصالح العبادية، أمكن تقسيم المجتمع فى كلِّ زمانٍ ومكان إلى مجموعاتٍ ثلاثة:

المجموعة الأُولى: المتّقون

وهم الذين تقبّلوا الإسلام فى جميع أبعاده، وفى السّراء والضّراء.

المجموعة الثانية: الكافرون

ويقعون فى النقطة المقابلة للمُتّقين، ويعترفون بكفرهم، ولا يأبون أن يظهروا عداءهم للإسلام فى القول والعمل.

المجموعة الثالثة: المنافقون

اشارة

ولهم وجهان، فهم مسلمون ظاهراً أمام المسلمين، وكفّار أمام أعداء الدين، وشخصيتهم الأصلية هى الكفر طبعاً وإن تظاهروا بالإسلام.

وهذه المجموعة الثالثة تضرّ بالإسلام أكثر من المجموعة الثانية؛ ولذا نرى أنَّ القرآن يقابلهم بشدةٍ أكثر من الكفّار(1).

وأكثر هـذه المجموعـة والمجموعـة الثانية كانوا يعبدونَ الله على حرفٍ، كما وصـفتهم الآية محل البحث، فهى وما بعدها تتحدّث عن هذه المجموعة، وهم ضعاف الإيمان، الذين لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم، وكان على طرف اللسان فقط، وقلوبهم لم ترَ بصيصَ

1- (2) انظر: تفسير الأمثل: ج 1، ص 75.

الإيمان إلاّ الشـيء القليل، حيث كانت هـذه المجموعـة تعيش على هامش الإيمان والإسـلام لا فى عمقه، لأنَّ أحد معانى الحَرف – كما سيأتى – هو حافـة الجبل أو حافة الأشـياء الأُخرى، والذى يقف على الحافّة لا يمكنه أن يسـتقرّ. فهو قلق فى موقفه هذا، يمكن أن يقع بهزّة خفيفة، وهكذا ضعاف الإيمان الذين يفقدون إيمانهم بأدنى سبب.

إنّهم يطمئنون إذا ضـحكت لهم الدنيا وغمرتهم بخيراتها، ويعتبرون ذلک دليلاً على أحقيّة الإسلام، إلاّ أنهم يتغيّرون بسرعة، ويتّجهون إلى الكفر إن امتُحنوا بالمشاكل والقلق والفقر، فالـدين لـديهم وسـيلة للحصول على ما يبتغون فى هـذه الدنيا، فإن تمّ ما يبغونه كان الدين حقّاً، وإلاّ فلا(1).

وهؤلاء وأمثالهم تجـد الـدين عندهم أشـبه ما يكون بالمتاع الذى يُشترى ويُباع؛ لذا روى عن أبى سـعيد الخدرى أنّه قال: «أسـلم رجلٌ من اليهود فذهبَ بصـرُه ومالُه وولدُه وتشاءم بالإسلام، فأتى النبىَّ صلى الله عليه [وآله] وسلم فقال: أقلنى، فقال: إنَّ الإسلام لا يُقال، فقال: إنّى لم أُصب فى دينى هـذا خيراً، أُذهب بصـرى ومالى وولـدى، فقال: يا يهودى، إنَّ الإسـلام يسـبک الرجال كما تسـبک النارُ خبث الحـديد والفضة والذهب، قال: ونزلت وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلى حَرْفٍ»2.

ما هو الحرف؟

لأجل أن لا نقع فى عبادة الحَرْف يلزمنا التعرُّف على ماهيّة الحَرف وحقيقته.

ففى الصّحـاح: «على حَرْف، قالوا: على وجهٍ واحدٍ، وهو أن يعبده على السـراء دون الضـرّاء، والحَرف الناقة الضامرة الصـلبة شبّهت بحَرْفِ الجبل... وكان الأصمعى يقول

1- (1) انظر: المصدر نفسه: ج 10، ص 295 – ص 296.

الحَرْف: الناقة المهزلة»(1) ، وقريب منه ما قاله ابن فارس(2).

وفی لسان العرب: «علی حَرْفٍ أی: علی شکٍّ، فهو علی حرف من دینه غیر متوسّط فیه ولا متمکّن، فلمّا کان وسط الشیء أفضله وأعدله جاز أن یقع صفة، وذلک فی مثل قوله تعالی وتقدّس: وَ کَذلِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً ، أی عدلاً»(3).

وقال الراغب الأصفهانی: « وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یَعْبُدُ اللّهَ عَلی حَرْفٍ : مُفسر ذلک بقوله بعده فَإِنْ أَصابَهُ خَیْرٌ الآیة، وفی معناه: مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذلِکَ ، وانحرف عن کذا وتحرّف واحترف، والإحتراف طلب حرفة للمکسب، والحرفة حالته التی یلزمها فی ذلک نحو القعدة والجلسة، والمحارف المحروم الذی خلا به الخیر، وتحریف الشیء إمالته، کتحریف القلم، وتحریف الکلام أن تجعله علی حرف من الإحتمال یمکن حمله علی الوجهین، قال عزّ وجلّ: یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ - مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ - وَ قَدْ کانَ فَرِیقٌ مِنْهُمْ یَسْمَعُونَ کَلامَ اللّهِ ثُمَّ یُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ.

والحرف ما فیه حرارة ولذع کأنّه محرف عن الحلاوة والحرارة، وطعام حریف.

«نزل القرآن علی سبعة أحرف»(4).

«وقیل: الحَرف، الشرط، أی: ومن الناس مَن یعبد الله علی شرطٍ، والشرط هو قوله: (فَإِنْ أَصابَهُ خَیْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ أی: خیر دنیوی من رخاء وعافیة وخصب وکثرة مال... إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ أی شیء یفتتن به من مکروه یصیبُه فی أهله أو ماله أو نفسه انْقَلَبَ عَلی وَجْهِهِ أی: ارتدّ ورجع إلی الوجه الذی کان علیه من الکفر...»(5).

1- (1) الصحاح: ج 4، ص 1342.

2- (2) انظر: معجم مقاییس اللغة: ج 2، ص 42.

3- (3) لسان العرب: ج 7، ص 428.

4- (4) مفردات غریب القرآن: ص 114.

5- (5) فتح القدیر: ج 3، ص 440.

والخلاصة: المقصود من الحَرف فی الآیة أحد معانٍ ثلاثة:

الأوّل: الوجه الواحد، کأن یعبده تبارک وتعالی فی حالة السَّراء دون الضراء.

الثانی: الشکّ، فهو یعبد الله تبارک وتعالی وهو علی شکّ فی دینه.

الثالث: الشرط، یعبد الله بشرط السرّاء دون الضرّاء مثلاً ویمکن أن یکون هناک وجه آخر فی تفسیر الحَرف، أو وجوه لم أتعرّض لها؛ لرجوعها إلی ما ذکرناه، مثل الضعف فی العبادة، والذی أشار إلیه بعض العلماء(1).

ما هو السبب فی عبادة الحرف؟

لقد تعرّفنا علی معنی الحَرْف والعبادة الحَرفیة المضطربة، أو قل: عبادة المصالح والشکّ والشروط، والآن نرید أن نُعالج المشکلة، ولا ریب أنَّ علاج هکذا مشکلة یستدعی أوّلاً: بیان السبب فیها، فما هو السبب لهکذا عبادة حَرفیة؟

السبب المهم فی هکذا عبادة یعود إلی نفس السبب الذی جاء به للعبادة، فإن کان السبب قویّاً صار خروجه منها صعباً، والعکس بالعکس أیضاً.

قال المازندرانی رحمه الله: «لأنّه کان داخلاً فیه بغیر علم ولا یقین، فلذلک صار خروجه بغیر علمٍ ولا یقین، وقد قال العالم علیه السلام:

مَن دخل فی الإیمان بعلم، ثبت فیه ونفعه إیمانُه، ومَن دخل فیه بغیرِ علمٍ خرج منه کما دخل فیه. وقال علیه السلام: مَن أخذ دینه من کتاب الله وسنة نبیه صلی الله علیه و آله زالت الجبال قبل أن یزول، ومَن أخذ دینه من أفواه الرجال ردّته الرجال. وقال علیه السلام: مَن لم یعرف أمرنا من القرآن لم یتنکّب الفتن»(2).

وقال الرازی: «(علی حَرْف) أی: علی طرفٍ من الدین لا فی وسطه وقلبه، وهذا مَثلٌ؛ لکونهم علی قلقٍ واضطرابٍ فی دینهم لا علی سکون [و] طمأنینة، کالذی یکون علی

1- (1) انظر: تفسیر الثعلبی: ج 7، ص 10. بحار الأنوار: ج 9، ص 127.

2- (2) شرح أصول الکافی: ج 1، ص 52.

طرفٍ من العسكر، فإن أحسَّ بغنيمة قرَّ واطمأنّ، وإلاّ فرَّ وطار على وجهه؛ لأنَّ الثبات فی الدين إنّما يكون لو كان الغرض منه إصابة الحقّ وطاعة الله والخوف من عقابه، فأمّا إذا كان غرضه الخير المعجّل، فإنّه يُظهر الدين عند السرّاء، ويرجع عنه عند الضراء، فلا يكون إلاّ منافقاً مذموماً، وهو مثل قوله تعالى: مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِکَ»1.

إذن السبب فی عبادة الحرف يعود إلى ضعف الإيمان بالله تعالى، وضعف السبب الذی أوصله إلى الله عزّ وجلّ، فإن كان السبب قوياً صار الخروج من ربقة هذا الإيمان صعباً جداً.

فمن هنا تبيّن السبب وبه يتبيّن العلاج، وهو أن يقوّی الإنسانُ عقيدتَه بالله تبارک وتعالى عن طريق أخذه للمعارف الإلهية من منشأها الأصلی وطريقها الصحيح الذی يربط هذا الخلق بالحقّ جلّ وعلا.

فبعض الناس يريدون الدين – وللأسف – كما يشتهون وكما يحلو لهم.

قال السيّدُ ابن طاووس رحمه الله: «فإنّ المستخير على غير ثقةٍ ويقين بالاستخارات، بل إن جاءت كما يريد عمل بها، وإن جاءت بخلاف ما يريد توقّف عنها، ونفر منها، وقدح فی الروايات، ما يُؤمّنهُ أن يَدخُلَ تحت عموم تهديد ووعيد سٌ لطان العالمين فی قوله تعالى: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلى حَرْفٍ»2.

والحاصل: إنّه لا يدخل فی الدين متمكنّاً مستقرّاً(1).

وقال الشيخ الطوسی: «وكلّ ذلک من عدم البصيرة»(2).

فهؤلاء جعلوا عبادتهم كصفقةٍ فی سوق تجارة، فإن أصابه خير فی دنياه اطمأنّ،

1- (3) انظر: حاشية رفيع الدين النائينی على أصول الكافی: ص 37.
2- (4) التبيان: ج 7، ص 296.

وقـال: إنّ دينَنا فيه الخير، فها هو يجلب النفع، ويـدرّ الضـرع، وينمى الزرع، ويكفل الروّاج، وإن أصابته فتنـة وابتلاء لـم يتماسک له، انقلب على وجهه خاسراً الدنيا والآخرة(1).

ثمَّ قالت الآية: فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَ الآخِرَةَ.

ما المقصود من الخير والفتنة فى الآية الشريفة؟

المقصود من الخير فى الآية الشريفة هو ما تقدّمت الإشارة إليه فى سبب نزول الآية المباركة.

فالمروى عن أبى جعفر عليه السلام فيه، قال:

«فإن أصابه خير، يعنى عافية فى نفسه وولده اطمأنّ به، ورضـى به، وإن أصابته فتنة، يعنى بلاء فى جسده أو ماله تطيّر وكره المقام على الإقرار بالنبيّ صلى الله عليه و آله فرجع إلى الوقوف والشكّ، فنصب العداوة لله ولرسوله، والجحود بالنبيِّ وما جاء به»(2).

فـالخير هنـا: الصـحّة فى الجسم والسـعة فى المعيشـة كمـا فسّـره العينى فى العمـدة، وبخلافه الفتنـة، فهى البلاء فى الجسم والضـيق فى العيش(3).

وقال البعض: الفتنة هى العذاب أو المصيبة(4).

وقد تسائل الفخر الرازى قائلاً: «كيف قال: إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ ؟

وأجاب: مثل هذا كثير فى اللغة؛ لأنّ النعمة بلاء وابتلاء لقوله مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّ ، ولكن إنّما يُطلق اسمُ البلاء على ما يشتمل على الطبع، والمنافق

1- (1) انظر: الشفاء الروحى: ص 96.
2- (2) الكافى: ج 2، ص 413 - ص 414، ح 1.
3- (3) انظر: عمدة القارئ: ج 19، ص 69.
4- (4) انظر: معانى القرآن (النحّاس): ج 4، ص 383.

ليس عنده الخير إلاّ الخير الدنيوى، وليس عنده شـرّ إلاّ الشـرّ الدنيوى؛ لأنّه لا دين له، فلذلک وردت الآية على ما يعتقدون، وإن كان الخير كله فتنة، لكن أكثر ما يُستعمل فيما يشتدّ ويثقل»(1).

وقـال ابن زمنين: «هو المنافق، إن رأى فى الإسـلام رخاءً وطُمأنينـة طابت نفسه بما يُصـيب من ذلک الرّخاء وقال: أنا منكم وأنا معكم، وإذا رأى فى الإسلام شدّة، أو بليّةً لم يصبر على مصيبتها، وانقلب على وجهه كافراً وترک ما كان عليه»(2).

الخُسران المبين

ثمَّ إنّ هـذا المتلوّن والمضـطرب فى عبادته إن أصابته الفتنـة انقلب إلى وجهه الحقيقى وهو الكفر، وبهـذا الإنقلاب عبّرت الآيـة بأنّه خسـر الدنيا والآخرة، وهو الخسران المبين.

فانقلب على وجهه وارتدّ، ورجع إلى وجهه الذى كان عليه من الكفر، و الْخُسْرانُ الْمُبِينُ الضلال الظاهر(3).

أمّا خسرانه فى الدنيا؛ لأنّه يخسر فيها العزّة والكرامة، وإصابته الغنيمة، وأهليّة الشهادة، والإمامة والقضاء، ولا يبقى ماله ودمه مصوناً.

وأمّا فى الآخرة فيفوته الثواب الدائم، ويحصل له العقاب الدائم، وذلک ذلِکَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ 4.

وبعبارةٍ مُختصرة: يخسر الجنّة وتحصل له النار(4).

وأمّا أنّه ظاهر واضح «فلأنّه لا خسران أعظم وأظهر منه؛ لأنّ الخسران إمّا بفوات

1- (1) تفسير الرازى: ج 23، ص 13 - ص 14.

2- (2) تفسير ابن زمنين: ج 3، ص 173.

3- (3) انظر: عمدة القارئ: ج 19، ص 69.

4- (5) انظر: تفسير التبيان: ج 7، ص 297.

المرغوبات الدنيوية، أو بفوات المثوبات الأخروية، أو بفواتهما جمعياً، وهذا أظهر وأبين من الأولَينِ»(1).

«فخسر دنياه التى كان يحبّها، فخرج منها، ثمَّ أفضى إلى الآخرة وليس له فيها شىء»(2).

وقد روى فى معنى قوله تعالى: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلى حَرْفٍ ، عن ابنُ مردويه: «بأسانيده عن سويد بن غفلة أنّه قال: كنتُ مع أبى موسى على شاطئ الفرات، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول:

إنّ بنى إسرائيل اختلفوا فلم يزل الاختلاف بينهم، حتّى بعثوا حَكَمين ضالّين، ضلَّ مَن اتّبعهما. فقلت: أعيذُك بالله أن تكون أحدهما، قال: فخلع قميصه، فقال:

برّأنى الله من ذلك، كما برّأنى من قميصى. ولمّا جرى ليلة الهرير صاحوا يا معاوية! هلكت العرب، فقال معاوية: يا عمرو نفرُّ أو نستأمن؟ قال: نرفع المصاحف على الرماح ونقرأ أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فإن قبلوا حُكمَ القرآن رفعنا الحرب ورافعنا بهم إلى أجلٍ، وإن أبى بعضهم إلاّ القتال فَلَلنا شوكتهم، وتقع بينهم الفرقة وآمر بالنداء...»(3).

الكثير من الناس إيمانهم هكذا، مجرّد لقلقة لسان، لا ثبات له فى الجنان أبداً.

ومن العجيب أن يوصف بهذا الوصف سيّد شباب أهل الجَنّة أبو عبد الله الحسين عليه السلام من قِبَلِ أعداء الله، حيث كان يقول عليه السلام:

«أوَ لم يبلغكم ما قال رسول الله لى ولأخى: هذان سيدا شباب أهل الجنّة؟! فإن صدّقتمونى بما أقول وهو الحقّ، والله ما تعمّدت كذباً منذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله، وإن كذبتمونى فإنّ فيكم مَن لو سألتموه

1- (1) شرح أصول الكافى: ج 10، ص 130.

2- (2) تفسير مقاتل: ج 2، ص 378.

3- (3) مناقب آل أبى طالب: ج 2، ص 363 - ص 364.

عن ذلک أخبرکم، سلو جابر بن عبد الله الأنصاری، وأبا سعید الخدری و... و.. أما فی هذا حاجزٌ لکم عن سفک دمی؟!!

فقال له شمر بن ذی الجوشن: هو یعبد الله علی حرفٍ إن کان یدری.

فقال له حبیب بن مظاهر: والله، إنّی لأراک تعبد الله علی سبعین حرفاً، وأنا أشهد أنّک صادق ما تدری ما یقول، قد طبع الله علی قلبک»(1).

نعم، لقد طبع الله علی قلوب هؤلاء بحیث أصبح عندهم قتال ابن بنت رسول الله صلی الله علیه و آله وأصحابه من أعظم القربات

قست القلوبُ فلم تمل لهدایةٍ تبّت لهاتِیکَ القلوب القاسیة

ومن ثَمَّ روّعوا الأطفال وعطّشوهم، بل أماتوهم خوفاً وعطشاً وجوُعاً؛ لذا لما جمعت السیّدة زینب علیها السلام الأطفال والعیال فی مکان واحدٍ افتقدت یتیمتین، فذهبت تفتش عنهما، فوجدتهما فی حفیرة وقد ماتتا من العطش، والحادثة المؤلمة، وهناک حَفَرَتا حفرةً رجاء أن یظهر لهما الماء لیرتویا منه، فماتتا من العطش بعد أن وضعت إحداهما یدها علی رقبة الثانیة، ولفظتا نفسیهما، وقفت الحوراء زینب علیها السلام علی مصرع الطفلتین - ساعد الله قلبها - تأکّدت من وفاتهما نادت: أُخیّة، أم کلثوم، إلیّ إلیّ. فأقبلت مسرعة، فقالت: ما الذی جری؟ قالت: کما ترین، وأشارت إلی الطفلتین، وبعد إخراجهما من الحفیرة حملت السیّدة زینب بین یدیها طفلةً، وأم کلثوم الأُخری. هذا والقوم مشرفون یرون بأمِّ أعینهم ما جری، فأقبلوا إلی ابن سعد، وقالوا: إمّا أن تأذن لنا بسقی الأطفال وإلاّ سقیناهم دون إذنک، فخشی من العاقبة، قال: اسقوهم. فهبّ إلی الفرات منهم أربعون رجلاً ملئوا القرب وأقبلوا بها والماء یتقاطر منهم، فلمّا شاهدَ الأطفال القرب وقد توجّه بها القوم إلیهم هربوا، والقوم من خلفهم، فصاحوا: یا أطفال الحسین، والله ما جئنا لنضربکم ولا

1- (1) الإرشاد: ج 2، ص 97 - ص 98.

لنسلبكم، وإنّما جئنا لننقذ حياتكم، جئنا بالماء فقفوا واشربوا.

قالوا: نحن ما هربنا من الضرب، ولا من السلب، ولا نهرب حتّى من القتل بعد أن قُتل الحسين، ولكن هربنا من الماء!!

قالوا: لماذا؟! كان الماء مُحرّماً فحلّله لكم الآن الأمير، فضجّ الأطفال ببكائهم وكأنّى بهم:

اشلون الماى لينه تحللّونه وگبل ساعة على أبينا اتحرّمونه

گظه وللعلگمى شابح إعيونه وذنّى اثنين ماتن من هالبنات

أقبل القوم إلى زينب، قائلين لها: زينب، اشربى الماء لعلَّ الأطفال يشربون إذا شربتى [كأنّى بها]:

تلتفت إلى أخيها الحسين وهو على رمضاء كربلاء:

من مرّت الناگة على جسمک حبّيت اظل يحسين يمّک

انعاک وبنحرک اشمّک لكن أخاف أحچى وهظمک

يابن أُمّى بس ابهاى أعلمک خذانى ابضرب السوط خصمک(1)

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

1- (1) انظر: ميراث المنبر: ص 95 - ص 100.

المحاضرة العاشرة: عباد الرحمن

اشارة

ص:127

أبا صالحٍ يامُدركَ الثأرِ كم تُرى وغيضُكَ وارٍ غيرَ أنّكَ كاظمُه

وهل يَمْلُكُ الموتورُ صبراً وحولَه يروحُ ويغدو آمنَ السربِ غارمُه

أتنسى أبيَّ الظيمِ فى الطفِّ مُفرداً تَناهَبُهُ سُمرُ الرّدى وصوارمُه

أتنساهُ فوقَ التُربِ منفطرَ الحشا تحومُ عليهِ للوداعِ فواطمُه

وربَّ رضيعٍ أرضعتهُ قسيُّهُمْ من النّبلِ ثدياً درُّهُ الثَّرُّ فاطمُه

فلهفى لهُ مُذْ طوَّقَ السَّهمُ جيدَهُ كما زينتهُ قبلَ ذاكَ تمائمُه

ولهفى لهُ لمّا أحسَ بحرِّهِ وناغاهُ من طيرِ المنيةِ حائمُه

هفا لِعناقِ السبطِ مُبتَسمَ اللُّما وداعاً وهلْ غيرُ العناقِ يلائمُه

ولهفى على أُمِ الرضيعِ وقَدْ دجى عليها الدّجى والدوحُ ناحتْ حمائمُه

بنى أفِقْ من سكرةِ الموتِ وارتضع بثديكَ علَّ القلبَ يهدأُ هائمُ (1)

(تغريد الحزين)

الرباب اتصيح يا زينب عبد الله أريدنه

وليدى وحَن عليه گلبى وأريد الساعة أرضعنه

تگلها بعد مايرضع صاحت بس أشمنه

وأعالج سهم البنحره إن چان أكدر على جرّه

أجره واجذب الحسره ونت ويلى اوطاحت

اوهيّة امغيّره الحاله

1- (1) القصيدة للمرحوم الشيخ محمّد تقى الجواهرى رحمه الله، قال عنه فى مَن لا يحضره الخطيب (ج 1، ص 332): «الشيخ محمّد تقى الجواهرى، فقيهٌ وشاعرٌ، يمتاز بخلق عالٍ وتواضع جمّ، ولد فى النجف الأشرف سنة 1340 ه -، أبوه الشيخ عبد الرسول وإرث علوم آل الجواهرى، عرف بالعلم والتقوى منذ حداثة سنّه».

تلوج اوتوّن يم زينب اونوب اعله الزمان اتلوم

واتگول اشلون عبد الله عن صدرى صبح مفطوم

عليّه شوفته بعدت ما شفته من امس لليوم

اشلون أگدر اعوفنه وامشى او لا اودعنه

رجواى انگطع منه بس كصدى أريد الساع

أشوفه وأنظر الحاله

***

قال تعالى: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (1).

الميزان والضابطة عندنا نحن البشر فى إضافة الصفات الحسنة أو سلبها عن الآخرين، هى الحبّ والبغض لهم، فنصف زيداً بأنَّه من نواة المجتمع، وأنَّه من الأخيار إذا أحببناه، ولم نبغضه، وإلاّ فهو من أرذل خلق الله، هذا هو الشائع المعروف، وهذا لا ينافى أن تكونَ هُناک حالات أُخرى عند البعض لها ضابطها الخاص أُسلوبها المُعيّن.

لو نظرنا إلى المجتمع البشرى ولاسيّما الإسلامى، لوجدنا هُناک شخصيات خرجت من الدُنيا وقد سُلبت صفاتُها ووُضِعت لآخرين، وهناک صفات حسنة وُصِفَ بها اناسٌ إذا رجعنا الى تأريخهم وجدناه أسودَ لا صلةَ له بالخير، لا من قريبٍ ولا من بعيد.

وهناک أُناس تسلّطوا على رقاب الآخرين، وأخذوا الأوصاف الحسنة والأسماء المثيرة ووضعوها لأنفسهم، كما تجد ذلک صريحاً فى أسماء والقاب بنى العبّاس، مثل: المتوكّل على الله، المعتصم بالله، المعتمد على الله، وغيرها الكثير.

ومن طريف القول أنَّ أحداً جاء لجُحا مستاءً أنّه ليس له من هذه الأسماء والألقاب،

1- (1) الفرقان: آية 63.

فأراد من جُحا أن يختار له اسماً مُناسباً من هذهِ الأسماء والألقاب، فقال له جُحا: لايناسبک إلاّ أعوذ بالله.

والواقع أنَّه كذلک، فالكُلُّ أعوذ باللهِ، لكن اتّخذوا لهم ألقاباً وأسماءً تُلفت النظر؛ بُغية التغطية على جرائمهم وأفعالهم.

وهـذا القُرآن يذكر لنا عينَ ما نُريدُ قولَه، ففرعون الذى عرفَتْه البشـرية يصف نبيَّ اللهِ موسـى بأنَّه مُفسدٌ، وصاحبُ بدعةٍ يجب أن يُقتل، فقال تعالى: وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِی أَقْتُلْ مُوسی وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّی أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِی الْأَرْضِ الْفَسادَ (1).

وهذا هو ديدن الطغاة وأُسلوبهم فى كلّ عصر، كيل التُهم للآخرين، والافتراء عليهم؛ حتى يقطعوا صلة الناس بهم ويسقطوهم فى أعينِ مَن يعتبرونهم القدوة لهم.

والعجيب أنَّ طُغيـانَ هؤلاء يصـل أحيانـاً إلى مرتبـةٍ لا يروا فيها سوى أنفسـهم، وأنَّ قوام الكون بهم، ولولاهم لفسـدت الحياة ومَن عليها، ويُنزلون أنفسَهم منزلـةَ اللهِ تبارک وتعالى، بل يُصـرّحون بـذلک أحياناً، كما فعل ذلک فرعون وحكاه لنا القُرآنُ الكريم، حيث يقول: وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِی فَأَوْقِدْ لِی يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسـى وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (2).

كم هو عجيبٌ هذا الإنسان كيف يضع نفسه بدل جبّار السماوات والأرض؟!

والخلاصة: وصف الإنسان للآخر أو لنفسه، على غير القياس أو القاعدة الواقعية التى يصف بها الله تبارک وتعالى الأشياء.

وصف الله تبارک وتعالى:

اشارة

إذا وصف اللهُ تبارک وتعالى أحداً فإنّه يصفه بوصفه اللائق به، سواء كان هذا

1- (1) غافر: آية 26.

2- (2) القصص: آية 38.

الوصف ذمّاً أم مدحاً؛ لأنَّ من صفاته الثابتة له تبارک وتعالی الواقعيّة والصدق، کما فی قصصه التی يقصّها علی الأنبياء والمرسلينَ، وهذا نحو منها.

فهو تبارک وتعالی ليس عنده ما عندنا نحن البشر من المُداهنةِ أو التملّق، بل هو الحقّ تبارک وتعالی، ولعلَّ ما نقوله يثبت بمجرّد التأمّل فی هذه الآيات المُبارکات التی يبيّن فيها هذا المعنی فی أحبِّ الخلق عليه النبیِّ الخاتم مُحمّدٍ صلی الله عليه و آله حيث يقول: (وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (44) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (1).

وکان سبب نزول هذه الآيات الشريفة هو تکذيب البعض لرسول الله عندما أخبرهم بأنَّ عليّاً خليفته من بعده، فاتّهموه أنّه کذب علی الله، وأنّه وصف ابنَ عمّه بغير مايُريد اللهُ تبارک وتعالی.

فقد روی مُعاوية بن عمّار عن الإمام الصّادق عليه السلام فی خبرٍ: «لمّا قال النبیُّ صلی الله عليه و آله: مَن کُنتُ مولاه فعلیٌّ مولاه. قال العدوی: لا ـ والله، ما أمره بهذا، وما هو إلاّ شیء يتقوّله، فأنزل الله تعالی: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ إلی قوله: عَلَی الْكافِرِينَ يعنی مُحمّداً...»(2).

والخلاصة: أوصافُه تبارک وتعالی هی الحقّ، فعندما يصف فرعونَ بهذا الوصف: وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِی الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ 3 ، يعنی: هو کذلک واقعاً، ولم يکن هناک أیُّ شکٍ أو شُبهةٍ.

وکذلک عند ما يصف نبیَّه موسی عليه السلام حيث يقول: وَ اذْكُرْ فِی الْكِتابِ مُوسی إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا4.

1- (1) الحاقة: آية 44 - آية 47.

2- (2) مناقب آل أبی طالب: ج 2، ص 238.

وعندما يصف النبى الخاتم مُحمّداً صلى الله عليه و آله يقول عنه: (وَ إِنَّکَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِیمٍ 1 ، فالأمر كذلك وصفاً وواقعاً.

ومن الأوصاف القُرآنيـة، التى جاءت لتبيّن لنا طائفـةً خاصّة اتّصـفوا بأوصاف تليق بهم، وهى واقعيّة وصادقة كذلك – كما ذكرناه آنفاً – هذه الآيـة الشّـريفة التى تتحـدّث عن عبـاد الرحمان، والـذى يريـد أن يكون من هؤلاء العباد عليه أن يتّصف بهـذه الصـفات التى ذكرتْها الآيةُ الشريفة، والتى هى بمثابة أوسمة على الصدور، وتيجان على الرؤوس.

الصفة الأُولى: عباد الرحمان

تُبيّن هـذه الآيـات – الآيـة محـل البحث ومـا بعـدها – اثنتى عشـرة صـفة من صـفات المؤمنين الخاصّـة، حيث يرتبط بعضـها بالجوانب الإعتقادية، فمنها أخلاقى، ومنها ما هو اجتماعى، بعضٌ منها يتعلّق بالفرد، وبعضٌ آخر بالجماعة، وهى أولاً وآخراً مجموعة من أعلى القيم الإنسانيـة، يقول تعـالى: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً2 ، وأوّل هـذه الصـفات أنّهم (عباد الله) ويالها من مرتبةٍ عظيمة أن يكون الإنسان قد اتّصف بهذه الصفة: عبدُ الله! ونحن نذكرُ كُلَّ يوم: أنّ مُحمّداً صلى الله عليه و آله عبدُهُ ورسولُهُ، وقد أمرنا أن نُقدّم الشهادة بالعبودية على الشهادة بالرسالة، وهذا إن دلَّ فإنّه يدلُّ على عِظمِ هذهِ الصفة المُضافة له تبارک وتعالى.

وقد وصف اللهُ جلّت قُدرتُه أنبياءَه بهذه الصـفة، حيث يقول: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (72) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ (1).

1- (3) الأنبياء: آية 72 – آية 73.

وهـذا هو المعنى الـذى اختاره رسول الله صـلى الله عليه و آله عنـدما خُيِّرَ بينه وبين غيره، ففى الكافى الشّريف عن مُحمّد بن مسـلم قال: «سـمعت أبـا جعفر عليه السـلام يـذكر أنّه أتى رسول الله صـلى الله عليه و آله ملـک، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُخيّرُک أن تكون عبـداً رسولاً متواضـعاً، أو ملكاً رسولاً، قال: فنظر إلى جبرئيل وأومأ بيده أنْ تواضع، فقال: عبداً متواضـعاً، رسولاً، فقال الرسولُ مع أنَّه لا ينقُصُکَ ممّا عند ربِّکَ شيئاً، قال: ومعه مفاتيحُ خزائنِ الأرض»(1).

وكـذا كـان وصف عيسـى بن مريم عليه السـلام عنـدما عرّف نفسَه للمُرجفين بأُمّه الصدّيقـة، حيث يحكى لنا ذلک القرآنُ الكريم: يا أُخْتَ هـارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (2).

وهو الوصف نفسه الـذى فقـأ أميرُ المؤمنينَ بِهِ عينَ البلاغـة، كمـا روى ذلک الشـعبى، حيث قال: «تكلّمَ أميرُ المؤمنينَ عليه السـلام بتسـع كلمـات ارتجلهن ارتجالاً فقـأْنَ عُيونَ البلاغـة وأيتمْنَ جواهرَ الحكمـة، وقطعْنَ جميعَ الأنـامِ عن اللحـاق بواحـدةٍ منهنَّ، ثلاـث منها فى المُناجـاة، وثلاث منها فى الحكمـة، وثلاث منها فى الأدب، فأمّا اللاتى فى المُناجاة، فقال: إلهى كفى لى عزّاً أن أكونَ لک عبـداً وكفى بى فخراً أن تكونَ لى ربّاً أنت كما أُحب فاجعلنى كما تُحبّ»(3).

وهى نفس الصـفة التى أنكرتها جاريةُ بشـر الحافى، كما روى العلاّمةُ الحلّى رحمه الله حيث قال: «وعلى يده (الإمام الكاظم) عليه السلام تاب بشـر الحافى؛ لأنّه عليه السـلام اجتاز على داره ببغداد، فسمع الملاهى وأصوات الغناء والقصب تخرج من تلک الدار، فخرجت جاريةٌ وبيدها

1- (1) الكافى: ج 2، ص 122، ح 5.

2- (2) مريم: آية 28 - آية 31.

3- (3) الخصال: ص 420، ح 14.

قمامة البقل، فرمت بها فی الدرب، فقال لها: یا جاریة، صاحبُ هذه الدار حُرٌ أم عبدٌ؟ فقالت: بل حُرٌ. فقال: صدقتِ، لو کان عبداً خاف من مولاه! فلمّا دخلت قال مولاها - وهو علی مائدة السکر -: ما أبطأک علینا؟ فقالت: حدّثنی رجُلٌ بکذا وکذا، فخرج حافیاً حتی لقیَ مولانا الکاظم علیه السلام، فتاب علی یده»(1).

فالصفة الأُولی - إذن - العبودیة لله وکفی بها من صفةٍ، وکفی العباد فخراً حیث یتّصفون بها.

الصفة الثانیة: التواضع

وثانی هذه الصفات بعد صفة عباد الرحمن تأتی صفة نفی الکبر والغرور والتعالی، الذی یبدو فی جمیع أعمال الإنسان حتی فی طریقة المشی؛ لأنَّ الملکات الأخلاقیة تظهر نفسها فی حنایا أعمال وأقوال وحرکات الإنسان، بحیث یصبح من المُمکن جداً تشخیص بعض أخلاقه بدقة من کیفیة مشیته. نعم، إنّهم متواضعون، والتواضع مفتاح الإیمان، فی حین یعتبر الغرور والکبر مفتاح الکفر، لقد رأینا بأُمّ أعیُنِنا فی الحیاة الیومیة، وقرأنا مراراً فی آیات القُرآن: أنَّ المتکبّرین المغرورین لم یکونوا مستعدّین حتی لیصغوا إلی کلام القادة الإلهیین، وکانوا یتلقّون الحقائق بالسخریة، ولم تتجاوز رؤیتهم أبعد من أطراف أنوفهم، تری أیُمکنُ أن یجتمع الإیمان فی هذه الحال مع الکبر؟!(2).

وبالجملة فاعلم أنَّ التواضع مفتاح کلّ خیرٍ، والتکبّر مفتاح کلّ شرٍ؛ لأنّه یمنع صاحبه من تحصیل الفضائل، وتجنّب الرذائل، ولتفصیل الکلام فی ذلک مقام آخر.

والتواضع أمرٌ إضافی، تتعدّد أقسامُه بحسب ما یُضاف إلیه، کالتواضع لله تعالی ولأنبیائه ولأولیائه، والتواضع للمشایخ، والتواضع للوالدین، وللمعلّم، وللمتعلّم،

1- (1) منهاج الکرامة: ص 59.

2- (2) انظر: تفسیر الأمثل: ج 11، ص 305.

وللمؤمنين، وللشرفاء، وللعلماء، والتواضع فی المسکن، وفی المجلس، والمطعم والمشرب، والملبس، والمنکح، والمشی، والکلام، إلی غیر ذلک من الأقسام، ولکلّ من هذه الأقسام فوائد عظام، یوجب ذکرها الإطناب فی الکلام والخروج عمّا هو المقصود فی هذا المقام(1).

والهون - کما فی المفردات - «الهوان علی وجهین: أحدهما تذلل الإنسان فی نفسه لما لا یلحق به غضاضة فیمدح به، نحو قوله: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْأَرْضِ هَوْناً ، ونحو ما روی عن النبی صلی الله علیه و آله:

المؤمن هیّن لیّن. الثانی: أن یکون من جهة متسلّط مستخفّ به فیذمّ به»(2).

وبعبارةٍ مُختصرةٍ: الذین یمشون علی الأرض متواضعین لله عزَّ وجلَّ، ومتواضعین للناس غیر مستکبرین، والتواضع لله یکمن فی إطاعة أوامره والتذلل فی عبادته، فیرفعه الله عزّ وجلّ، فعن النبیِّ الأکرم صلی الله علیه و آله أنَّه قال:

«مَن تواضع لله رفعه الله»(3).

وعن النبیِّ صلی الله علیه و آله:

«ثلاثة لا یزید الله بهن إلاّ خیراً: التواضع لا یزید الله به إلاّ ارتفاعاً، وذلّ النفس لا یزید الله به إلاّ عزاً، والتعفّف لا یزید الله به إلاّ غناً»(4).

وهذه الصفة هی التی رفع الله بها بعضَ عباده المتّصفین بها، وأذلَّ آخرین بترکها والتلبّس بلباس التکبّر الذی نهی الله عن ارتدائه، ففی الحدیث القُدسی إنَّ الله یقول:

«الکبریاءُ ردائی فمَن نازعنی ردائی قصمتُه»(5).

وهذا الذی حصل لإبلیس (لعنه الله)، حیث طرده الله من الجنّة بالتکبّر والتمرّد علی أوامر الله تبارک وتعالی، قال تعالی مبیّناً قصته: إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَةِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ (71)

1- (1) انظر: مکیال المکارم: ج 1، ص 412.
2- (2) مفردات غریب القرآن: ص 547.
3- (3) الکافی: ج 2، ص 122، ح 3.
4- (4) عدّة الداعی: ص 166.
5- (5) المستدرک علی الصحیحین: ج 1، ص 61.

فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِینَ (72) فَسَجَدَ الْمَلائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلاّ إِبْلِیسَ اسْتَکْبَرَ وَ کانَ مِنَ الْکافِرِینَ (74) قالَ یا إِبْلِیسُ ما مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِیَدَیَّ أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ الْعالِینَ (75) قالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ (76) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّکَ رَجِیمٌ (77) وَ إِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی إِلی یَوْمِ الدِّینِ (78) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (79) قالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ (80) إِلی یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (82) إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ (83) قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ (1).

ویقول الإمامُ أمیرُ المؤمنینَ علیه السلام بعد هذا المضمون القُرآنی:

«اعترضَتْه الحمیّة، فافتخر علی آدم بخلقه، وتعصّب علیه لأصله، فعدو الله إمام المتعصّبین، وسلف المستکبرین، الذی وضع أساس العصبیة، ونازع الله ردائَ الجبریة. وأدرع لباس التعزّز، وخلع قناع التذلل، ألا ترون کیف صغّره الله بتکبّره، ووضعه بترفّعه، فجعله فی الدنیا مدحوراً، وأعدَّ له فی الآخرة سعیراً، ولو أراد الله أن یخلق آدم من نور یخطف الأبصار ضیاؤُه، ویبهر العقول رواؤ(2)، وطیب یأخذ الأنفاس عرفه لفعل، ولو فعل، لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوی فیه علی الملائکة، ولکنَّ الله سبحانه یبتلی خلقه ببعض ما یجهلون أصله تمییزاً بالاختبار لهم ونفیاً للاستکبار عنهم، وإبعاداً للخیلاء منهم، فاعتبروا بما کان من فعل الله بإبلیس إذا أحبط عمله الطویل وجهده الجهید، وکان قد عبد الله ستّة آلاف سنة لا یُدری أمِنْ سنی الدنیا أم سنی الآخرة عن کبر ساعة واحدة، فمَن ذا بعد إبلیس یسلم علی الله بمثل معصیة؟ کلا، ما کان الله سبحانه لیُدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملکاً، إنَّ حکمه فی أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بین الله وبین أحد من خلقه هوادة فی إباحة حمی حرّمه علی العالمین، فاحذروا عباد الله أن یعدیکم بدائه، وأن یستفزَّکم بندائه، وأن

1- (1) ص: آیة 71 - آیة 85.

2- (2) الرواء: - بضم ففتح - حسن المنظر.

يجلب عليكم بخيله ورجله...»(1).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى موسى عليه السلام: أن يا موسى أتدرى لِمَ اصطفيتُک بكلامى دونَ خَلقى؟ قال: يا ربِّ ولِمَ ذاک؟ قال: فأوحى الله تبارک وتعالى إليه: أن يا موسى إنى قلّبتُ عبادى ظهراً لبطنٍ فلم أجد فيهم أحداً أذل لى نفساً منک، يا موسى إنّک إذا صلّيت وضعت خدَّک على التُراب. أو قال: على الأرض»(2).

هذا كلّه فى التواضع لله عزّ وجلّ، وأمّا التواضع للناس وعباد الله فيكفيک ما قصّه لنا القرآن الكريم فى موعظة لقمان لابنه، حيث يقول: وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ و وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنّاسِ وَ لا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (3).

وفى صفة المؤمنين يقول تبارک وتعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ (4).

كما أنَّ الله تبارک وتعالى يأمر خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه و آله بقوله تعالى: وَ اخْفِضْ جَناحَکَ لِلْمُؤْمِنِينَ 5 ، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه و آله أكثر الناس تواضعاً، كما جاء فى وصفه صلى الله عليه و آله: «ويردف خلفه عبده أو غيره، ويركب ما أمكنه من فرس أو بغلة أو حمار، ويركب الحمار بلا سرج وعليه العذار، ويمشى راجلاً وحافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة، ويشيّع الجنائز ويعود المرضى فى أقصى المدينة، يجالس الفقراء ويواكل المساكين ويناولهم بيده، ويكرم أهلَ الفضل فى أخلاقهم، ويتألّف أهل الشرف بالبرّ لهم، يصل

1- (1) نهج البلاغة: ج 2، ص 138 - ص 139، خطبة 192 (القاصعة).

2- (2) الكافى: ج 2، ص 123، ح 7.

3- (3) لقمان: آية 13 وآية 18.

4- (4) المائدة: آية 54.

ذوی رحمه من غیر أن یؤثرهم علی غیرهم إلاّ بما أمر الله، ولا یجفو علی أحد، یقبل معذرة المعتذر إلیه»(1).

علامات المتواضعین:

للمتواضعین علامات یُعرَفون بها قد ذکرها لنا الأئمة علیهم السلام، فعن الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام أنَّه قال:

«ثلاث هُنَّ رأس التواضع، أن یبدأ بالسلام مَن لقیه، ویرضی بالدون من شرف المجلس، ویکره الریاء والسمعة»(2).

وعن الإمام الصَّادق علیه السلام أنَّه قال:

«إنَّ من التواضع أن یرضی الرجل بالمجلس دون المجالس، وأن یُسلّم علی مَن یلقی، وأن یترک المراء وإن کان محقّاً، ولا یُحبّ أن یُحمدَ علی التقوی»(3).

الصفة الثالثة: اللامبالاة المقترنة بالعزّة، ولیست الناشئة من الضعف، هذه هی الصفة الثالثة التی أشارت الیها الآیة المبارکة فی قوله تعالی: وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً.

فالسلام دلیل عدم المقابلة بالمثل حیالَ الجهلة، ولیس السلام هنا بمعنی التحیة التی هی علامة المحبّة والرابطة للصداقة والإخلاص، یقول الله تبارک وتعالی: وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَکُمْ أَعْمالُکُمْ سَلامٌ عَلَیْکُمْ لا نَبْتَغِی الْجاهِلِینَ (4).

هذا هو رد نبیِّ الله إبراهیم الخلیل علیه السلام کما أشار إلیه قوله تعالی: قالَ سَلامٌ عَلَیْکَ سَأَسْتَغْفِرُ لَکَ رَبِّی إِنَّهُ کانَ بِی حَفِیًّا (5).

1- (1) مناقب آل ابی طالب: ج 1، ص 127.

2- (2) کنز العمال: ج 3، ص 701، ح 8506.

3- (3) الخصال: ص 381، ح 9.

4- (4) القصص: آیة 55.

5- (5) مریم: آیة 47.

وذهب العلاّمة الطباطبائی رحمه الله فی بیان ذلک إلی القول: «أی إذا خاطبهم الجاهلون خطاباً ناشئاً عن جهلهم ممّا یکرهون أن یخاطبوا به أو یثقل علیهم، کما یستفاد من تعلُّق الفعل بالوصف، أجابوهم بما هو سالم من القول، وقالوا لهم قولاً سلاماً خالیاً عن اللغو والإثم، قال تعالی: لا یَسْمَعُونَ فِیها لَغْواً وَ لا تَأْثِیماً (25) إِلاّ قِیلاً سَلاماً سَلاماً الواقعة: 26، ویرجع إلی عدم مقابلتهم الجهل بالجهل. وهذه - کما قیل - صفة نهارهم إذا انتشروا فی الناس، وأمّا صفة لیلهم فهی التی تصفها الآیة التالیة قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یَبِیتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِیاماً»1.

ومن طریف الرؤیا ما ذکره فی المناقب حیث قال: «کان إبراهیم بن المهدی شدید الانحراف عن أمیر المؤمنین علیه السلام، فحدّثَ المأمونَ یوماً، قال: رأیتُ علیّاً فی النوم فمشیت معه حتی جئنا قنطرةً، فذهب یتقدّمنی لعبورها، فأمسکته وقلتُ له: إنّما أنتَ رَجُلٌ تدّعی هذا الأمر بأمرةٍ، ونحن أحقّ به منک، فما رأیتُه بلیغاً فی الجواب، قال: وأیُّ شیءٍ قال: لک؟ قال: ما زادنی علی أن قال: سلاماً سلاماً. فقال المأمون: قد والله، أجابک أبلغ جواب، قال: کیف؟ قال: عرفک أنّک جاهلٌ لا تُجاب، قال الله عز وجل: وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً»2.

وللسلام مظاهرٌ وتجلیاتٌ یظهر بها، مثل الصبر والحلم وسعة الصدر، خصوصاً إذا کان الإنسان مُتصدّیاً وقائداً، فعن الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام أنَّه قال: «آلةُ الرئاسةِ سعةُ الصدر»(1) ، وکم هو صعب أن یعفو الإنسان عمّن ظلمه، ویُقابلُه بالإحسان بعد مقابلته له بالإساءة، قال تعالی: وَ لا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَ لاَ السَّیِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ

1- (3) عیون الحکم والمواعظ: ص 18.

وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَ ما يُلَقّاها إِلاّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقّاها إِلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) وَ إِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »(1).

وهذا الخُلُق هو الذى قابل به رسول الله صلى الله عليه و آله أهلَ مكّة عند الفتح، كما رواها لنا التاريخ ورواه أهل الحديث، قال العلاّمة المجلسى رحمه الله: «وسعى أبو سفيان إلى رسول صلى الله عليه و آله، وأخذ غرزه فقبله، وقال: بأبى أنت وأُمّى، أما تسمع ما يقول سعد؟ إنه يقول:

اليوم يوم الملحمة اليوم تُسبى الحُرمة

فقال صلى الله عليه و آله لعلىٍّ عليه السلام

: أدركه فخذ الراية منه، وكن أنت الذى يدخل بها، وأدخلها إدخالاً رفيقاً. فأخذها علىٌّ عليه السلام وأدخلها كما أمر، ولمّا دخل رسول الله صلى الله عليه و آله مكّةَ، دَخلَ صناديدُ قُريشٍ الكعبةَ وهم يظنّون أنَّ السَّيفَ لا يُرفع عنهم، فأتى رسولُ الله صلى الله عليه و آله ووقف قائماً على بابِ الكعبةِ، فقال:

لا إله إلاّ الله وحده، أنجزَ وعدَه، ونصرَ عبدَه، وهزمَ الأحزابَ وحدَه، ألا إنَّ كلَّ مالٍ ومأثرةٍ ودمٍ يُدعى تحتَ قدميَّ هاتين إلاّ سدانة الكعبة، وسقاية الحاجّ، فإنّهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إنَّ مكَّةَ مُحرّمةٌ بتحريم الله، لم تحلّ لأحدٍ كان قبلى، ولم تحلّ لى إلاّ ساعة من نهار، وهى مُحرّمةٌ إلى أن تقوم الساعة، لا يختلى خلاها، ولا يقطع شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تحلُّ لقطتها إلاّ لمنشد. ثمّ قال: ألا لبئس جيران النبىِّ كُنتم، لقد كذّبتم وطردتم وأخرجتم وآذيتم، ثمّ ما رضيتم حتى جئتمونى فى بلادى تقاتلونى، اذهبوا فأنتم الطلقاء»(2).

فكأنَّ هذه العبارة صارت علماً لهؤلاءِ من ذلک اليوم، ويُقال لأبى سفيان ومعاوية وغيرهم من قريش: الطُلقاء، يعنى طلقاء رسول الله صلى الله عليه و آله، وإلى هذا أشارت الحوراء زينب عليهما السلام فى خطبتها فى مجلس يزيد بقولها عليهما السلام: أمِنَ العدل يا بن الطلقاء - يعنى يا يزيد -

---

1- (1) فصلت: آية 34 - آية 36.

2- (2) بحار الأنوار: ج 1، ص 106.

أتعرف مَن أنت ومَن أبوک وجدک؟ أوَ تدری ما صنع جدّی مع جدّک وأبیک فی یوم فتح مکة حین مکّنه الله من رقابهم وسلّطه علیهم وأخذهم أُسراء؟ فکلّ ما أراد أن یفعل بهم کان له أن یفعل، ومع ذلک عفی عنهم وأطلقهم، وقال اذهبوا فأنتم الطلقاء، یا یزید، فهذا جزاؤه! بأن قتلتَ حُسیناً وقتلتَ أصحابَه وأهلَ بیتِه وسبیتَ نساءَه وعیالَه وأطفالَه من بلدٍ إلی بلدٍ!(1) وهونفس الإستغراب والتعجّب الذی نقله لنا ابنُ خلِکان فی وفیات الأعیان، حیث یقول: «وقال الشَّیخ نصر الله بن مجلی مشارف الصناعة بالمخزن وکان من ثقات أهل السنّة: رأیتُ فی المنام علیَّ بن أبی طالب رضی الله عنه، فقلتُ له: یا أمیرَ المؤمنین تفتحون مکّة فتقولون من دخل دار أبی سفیان فهو آمن، ثمّ یتمُّ علی ولدِک الحُسین یوم الطَّف ما تمَّ! فقال: أما سمعتَ أبیاتَ ابنِ الصیفی فی هذا؟ فقلت: لا. فقال: اسمعها منه. ثمّ استیقظتُ فبادرتُ إلی دار حیص بیص، فخرج إلیَّ فذکرتُ له الرؤیا فَشهِقَ وأجهش بالبُکاء وحلف بالله إنْ کانت خرجتْ من فمی أو خطی إلی أحدٍ، وإنْ کُنتُ نظمتُها إلاّ فی لیلتی هذه، ثمّ أنشدنی:

ملکنا فکان العفوُ منا سجیةً فلمّا ملکتُم سالَ بالدمِ أبطحُ

وحللتُمُ قَتلَ الأُسارى وطالما غدونا علی الأسری نعفُ ونصفحُ

فحسبکُمُ هذا التفاوتُ بیننا وکلُّ إناءٍ بالذی فیهِ ینضحُ»(2)

نعم، ماترک الطُلقاء شیئاً إلاّ وفعلوه، حتی الطفل الرضیع، جاءت الحوراء زینب علیهما السلام لأخیها الحُسینِ علیه السلام وهی تحمل بیدها ولدَه الرضیعَ، فقالت له: «یا أخی، إنَّ ولدَک عبدَ الله ما ذاق الماء منذ ثلاثة أیام، فاطلب له من القوم شربة تسقیه. فأخذه ومضی به إلی القوم، وقال: یا قوم، لقد قتلتم أصحابی وبنی عمّی وإخوتی وولدی، وقد بقی هذا

1- (1) شجرة طوبی: ج 2، ص 303.

2- (2) وفیات الأعیان: ج 2، ص 365.

الطفل، وهو ابنُ ستةِ أشهُر، يشتكى من الظمأ، فاسقوه شربةً من الماء.

فبينا هو يخاطبهم إذ أتاه سهم فوقع فى نحر الطفل فقتله... يقول الحسين عليه السلام: اللهم إنّک شاهدٌ على هؤلاء القوم الملاعين، إنَّهم قد عمدوا أن لا يبقوا من ذرية رسولک صلى الله عليه و آله. وهو يبكى بُكاءً شديداً»(1)

وكأنّى بأُمّهِ الرباب تواسى أباه الحُسين عليه السلام ببكائها:

مياتم للحزن ننصب ونبنى رمانى حرمله ابسهمه ونبنى

الطفل عاده يفطمونه ونبنى انفطم ياناس بسهام المنيه

ورضيعه بدم الورى - - د مخضب فاطلب رضيعه

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين

1- (1) ينابيع المودة: ج 3، ص 79.

المحاضرة الحادية عشرة: الإيثار

اشارة

ص:145

حامی الظعینة أینَ منهُ ربیعةٌ أم أینَ من علیا أبیهِ مکدّمُ

ما راعهم إلاّ تقحّمُ ضیغمٍ غضبان یعجمُ لفظَه ویُدمدمُ

صبغَ الخیولَ برمحهِ حتّی غدتْ سیّان أشقرُ لونِها والأدهَمُ

عَرفَ المواعظَ لا تفیدُ بمعشرٍ صمّوا عن النبأ العظیمِ کما عمُوا

فانصاع یحطِبُ بالجماجمِ والکُلا فالسیفُ ینثرُ والمثقّفُ ینظمُ

وهوی بجنبِ العلقمیِّ فلیته للشاربینَ به یُذافُ العلقمُ

ومَشی لمصرعِهِ الحسینُ وطرفُه بین الخیامِ وبینه متقسِّمُ

ألفاه محجوبَ الجمالِ کأنّه بدرٌ بمنحطِمِ الوشیج مُلثّمُ

فأکبَّ مُنحنیاً علیه ودمعُه صبغَ البسیطَ کأنّما هو عَندَمُ

قد رامَ یلثمُه فلم یرَ موضِعاً لم یُدمِه عضُّ السلاح فیُلثمُ

نادی وقد ملأ البوادیَ صیحةً صُمّ الصخورِ لهولها تتألمُ

أأُخیَ من یحمی بناتِ محمّدٍ إن صِرنَ یسترحمنَ مَن لا یرحم

هونّت یا بن أبی مصارعَ فتیتی والجُرحُ یسکنُه الذی هوآلمُ

هذا حسامُک من یذبُّ به العدی ولِواکَ هذا من بهِ یتقدّمُ (1)

1- (1) القصیدة للسید جعفر الحلی رحمه الله، انظر ریاض المدح والرثاء: ص 243، قال عنه السیّد جواد شبّر رحمه الله فی أدب الطف: (ج 8، ص 99 - ص 110): «السید جعفر کمال الدین الحلی النجفی. عُرفت هذه الأسرة بالانتماء الی الجدّ السادس لصاحب هذه الترجمة، وهو السید کمال الدین بن منصور، فهو جدّ الأسرة الکمالیة المنتشرة فی الحلة وضواحیها والنجف والکوفة، وقد کتب عنها مفصّلاً الخطیب الیعقوبی فی) البابلیات)، کما أقام الشواهد علی شاعریته وسرعة البدیهة عنده، ودیوانه أصدق شاهد علی سموّ شعوره، وکان من حقه أن یطلق اسم (سحر بابل وسجع البلابل) علی دیوانه قبل أن یجمع، والذی جمعه أخوه السید هاشم بعد وفاة الشاعر. توفی فجأة فی شعبان لسبع بقین من سنة 1315 ه -، ودفن فی وادی السلام بالنجف الأشرف عند قبر والده علی مقربة من مقام الإمام المهدی... نشأ السید جعفر فاستطرف قدر حاجته من مبادئ النحو والصرف والمنطق والمعانی والبیان، وصار

ناده احسین یعباس هذا لواک ظل یندب ومهرک بالحرب ینعاک

إنکسر ظهری ولا أگدر لفرگاک

ص:148

وافراگک یبو فاضل علی یصعب یعباس حسّ احسین یمّک

یبچی وخلط دمعه بفیض دمّک وحایر یبو فاضل ابلمک

وسکنه تسلی الطفل باسمک تگله ساعه ویجیب المای عمّک

یخویه أیست سکنه من المای تجی یمی ذلیله وتوگف احذای

یخویه من العطش رادت تجی اویای تگلک وین وعدک یلمشکر

ص:149

قال تعالى: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّهِ وَ اللّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (1).

الإيثار:

هو أرفع درجات الجود والسخاء، وهو أنْ يجود الإنسان بما لديه من مالٍ، أو نفسٍ، أو غيرهما ممّا هو نفيس؛ ليُقدّم غيرَه عليه.

روى الثعلبى – وهو من مفسّرى العامّة المعروفين – فى تفسيره: أنّ النبى صلى الله عليه و آله لمّا أراد الهجرة إلى المدينة خلّف علىَّ بنَ أبى طالب بمكـة؛ لقضاء ديونه وأداء الودائع التى كانت عنده، وأمره ليلة خروجه من الدار وقد أحاط المشـركون بها بأن ينام على فراشه، وقال له: اتَّشح ببردى الحضـرمى الأخضـر، ونم على فراشى، وإنّه لا يصل منهم إليک مكروهٌ إن شاء الله تعالى. ففعل ذلک علىّ فأوحى الله تعالى إلى جبرائيـل وميكائيـل: إنّى آخيتُ بينكمـا، وجعلت عُمرَ أحـدِكما أطول من الآـخر، فأيكُّمـا يؤثرُ صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب، آخيت بينه وبين محمّد، فبات على فراشه يُفدّيه بنفسه ويؤثره بالحياة؟! انزلا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه.

فنزلا فكان جبرائيل عنـد رأسه وميكائيل عنـد رجليه، وجبرائيل يُنادى: بـخ بـخ، مَن مثلک يا على، يباهى الله تبارک وتعالى بک الملائكـة، فأنزل الله على رسوله وهو متوجه إلى المدينة فى شأن على (هذه) الآية(2).

ولهذا سُمّيت هذه الليلة التاريخية بليلة المبيت.

ويقول أبو جعفر الإسكافى: إنَّ حديث الفراش قد ثبت بالتواتر، فلا يجحده إلاّ

1- (1) البقرة: آية 207.

2- (2) انظر: تفسير الثعلبى: ج 2، ص 126.

مجنونٌ وغيرُ مخالطٍ لأهلِ الملة(1).

هذا نوع من أنواع الإيثار، والذى يُعتبر من أهمّ أنواع الإيثار؛ لأنّه إيثار بأعزّ شىء وهو النفس، وكان مصداقه فى الآية الشريفة أمير المؤمنين عليه السلام.

والجود بالنفس أقصى غاية الجود(2)

وهناك نوع آخر من الإيثار، وهو نوعٌ مهم لا تقلّ أهميّته عن سابقه، وهو ما أكّد عليه النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وعمل به الأنصار مع المهاجرين،، حتّى نزلت فيهم آية، بل آيات.

قال عزّ من قائل: وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ (3).

يقول ابن عباس: «إنَّ الرسول صلى الله عليه و آله بيّن للأنصار - يوم الانتصار على يهود بنى النضير - إذا كنتم ترومون المشاركة فى حصّة المهاجرين من الغنائم فشاطروهم بتقسيم أموالكم وبيوتكم، وإذا أردتم أن تبقى بيوتكم وأموالكم لكم فلا شىء لكم من هذه الغنائم.

فقال الأنصار: علامَ نتقاسم بيوتنا وأموالنا معهم؟ نقدّم المهاجرين علينا ولا نطمع بشىء من الغنائم. فنزلت هذه الآية تعظّمُ هذه الروح العالية»(4).

نعود للآية، فهى بالرغم من أنّها تتعلّق - كما ذكرنا آنفاً - بحادثة هجرة النبىّ صلى الله عليه و آله وتضحية الإمام على عليه السلام ومبيته على فراشه صلى الله عليه و آله، ولكنَّ مفهومها ومحتواها الكلّى عامّ وشامل، وفى الحقيقة إنّها تقع فى النقطة المقابلة للآيات السابقة عليها(5) ، التى تتحدَّث عن

1- (1) انظر: تفسير الأمثل: ج 2، ص 72 - ص 73.

2- (2) انظر: تفسير مجمع البيان: ج 2، ص 35.

3- (3) الحشر: آية 9.

4- (4) تفسير الأمثل: ج 18، ص 194.

5- (5) وهى قوله تعالى: (وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ * وَ إِذا تَوَلّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ * وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ). البقرة: آية 204 - آية 206.

المنافقين الـذين يحاولون أن يحقّقوا لأنفسـهم فى المجتمع عزّةً وكرامةً عن طريق النفاق، ويتظاهرون بالإيمان بأقوالهم، بينما أعمالهم ليس فيها سوى الإفساد فى الأرض، وإهلاك الحرث والنسل.

أمّا الطائفـة الثانيـة الـذين يشـرون أنفسـهم، فتعاملهم مع الله وحـده، حيث يُقدّمون أرواحَهم رخيصةً فى سبيله ولا يبغون سوى رضاه، ولا يطلبون عزّةً ولا رفعةً إلاّ بالله، وتضـحيات هؤلاء تصـلح أمر الدين والدنيا، ويسـتقيم بها شأن الحقّ والحقيقة، وتصـفو ببركتها حياة الإنسان وتثمر شجرة الإسلام.

وممّـا يُلفت النظر: أنَّ البـائع هوالإنسـان والمشترى هو الله تعالى، والبضاعـة هى النفس، وثمنها رضوان الله تعالى، فى حين نرى فى مواردَ أُخرى أنَّ ثمن مثل هـذه المعاملات هوالجنّة الخالدة والنجاة من النار، من قبيل قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَـهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ (1).

هذه الآية وحين الإلتفات إلى سـبب النزول المذكور آنفاً نجدها تقدّمُ أعظمَ الفضائل للإمام أمير المؤمنين عليه السـلام، وإن كانت فضائله قد جاوزت الحصر والعدّ، ولكنّ هذه الفضيلة كانت فى صدر الإسلام من الوضوح بمكان، دعت معاوية العدو اللدود للإمام أمير المؤمنين عليه السـلام أن يُرشى (سمرة بن جُندب) بأربعمائة ألف درهم؛ كى يروى حديثاً مختلَقاً يثبت فيه فضيلة هذه الآية لعبد الرحمن بن ملجم، وقد اختلق هذا المنافق الجانى هذه الفِرية(2) ، ولكنّ أحداً لم يقبل منه حديثه المجعول.

وهناک نوع ثالث من الإيثار، وهو الإيثار بالطعام والشراب، وهو كسابقيه؛ الإيثار بالنفس والإيثار بالأموال ونحوه، وكان من أبرز مصاديق هذا الإيثار، بل المعلّم له هو

1- (1) التوبة: آية 111.

2- (2) انظر: شرح نهج البلاغة: ج 4، ص 73.

النبیّ الأعظم صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام.

ولـذا روی الثعلـبی، وغیرُه من المفسِّرین: «إنَّ الحسن والحسـین علیهـا السـلام مرضـا فعادهمـا جـدّهما رسول الله صـلی الله علیه و آله، وعادهما عامّـة العرب، فقالوا: یا أبا الحسن، لونـذرت لولـدیک نذراً، فقال علیه السـلام: إنّ برئ ولدای ممّا بهما صـمت ثلاثة أیام شـکراً لله تعالی. وقالت فاطمة: مثل ذلک، وقالت جاریتها فضة: إن برئ سـیِّدای ممّا بهما صـمت ثلاثة أیام شکراً لله تعالی عزّ وجلّ. فألبسا العافیة، ولیس عند آل محمّد صلی الله علیه و آله لا قلیل ولا کثیر، فآجر علی علیه السلام نفسه لیلة إلی الصبح یسقی نخلاً بشیء من شعیر وأتی به إلی المنزل، فقسّـمته فاطمه علیها السـلام إلی ثلاثة، فطحنت ثلثاً، وخبزت منه خمسة أقراص، لکلّ واحد منهم قرص، وصلّی أمیرُ المؤمنین علیه السـلام صـلاة المغرب مع رسول الله، ثُمَّ أتی المنزل فوضع الطعام بین یدیه، فجاء مسـکین فوقف بالباب، وقال: السلام علیکم یا أهل بیت محمّد، مسکین من مساکین المسلمین، أطعمونی أطعمکم اللهُ من موائد الجنّة، فسمعه علی علیه السلام فقال: أطعموه حصّتی. قالت فاطمـة علیهـا السـلام: کـذلک، والبـاقون کـذلک فأطعموه الطعام، ومکثوا یومهم ولیلتهم لم یـذوقوا إلاّ الماء القراح. فلمّا کان الیوم الثانی طحنت فاطمة علیها السـلام ثلثاً آخر وخبزته، وأتی أمیر المؤمنین علیه السـلام من صلاة المغرب مع رسول الله صلی الله علیه و آله فوضع الطعام بین یدیه، قال: فجاء یتیم من أیتام المهاجرین، وقال: استشهد والدی یوم العقبة، أطعمونی أطعمکم الله من موائد الجّنة، فسمعه علیٌّ وفاطمة علیهما السـلام والباقون، فأطعموه ومکثوا یومین ولیلتین لم یذوقوا إلاّ الماء القراح. فلمّا کان الیوم الثالث قامت فاطمة علیها السلام إلی الثلث الباقی وطحنته وخبزته، وصلّی علی علیه السلام مع النبیّ صلاة المغرب، ثُمَّ أتی المنزل فوضع الطعام بین یدیه، فجاء أسیر فوقف بالباب، وقال: السـلام علیکم یا أهل بیت محمّد، تأسـروننا ولا تطعموننا أطمعکم الله من موائد الجنّة، فإنّی أسـیر محمد صـلی الله علیه و آله، فسـمعه علی علیه السـلام فآثره وآثروه معه، فمکثوا ثلاثـة أیام بلیالیها لم یـذوقوا إلا الماء القراح، فلمّا کان الیوم الرابع، وقد وفوا بنذرهم أخذ علی علیه السلام

الحسن بيده اليمنى والحسين بيده اليسرى وأقبل نحو رسول الله صلى الله عليه و آله، وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع، فلمّا بصر بهم النبى صلى الله عليه و آله قال:

يا أبا الحسن، ما أشدّ ما يسوؤنى ما أرى بكم، انطلق بنا إلى ابنتى فاطمة. فانطلقوا إليها وهى فى محرابها تصلى وقد لصق بطنها بظهرها من شدّة الجوع، فلمّا رآها النبى صلى الله عليه و آله قال:

وا غوثاه، أهل بيت محمّد يموتون جوعاً! فهبط جبرائيل عليه السلام وقال: خذ يا محمّد، هنّأك الله فى أهل بيتك. قال: وما آخذ يا جبرائيل؟ قال: هل أتى على الإنسان، إلى آخر السورة»(1).

وقد جُمِعَ الإيثار بأنواعه المتقدّمة بالنفس وبالمال والطعام والشراب، أقول: جمع كُلّ ذلک ابنُ أمير المؤمنين عليه السلام، أبوالفضل العباس عليه السلام الذى كان يلازم الحسين مثل الخادم الملازم لسيده، ويتمنّى أن يقوم بخدمة للحسين عليه السلام، يقول الشيخ الكاشى رحمه الله: كان أبو الفضل عليه السلام جالساً فى مجلس فيه أمير المؤمنين عليه السلام فعطش الحسين عليه السلام، فطلب من قنبر أن يأتيه بالماء، فقام العباس عليه السلام مسرعاً - وكان صبياً آنذاک - إلى أُمّه أمِّ البنين عليه السلام منادياً: أمّاه! إنّ أخى الحسين عطشان، وقد طلب الماء من قنبر، وأحبّ أن أوصل إليه الماء قبل قنبر، قامت أُمّ البنين ملأت ركوةً ووضعتها على رأس العباس، جاء العباس والإناء على رأسه والماء يراق على كتفيه.

لما رآه أمير المؤمنين عليه السلام صاح:

«إيهٍ يا عبّاس، هذا يوم تحمل الماء إلى أخيک فيراق الماء على كتفيک، ويوم آخر تحمل الماء إلى أخيک فيراق مخّ رأسک على كتفيک»(2).

نعم تناثر مخّ رأسه على كتفيه على أثر ذلک العمود؛ لأنّ العبّاس وقف متحيّراً لا يدرى ما يصنع، يده اليمنى مقطوعة، ويده اليسرى مقطوعة، الماء أُريق على وجه الأرض، لحظات حرجة مرّت على العبّاس، لا يدرى ما يفعل يستمرّ فى سيره نحو الخيام؟ حينها

1- (1) انظر: تفسير الثعالبى: ج 10، ص 99 - ص 101. كشف الغُمّة: ج 1، ص 307 - ص 310.

2- (2) الطريق إلى منبر الحسين عليه السلام: ص 189 - ص 190.

كيف يواجه سُكينة وهى واقفة بانتظاره؟ وقد وعدها بالماء، والماء قد أُريق، يُقاتل كيف يقاتل وقد قطعت يداه؟

بينما هو فى تلك الحال، جاء لعين من القوم، قال له: يا عباس أين شجاعتک؟ أين بسالتک؟ فقال له العباس عليه السلام: يا هذا جئتنى إلآن ويـداى مقطوعتان، فقال له اللعين: يا عباس، إن كانت يـداک مقطوعتين فيداى سالمتان، آجركم الله! فضـربه بعمود من حديد على أُمِّ رأسـهِ ففلق هامته، ووقع من على ظهر فرسه منادياً: أ خى يا أبا عبدالله، ادركنى(1).

أيّس وگف عاف العمر من ساسه راید مماته ولا غدر نوماسه

ضربوا ابعامود الضغاين راسه طاح ونخه سيد شباب الجنة

حين الوصل لحسين صوت إعميده جاه وگف عنده ونده لعضيده

شيفيدنى ومِنک گطعت الظنّه عباس عگبک للعُمر ما ريده

سمع حسه الحسين وركب وارزم وعدى إعله الخيل وطلعها إمن المخيم

ردّ يمّه وشافه سابح إبدم تخوصر فوگ راسه والدمع خر

لمّا صُرِع العبّاس صار الحسـين عليه السـلام بين أمرين، أولاً: نـداء العباس (أخى يا أبا عبـد الله، ادركنى)، ثانياً: الجيش زحف على مخيم الحسين؛ لأنّه بمجرّد أن سقط العباس زحف جيش العدو إلى مخيم الحسين، كأنّهم استضعفوا جانب الحسين بمصرع أبى الفضل العبّاس فلا يدرى أيدفع الجيش عن المخيم، أم يلبّى نداء العباس؟!

أخيراً رأى دفع العـدو عن الخيام أولى، فحمل على الجيش وأبعدهم وهو يقول: إلى أين تفرون وقد قتلتم أخى؟ ولمّا أبعد الجيش عن الخيام توجّه نحو مصرع أبى الفضل العبّاس، وأراد الحسين حمله ولكنَّ العبّاس أبى، وهذا الإيثار الثانى، فالأوّل: كان فى

1- (1) المصدر السابق.

شرب الماء قبل الحسين عندما ملک المشرعة، والثالث: أنّه كلمّا أراد الحسين عليه السلام وضع رأس أبی الفضل عليه السلام فی حجره لم يرضَ أبو الفضل، قال له الحسين: أخی يا أبا الفضل، مالی كلّما جعلت رأسک فی حجری أخذته ومرّغته فی الأرض؟! قال أبو الفضل عليه السلام: أخی، إن جعلت رأسی فی حجرک فمَن الذی يجعل رأسک فی حجره. لا حظوا الإيثار، الله أكبر!!

صاح احسين يا خويه يا عباس يا نور العين يا تاجی عله الراس

خويه أنت الدرع والسيف والطاس اشلون اتروح وأنا أبگی امحيّر

جواب أبی الفضل العباس عليه السلام بلسان الحال:

يگله احسين يا زهرة اخيامی يا خويه نحّلت سكنه عظامی

درخصنی أريد الحگ عمامی أريد الثار گلبی دم إيفوّر

وكأنّی بأخته العقيلة عليها السلام تناديه:

يعبّاس يا نور العيون رحت عنک سبّية ويه الظعون

واللی سبونه ما يرحمون طول الدرب بينه يضربون

وسياطهم تلعب علی متون خواتک يبو الغيرة يمزيون

***

او تشتكی العطشَ الفواطمُ عنده وبصدرِ صعدتِهِ الفُراتُ المفعمُ

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلیّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أیَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

المحاضرة الثانية عشرة: الرحمة

اشارة

ص:157

طمعتْ أن تسومَه القومُ ضيمًا وأبى اللهُ والحِسامُ الصنيعُ

كيف يلوى على الدنيةِ جيدًا لسوى اللهِ مالواه الخضوعُ

فأبى أن يعيشَ الا عزيزًا أو تجلّى الكفاحُ وهوصريعُ

زوّج السيفَ بالنفوسِ ولكن مهرُها الموتُ والخضابُ النجيعُ

بأبى كالئاً على الطف خِدرًا هو فى شفرة الحُسام منيعُ

قطعوا بعده عُراه ويا حبل وريد الإسلام أنت القطيعُ

قوّضى يا خيامَ عليا نِزارِ فلقد قوّض العمادُ الرفيعُ

واملئى العين يا أُميةُ نوماً فحسينٌ على الصّعيد صريعُ

وسروا فى كرائم الوحى أسرى وعِداك ابن أُمّها التقريعُ

فترفّقْ بها فما هى إلا ناضرٌ دامعٌ وقلبٌ مَروعُ (1)

***

عگب الخدر ذاک ودلالی أمشی بیسر یحسین تالی

وراسک یشیلونه اگبالی یا محنتی ومحنة أطفالی

***

مشینه علی الهزل ومچتفینه اوخذونه بها الیسر غصبن علینه

اویَاکم نضل لو یحصل بدینه لمن یحسین یلفینه المحتّم

1- (1) الأبيات من قصيدة للسيد حيدر الحلى رحمه الله، كما فى ديوانه: ج 1، ص 36، وقد تقدّمت ترجمته فى المحاضرة التاسعة.

(أبوذية)

يخويه تعلم بحالى وداری بگيت أرعی يتاماكم وداری

سمية دورها تزهی وداری عگبكُم يخوتی ظلت خليه

***

عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«أربع مَن كُنَّ فيه بنى اللهُ له بيتاً فی الجنّة: مَن آوى اليتيمَ، ورَحِمَ الضّعيف، وأشفقَ على والديه، ورَفِقَ بمملُوكِه»(1).

الرَّحمة:

هی مبعث الخيرات، ومعدن الفضائل؛ فبالرحمة تتجمعُ الصِلات، وتتوحّد البشرية، بها يبرُّ الولدُ أباه، وبها يصلُ المرءُ قريبَه، وبها يألفُ الزوجان أحدهما الآخر، وبها يُكفل اليتيم، ويُشبع الجائع، ويُكسى العُريان، ويهتمّ حتّى بالحيوان.

والرحمة شعورٌ طيّب، به يُشارک الإنسان الآخرين آلامهم، مُحاولاً أن يُخفِّفَ عنهم وطأتها، وينسيهم أثقالها.

رحمة الله عزّ وجلَّ لمخلوقاته:

فعن الإمام الكاظم عليه السلام قال:

«... ماظنّک بالرؤوف الرحيم الذی يتودّد إلى مَن يؤذيه بأوليائه، فكيف بمَن يؤذَى فيه، وما ظنّک بالتوّاب الرحيم الذی يتوب على مَن يعاديه، فكيف بمَن يترضّاه ويختار عداوة الخلق فيه»(2).

ولذا روى أنَّ إبليس يطمع فی رحمة الله عزّ وجلَّ يوم القيامة.

فقد حُكی أنّ نبیَّ الله موسى (على نبينا وآله وعليه السلام) التقى بإبليس (لعنه الله)

1- (1) الخصال: ص 223، باب الأربعة.

2- (2) تحف العقول: ص 399.

فدار بينهما حديث، ثمَّ قال نبيّ الله موسى عليه السلام: سترى ماذا سيحلّ بک غداً؟!

قال إبليس: وأنت أيضاً سترى ماذا سأفعل غداً؟!

قال موسى: وما أنت فاعل؟

قال إبليس: أُطالبُ اللهَ بوعده، واحتجُّ بقوله: وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْ ءٍ1) وأنا شیءٌ، فوجب أن تتسع لی رحمته، وإذا کنتُ أنا لا شیء فاللاشیء لا یُحاسب ولا یُعاقب.

قال موسى عليه السلام:

«إنّ رحمةَ اللهِ تتسّعُ لِمن فيهِ الأهلية والقابلية لها، وأنت بعيد عنها كلّ البعد»(1).

ولذا نرى أنَّ رحمة الله وإن كانت واسعة يطمع فيها حتّى إبليس، لكن الذى ليس أهلاً لها وليس فيه القابلية على استلامها فلا تشمله، فهى قريبةٌ من مستحقّيها، ولذا قال تبارک وتعالى: إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ 3.

موجبات الرَّحمة ؟

هناک عدّة أُمور تسبب الرحمة الإلهية، بحيث إنَّ الإنسان لوفعلها صار محلاً لرحمة الله تبارک وتعالى، أو قل: موجبات لنزول الرَّحمة، ومنها:

1 – الطاعة: فعن النبى صلى الله عليه و آله أنَّه قال:

«تعرّضوا لرحمة الله بما أمركم من طاعته»(2).

2 – الذكر: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال

: «بذكر الله تُستنزل الرحمة»(3).

3 – إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة للرسول صلى الله عليه و آله، قال تعالى: وَ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ

1– (2) آيات منتخبة من القرآن الكريم: آية 11.

2– (4) تنبيه الخواطر: ج 2، ص 120.

3– (5) عيون الحكم والمواعظ: ص 188.

وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (1).

4 – رحمة خلق الله ورحمة النفس: فعن النبيّ صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«الراحمون يرحمهم الرحمن يوم القيامة، إرحم مَن فى الأرض يرحمُک مَن فى السماء»(2).

5 – معرفة الإنسان نفسه: فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«رَحِمَ الله امرءاً عرف قدره ولم يتعدَّ طوره»(3).

موانع الرَّحمة ؟

اشارة

1 – رحمة مَن لا يرحم: فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«رحمة مَن لا يرحم تمنع الرحمة»(4).

2 – منع الرحمة: فعنه عليه السلام أنّه قال:

«مَن لم يرحم الناس منعه الله رحمته»(5).

الأمر الأول: رحمة الأيتام

رُوى أنّه كان النبيّ صلى الله عليه و آله يتكفّلُ يتيماً، وكان كُلّما يجلس على طعامه يحضره ويأكل معه، فلمّا مضى زمان مات اليتيم فلم يأكل النبيّ فى الليلة طعاماً، وكان يتأسّف على فوته، فقال له أصحابُه: كم تُحزن قلبَک بفوته وحرمانک منه؟! نحن سنأتيک بيتيمٍ آخر فتكفله، قال صلى الله عليه و آله:

«هذا اليتيم كان سيِّ ء الخُلق، وأنا كنتُ تحمّلتُ سُوءَ أَخلاقه، فلا يحصل لى من غيره ما يحصل من الفيض»(6).

وهكذا تكون مسألة اليتيم من المسائل التى اهتمَّ بها النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله لأجل إهتمام

1– (1) النور: آية 56

2– (2) بحار الأنوار: ج 74، ص 167.

3– (3) عيون الحكم والمواعظ: ص 261.

4– (4) المصدر نفسه: ص 270.

5– (5) المصدر نفسه: ص 428.

6- (6) انظر: الأخلاق والآداب الإسلامية: ص 184.

البـارى عزّ وجـلَّ، حتى أنّه تبـارک وتعـالى جعـل أكل مال اليتيم أكلاً للنار، حيث قال عزَّوجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (1).

وقد يغفر الله تبارک وتعالى للإنسان ذنوباً كبيرة؛ لأجل اهتمامه بالأيتام،

فقـد حـدّث بعض الثقات أنَّ رجلاً من المنهمكين فى الفساد مات فى نواحى البصـرة، فلم تجـد امرأته مَن يعينها على حمل جنازته؛ لتنفّر الطباع منه، فاسـتأجرت مَن حمل الجنازة إلى المُصلّى فما صلّى عليه أحد، فحُمل إلى الصحراء للدّفن، وكان على جبلٍ قريبٍ من الموضع زاهدٌ مشـهورٌ، فرَأوه كالمنتظر للجنازة، فقصدها ليُصلّى عليها، فانتشر الخبر فى البلد أنَّ فلاناً الزاهد نزل يُصلّى على فلان، فخرج أهلُ البلد فصـلّوا معه عليها، وتعجّب الناس من صلاة الزّاهد، وقيل له فى ذلک، فقال: رأيتُ فى المنام مَن أمرنى أن انزل إلى الموضع الفلانى ترى فيه جنـازة ليس معها أحـد إلاّ امرأة فصلِّ عليها فإنّه مغفور له، فازداد تعجّب الناس من ذلک، فاسـتدعى الزاهـد امرأة الميّت وسألها عن حاله، فقالت: كان طول نهاره مشتغلاً بشرب الخمر، فقال: هل تعرفين له شيئاً من أعمال الخير؟

فقالت: نعم، ثلاثة: الأوّل: كان كلّ يوم يفيق من سكره وقت الصُبح، فيبدّل ثيابه ويتوضأ ويُصلى الصُبح.

الثانى: أنّه كان لا يخلو بيته من يتيمٍ أو يتيمين، وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده.

الثالث: أنّه كان يفيق من سكره فى أثناء الليل فيبكى، ويقول: يا ربِّ أى زاويةٍ من زوايا جهنم تُريد أن تملأها بهذا الخبيث(2).

1- (1) النساء: آية 10

2- (2) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص 184.

ومن هنا كان إيواء اليتيم يشكّل ركناً من الأركان الأربعة التى يبنى الله تبارک وتعالى بها بيتاً فى الجنّة للعبد الذى يتّصف بها، كما تقدّم فى الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام.

الأمر الثانى: رحمة الضعيف

وهى لا تختصُّ بالإنسان، بل تشمل حتّى الحيوان؛ فرحمة الله تبارک وتعالى عامّة وشاملة لجميع المخلوقات: وَ رَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْ ءٍ1 ، ولكن أهمّ شىء أن يرحم الإنسان أخاه الإنسان، ويهتمّ به، خاصّةً إذا كان ضعيفاً من الناحية البدنية والمادية، بل وحتّى المعنوية.

فإذا رحم الإنسان أَخاه الإنسان المسلم سوف ينزل الله تبارک وتعالى رحمته عليهما.

وقد يصل الإنسان إلى منزلةٍ دنيويةٍ وأُخرويةٍ عاليةٍ بسبب رفقه بالحيوانات ورحمته للضعيف منها.

نُقل أنَّ السلطان المقتدر (سبكتكين) كان صيّاداً من سُكّان نيشابور، ولم يكن له من متاع الدنيا إلاّ فرس، فركبه يوماً وذهب للصيد كعادته، فرأى ظبياً معه فصيلهُ فقصدهما، ففرّ الظبى واصطاد الفصيل، فشدّه على رديفه ورجع، فلمّا ذهب قدراً من الطّريق نظر إلى خلفه، فرآى الظبى يسير خلفه وينظر إليه نظر حسرة، فعلم من حاله أنّه يطلب فصيله، ولهذا يمشى خلفه فرّق وأشفق عليه فى نفسه، وقال محدِّثاً نفسه: الصيد وإن كان حلالاً ومباحاً لى، لكنّ الترّحم على هذا الظبى أولى من هذا الصيد، فوضعه على الأرض فأخذ مع أمه بطريقهما، وكان (السبكتكين) ينظر إليهما فرأى الظبى قد رجع، وهو ينظر إليه كأنّه يدعو له، وفى تلک الليلة رأى رسولَ الله صلى الله عليه و آله فى منامه وهويقول له: يا سبكتكين، إنّ الله أعطاک السلطنة والدولة العظمى بشفقتک وترحمّک على الظبى، فيجب عليک أن تراعى ذلک فى رعيتک لتدوم دولتک، فما مضى زمان حتّى استقر على سرير الملک الكبير(1).

1- (2) انظر: الأخلاق والآداب الأسلامية: ص 188.

الأمر الثالث: الشفقة على الوالدين

وهذا هو الركن الثالث والمهم فی الحديث، وهو أنَّ الإنسان يشـفق على والديه ويرحمهم وينظر إليهم نظرةرحيمة، فإنّ: «رضا الله مع رضا الوالدين، وسخط الله مع سخط الوالدين»(1).

وهمـا البـاب الـذی إذا أراد الإنسان أن يرضـی الله تبارک وتعالى يرضـيه عن طريقهما حتّى قرن سـبحانه وتعالى عبوديته بالإحسان إليهما، حيث قال عزَّ وجلّ: وَ قَضى رَبُّکَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً (2).

سُئل أبو عبـد الله الصّادق عليه السـلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً3 ، ما هذا الإحسان؟ فقال: «الإحسان صُحبتهما، وأن لا تكلفُّهما أن يسألاک شيئاً ممّا يحتاجان إليه وإن كانا مستغنين. أليس يقول الله عزّ وجل: (لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ»4.

فمن حقّنا أن نعرف ويعرف كلُّ ذی لُبٍّ: أنّ الأب وإن عظم حقّه لما يقوم به للولـد من بـذلٍ فی سبيل تثقيفه وتأديبه، فيما ليس بأمكان الأُمّ أن تقوم بـالبعض منه إلاّـ نـادراً هوأقـلَّ منهـا حقـاً على الولـد، كيف ولمـاذا؟! لأنّهـا تحمّلت فی حمله والمخـاض به فی (ساعات الطلق) الموصوفة بسكرات الموت، تحمّلت ما لم يستطع الوالدُ لوكُلّف تحمُّلَ بعضه، إضافةً إلى ما تحمله الأُمّ للولد من حنانٍ فائق.

هذا أمير المؤمنين عليه السـلام ووصـیُّ رسولِ ربِّ العالمين يُخاطبُ ولده الحسن الزكیّ عليه السـلام مظهراً شدّة حبّه له: «[بنیَّ] وجدتُک بعضی، بل وجدتُک كُلّی، حتّى كان شيئاً [أو

1- (1) روضة الواعظين: ص 368.

2- (2) الإسراء: آية 23.

سهماً] لو أصابک أصابنی، ولو أنَّ الموت أتاک أتانی»(1) ، یخاطبُه بهذا الخطاب والحسن علیه السلام یومها بتمام الصحّة وریعان الشباب لم یُصب بشیءٍ، لکن الإمام علیه السلام یصف شفقته علیه وتألُّمَه لأجله، لوقُدّر أنّه یُصابُ بسهمٍ أو بجرحٍ یقول له الإمام علیه السلام: إنَّ ذلک السهم باللحظة نفسها سیصیبنی، وما ذلک إلاّ من شدّةِ الحُبّ والصفاءِ والولاء الذی بینهما، فصار ما یُؤلمه یُؤلم الإمام وما یُصیبه یُصیب الإمام علیه السلام.

وقال حُکماء العرب: إصابةُ السَّهم أخفُّ ألماً من إصابة الهمِّ والغمِّ.

ولذا یقف الإمام الحسین علیه السلام علی ابن أخیه القاسم بن الإمام الحسن علیه السلام، وکأنّما وقف الإمام علی ولده؛ لأنّه هو الذی ربّاه واعتنی به، وکأنّی به یخاطبه(2):

صاح یا جسّام أوعد راسه گعد ویل گلبی ینحب اوگلبه انمرد

یبن أخوی العرس چا المن بعد اوهامتک من سیف الأزدی مشرگه

ثمّ أخذ عمُّه الحسین یناشده:

یعمّی اشگالت من الطبر روحک یجاسم ما تراوینی اجروحک

لون أبکی یعمّی چنت أنوحک بگلب مثل الغضة وبدمع مُحمر

***

إن یبکه عمّه حزناً لمصرعه فما بکی قمرٌ إلاّ علی قمرِ

***

إنّا لله وإنّا إلیه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلیّ العظیم

وسیعلم الذین ظلموا آل مُحَمّد أیَّ مُنقلبٍ ینقلبون

والعاقبة للمتّقین

1- (1) بحار الأنوار: ج 74، ص 199.

2- (2) من دروس شیخنا الأستاذ محمد سعید المنصوری رحمه الله، وقد تقدّمت ترجمته فی المحاضرة السادسة.

المحاضرة الثالثة عشرة: القناعة

اشارة

ص:167

راحلٌ أنتَ والليالى نُزولُ ومضرٌّ بک البقاء الطويلُ

لا شجاعٌ يبقى فيعتنقَ ال - بيضَ ولا آملٌ ولا مأمولُ

غاية النّاس فى الزمان فناء وكذا غاية الغصون الذبولُ

إنّما المرء للمنيةِ مَخبوء وللطعن تُستَجَمُّ الخيولُ

عادةٌ للزمان فى كلِّ يومٍ تنتىء جيرةٌ وتُبكى طُلولُ

كلُّ باكٍ يُبكى عليه وإن طال بقاؤه والثاكل المثكولُ

أىُّ يومٍ أدمى المدامع فيه حادثٌ رائعٌ وخطبٌ جليلُ

يومُ عاشورٍ الذى لا أعان الصحبُ فيه ولا أجارَ القبيلُ

يا بن بنت النبىّ ضيَّعتِ العهدَ رجالٌ والحافظون قليلُ

ما أطاعوا النبىَّ فيکَ وقد مالت بأرماحها إليک الذحولُ

أترانى ألذ ماءً ولمّا يُروَ من مهجة الإمام الغليلُ

أترانى أُعيرَ وجهىَ صوناً وعلى وجهه تجولُ الخُيولُ (1)

1- (1) القصيدة للشريف الرضى رحمه الله، قال عنه فى أدب الطف: (ج 2، ص 216 - ص 218): «الشريف الرضى ذو الحسبين أبو الحسن محمد بن الطاهر ذى المنقبتين أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر عليه السلام، ولد سنة 359 ه - ببغداد، وتوفى سنة 406 ه - فى السادس من المحرّم، ودفن بداره فى بغداد، ثمّ نُقل إلى مشهد الإمام الحسين عليه السلام فى كربلاء. نظم الشعر فى عهد الطفولة ولم يزد عمره على عشر سنين، فأجاد وحلّق وحاز قصب السبق بغير منازع، قال عنه صاحب عمدة الطالب: كانت له هيبة وجلالة، وفيه ورع وعفّة وتقشّف ومُراعاة للأهل والعشيرة، ولىَ نقابةَ الطالبيين مراراً وكانت له إمارة الحجّ والمظالم، كان يتولّى ذلک نيابة عن أبيه ذى المناقب، ثُمّ تولّى ذلک بعد أبيه مستقلاً، وحجَّ بالناس مرات. أمّا مكانته العلميّة: فهو أوحد علماء عصره، وقد قيل: إنَّ الرضى أعلم الشعراء لولا المرتضى، والمرتضى أشعر العلماء لولا الرضى، وهذه مؤلفاته تعطينا صورة جلية عن براعته، فهذا (حقائق التأويل فى متشابه التنزيل) كما يقول ابن جنّى: صنّف الرضى كتاباً فى معانى القرآن الكريم يتعذّر وجود مثله، و (كتاب المجازات النبوية) و (تلخيص البيان عن مجازات القرآن) وغيرها. وهو الذى جمع كلام أمير المؤمنين وأسماه نهج البلاغة...».

من سحگت علیه الخیل طلعت زینب تنادی

اویلی علیک یابن أُمّی ویا روح النبی الهادی

بعد های المصیبة اشلون تبرد جمرة أفادی

عمت عینی یخویه حسین عسه ولا شاهدت عینی

***

عن الإمام جعفر الصّادق علیه السلام أنّه قال:

«مَن قنع من الله بالیسیر من المعاش رضی الله منه بالیسیر من العمل»(1).

القناعة:

هی الاکتفاء بقدر الحاجة والضـرورة من المال وغیره من أُمور الدنیا، وهی صـفة فاضـلة، ومن أعظم الوسائل للوصول إلی السـعادة الأبدیة، والقنوع مرتاح البال، متفرغٌ لأمر الدین وسلوک طریق الآخرة(2).

فضل القناعة:

عن الإمام الصّادق علیه السلام أنَّه قال:

«خمسٌ مَن لم تکنْ فیهِ لم یتهنّأ بالعیش: الصّحة، والأمن، والغنی والقناعة والأنیس الموافق»(3).

قیل لبعض الحکماء: رأیتَ شـیئاً أفضل من الذّهب؟ قال: نعم، القناعة. وإلی هذا ینظر قول بعض الحکماء: اسـتغناؤک عن الشیء خیرٌ من استغنائک به.

کان دیوجانس الکلبی من أساطین حکماء الیونان، وکان متقشّفاً زاهداً لا یقتنی شیئاً

1- (1) الکافی: ج 2، ص 138، ح 3.

2- (2) انظر: الأخلاق والآداب الإسلامیة: ص 379

3- (3) مشکاة الأنوار: ص 260 - ص 261.

ولا ـ يأوى إلى منزل، دعاه الإسكندرُ إلى مجلسه فقال للرسولِ: قل له: إنَّ الذى منعک من المسير إلينا هو الذى منعنا من المسير إليک، منعک إسغناؤک عنَّا بسُلطانک، ومنعنى استغنائى عنک بقناعتى(1).

هذهِ هى القناعة وضدّها الطمع، وهو تمنّى ما فى أيدى النّاس، وأن يحصل على ما عندهم، وبعبارة أُخرى: اشتهاء الشىء والرغبة فيه والحرص عليه، وهو من الرذائل المهلكة(2).

إلا ـ أنّه يُمدح فى بعض الموارد، وهى:

1 - الطمع بعفو ورحمة الله عزَّ وجلَّ.

2 - الطمع بنعيم الآخرة وسعادتها.

وأمّا مطلق الطمع فهو مذموم أشدَّ الذمّ؛ لأنّه يؤدّى فى بعض الأحيان إلى قتل الإنسان.

رُوى: «أنَّ المسيح عليه السلام خرج يوماً إلى البرية ومعه ثلاثة من أصحابه، فلمّا توسّعوا فى البرية رأوا لبنة من ذهب مطروحة فى الطريق، فقال عيسى عليه السلام: هذا الذى أَهلک من البرية مَن كان قبلكم، إيّاكم ومحبّة هذا، فمضوا عنها فما مضى ساعة حتّى قال واحد منهم: يا روح الله، ائذن لى فى الرجوع إلى البلد فإنّى أَجدُ الأَلم، فأذن له، فأتى إلى اللّبنة ليأخذها فجلس عندها.

فقال الثانى: يا روحَ الله، ائذن لى فى الرجوع فأذن له، وكذلک الثالث، فاجتمعوا عند تلک اللبنة ليأخذوها، فقالوا: نحنُ جياع، فليمضِ واحد منّا إلى البلد ليشترى لنا طعاماً حتّى ندخل البلد، فمضى واحد فأتى إلى السوق واشترى طعاماً فقال فى نفسه: إنّى

1- (1) سفينة البحار: ج 7، ص 375.

2- (2) انظر: الأخلاق والآداب الأسلامية: ص 377

أجعل فوقَه سُمّاً فيأكلان فيموتان، فتبقى تلك اللبنة لى وحدى، فوضع فى الطعام سُمّاً.

وأمّا الآخران فتعاقدا على أن يقتلاه ويأخذا اللبنة، فلمّا جاء بالطعام بادرا إليه وقتلاه وجلسا يأكلان الطعام، فما أكلا قليلاً حتى ماتا فصاروا كلُّهم أمواتاً حول تلك اللبنة، فلمّا رجع عيسى عليه السلام مرّ على تلك اللبنة، فرأى أصحابه أمواتاً فعلم أنّ تلك اللبنة هى التى قتلتهم، فدعا الله فأحياهم لأجله، فقال لهم: أما قُلتُ لكم: إنَّ هذا هو الذى أهلك مَن كان قبلكم فتركوا اللبنة ومضوا»(1).

نتائج القناعة:

هناك عدّة نتائج للقناعة منها:

1 – العزّ: فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال

: «ثمرة القناعة العزّ»(2).

2 – الاكتفاء والرضى بما عنده.

3 – صلاح النفس: فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«أعوَن شيءٍ على صلاح النفس القناعة»(3).

4 – القناعة راحة: فعن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال

: «القُنوع راحة الأبدان»(4).

5 – سهولة الحساب ويسره يوم القيامة.

من قصص القناعة:

عن أبى بصير قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«أرسل عثمان إلى أبى ذرّ رضى الله عنه موليين له و معهما مئتا دينار، فقال لهما: انطلقا إلى أبى ذرّ فقولا له: إنَّ عثمان يقرئك

1- (1) زهر الربيع: ص 406.

2- (2) عيون الحكم والمواعظ: ص 208.

3- (3) المصدر نفسه: ص 112.

4- (4) بحار الأنوار: ج 75، ص 128 باب وصايا الحسين عليه السلام.

السلام، ويقول لک: هذه مئتا دينار فاستعن بها على ما نابک. فقال أبو ذر: هل أعطى أحداً من المسلمين مثل ما أعطانى؟ قالا: لا، قال: إنّما أنا رجلٌ من المُسلمين يسعنى ما يسع المُسلمين. قالا له: إنّه يقول: هذا من صُلب مالى وبالله الذى لا إله الا هو ماخالطها حرام ولا بعث بها إليک إلاّ من حلال. فقال: لا حاجة لى فيها وقد أصبحتُ يومى هذا وأنا من أغنى الناس. فقالا له: عافاک الله وأصلحک، ما نرى فى بيتک قليلاً ولا كثيراً ممّا يُتمتع به، فقال: بلى، تحت هذا الأكاف الذى ترون رغيفا شعيرٍ قد أتى عليهما أيّام، فما أصنع بهذه الدنانير، لا والله حتّى يعلم الله أنّى لا أقدر على قليل ولا كثيرٍ، وقد أصبحتُ غنيّاً بولاية على بن أبى طالب عليه السلام وعترته الهاديين المهديين الراضين المرضيين الذين يهدون بالحقّ وبه يعدلون. وكذلک سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه و آله يقول: فإنَّه لقبيحٌ بالشيخ أن يكون كذّاباً، فرُدّاها عليه وأعلِماهُ: إنّى لا حاجة لى فيها ولا فيما عنده حتّى ألقى الله ربّى فيكون هو الحاكم فيما بينى وبينه»(1).

فهكذا تعلّم أبو ذرّ الغفارى من النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ومن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، تربّى على أن لا يكون عبداً مسترقّاً، وإن كلَّفه ذلک أن يموت وحيداً وغريباً، وكذا تربّى وعاش أبو الفضل عليه السلام على أن لا يكون مسترقّاً فقد تعلّم الصرخة الحسينيّة: هيهات منّا الذلة...

ولذا ترى أنّه عليه السلام لمّا جاء إليه الشمر (لعنه الله) ومعه كتاب من ابن زياد فيه الأمان للعباس وإخوته، بحيث لو رضى به العباس وإخوته لحصل الشمر على جائزة من عبيد الله بن زياد (لعنه الله). فصاح الشمر: أين العباس وإخوته؟ وكان العباس وقتئذٍ جالساً بين يدى الحسين عليه السلام، فأطرق برأسه حياءً من الحسين، فصاح الشمر ثانياً وثالثاً، فالتفت الحسين عليه السلام إلى أخيه أبى الفضل العباس عليه السلام قائلاً: أجبه يا أخى ولوكان فاسقاً.

ركب أبو الفضل عليه السلام جواده، وأتى نحو الشمر وقال: ما تريد يا بن ذى الجوشن؟

1- (1) بحار الأنوار: ج 22، ص 398، ح 5.

فقال: يا أبا لفضل هـذا كتاب من ابن زياد، يذكر فيه بأنّک أنت وإخوتک آمنون وأنت الأمير على هذا الجيش، فلا تعرّض نفسک للقتل! فقال له العباس عليه السـلام: لعنک الله ولعن آمانک، أتُؤمننا وابن رسول الله لا أمان له، ويلک، أفبالموت تخوفنی؟! وأنا المميت خواض المنايا، أأَترک مَن خلقنی الله لأجله وأدخل فی طاعة اللعين وأولاد اللعناء(1).

نعم كيف يترک إمام زمانه وسيده ومولاه، ولذا نراه قد وفی لسيد الشهداء عليه السلام، فقدّم كلَّ مايمكن أن يقدّمه مأموم لإمام زمانه، إلى أن وقع على رمضاء كربلاء، ونادى: أخی يا حسين أدرک أخاک.

أقبل أبو عبد الله عليه السلام نحو مصرعه، كشف الأعداء عن جسد أبی الفضل العباس عليه السلام.

يقول حميد بن مسـلم: لمّا وصل بالقرب من العباس طأطأ رأسه إلى التراب وحمل شيئاً وقبّله، نظرنا وإذا هی يمين العبّاس، بعد ذلک طأطأ رأسه مرّة ثانيـة وحمل شـيئاً آخر وقبّله، وإذا هی شـمال العباس عليه السـلام، بعـد ذلک أخذ شـيئاً آخر وقبّله، نظرنا وإذا بها عمامة العباس ملطخة بالدماء... وصل إليه أخذ رأسه وضعه فی حجره أرجعه أبوالفضل وعفّره بالتراب، أرجعه الحسين مرّةً ثانية إلى حجره، أرجعه العباس إلى التراب، وهكذا ثالثةً، فالتفت إليه الحسين عليه السلام قائلاً: الوداع الأخير يا بن والدی!

فقال العباس: أخی أبا عبـد الله يا بن الزهراء، الآن أنت تأخذ برأسـی تضـعه فی حجرک، ولكن روحی فداک أبا عبد الله مِن بعدی مَن الذی يأخذ برأسک؟ مَن الذی يمسح الدم والتُراب عن وجهک؟(2)

1- (1) انظر: الإرشاد: ج 2، ص 89. تاريخ الطبری: ج 4، ص 315. بحار الأنوار: ج 44، ص 391.
2- (2) الطريق إلى منبر الحسين عليه السلام: ص 183 - ص 184.

خویه من یغمضلک اعیونک یا هو اللّی یگف یحسین دونک

عله افراگی أشوف انخطف لونک وتضل بعدی یبو سکنه محیّر

یا عباس لمن صدّت العین منی لعد ایدیک الاثنین

دمهن یسیل اوشفت چفین فوگ الثری نادیت صوتین

واحد نواعی اوواحد ونین یعباس صارت طیحتک وین

یعباس آنه اعضیدک احسین مگدر علی افراگک یلحنین

وسفه یفرگ بینه البین

(أبوذیة)

چنت عونی ونه بالکون عونک گضیت اللی علیک اوفزت عونک

لچن یا هو من أصیح یصیح عونک یخویه حسین بس آمر علیَّ

***

ما خلتُ بعدَک أن تشلَّ سواعدی وتکفَّ باصرتی وظهری یُقصمُ

***

إنّا لله وإنّا إلیه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلیّ العظیم،

وسیعلم الذین ظلموا آل مُحَمّد أیَّ مُنقلبٍ ینقلبون

المحاضرة الرابعة عشرة: الرضا بقضاء الله

ص:177

يا مَن يلومُ على البكاء عيونى دعها تُخفِّف لوعتى وشجونى

مَن مُبلغٌ أُمَّ البنين رسالةً مِنْ والهٍ بشجونه مرهونِ

لا تسأل الرُكبان عن أبنائها فى لوعةٍ لفراقهم وحنينِ

أوَ ما درت بفعالهم يومَ الوغى فى كربلاءَ وهُم أعزُّ بنينِ

فلتأتِ أرضَ الطَّفِ تنظرُ وِلدَها ثاوين بين مقطَّعٍ وطعينِ

ومُوسَّدين على الصعيد فديتُهم صرعى بلا غُسلٍ ولا تكفينِ

وقضوا ضحايا كالحسين زعيمهم ما بلَّلوا أحشائهم بمعين(1)

1- (1) القصيدة للشيخ حسن قفطان، قال عنه السيد جواد شبّر فى أدب الطف (ج 7، ص 105 - ص 107): «الشيخ حسن بن على بن عبد الحسين بن نجم السعدى الرباحى نسبة إلى آل رباح؛ فخذ من بنى سعد العرب المعروفين بالعراق، قال السيد مهدى القزوينى فى (أنساب القبائل العراقية): بنو سعد بطن من العرب منهم فى الدجيل ومنهم فى كربلاء، الدجيلى الأصل اللملومى المحتد، النجفى المولد والمسكن والمدفن، الشهير بقفطان، ولد فى النجف الأشرف سنة 1199 ه -، وتوفى بالنجف سنة 1279 ه -، عن عمر يناهز الثمانين، كما فى الطليعة، ودفن فى الصحن الشريف العلوى عند الإيوان الكبير المتّصل بمسجد عمران، كان فاضلاً ناسكاً تقياً محباً للأئمّة الطاهرين، وأكثر شعره فيهم، درس الفقه على الشيخ على ابن الشيخ الأكبر الشيخ جعفر، حتى نبغ فيه وعدَّ من الأعلام الأفاضل، واختصَّ أخيراً بصاحب الجواهر، وكان يعدّ من أجلّ تلامذته وأفاضلهم، اتّخذ الوراقة مهنة له، وورث ذلک عنه أبناؤه وأحفاده إلاّ أنّه كان يمتاز عنهم باتقان الفقه واللغة والبراعة فيهما، وهذا ما حدا بأستاذه أن يحيل إليه وإلى ولده الشيخ إبراهيم تصحيح الجواهر ومراقبته حتى قيل: إنّه لولاهما لما خرجت الجواهر؛ لأنّ خط المؤلف كان رديئاً، وقد كتب النسخة الأُولى عن خط المؤلف، ثمّ صارا يحترفان بكتابتها وبيعها على العلماء وطلاب العلم، وأكثر النسخ المخطوطة بخطهما، وهذا دليل على أنّ المترجم كان يعرف ما يكتب، وكان جيد الخط والضبط، ويظهر من ترجمة سيدنا الصدر له أنّه كان جامعاً مشاركاً فى العلوم بأكثر من ذلک، فقد قال فى (التكملة): كان فى مقدمى فقهاء الطائفة مشاركاً فى العلوم فقيهاً أُصولياً حكيماً إلهياً؛ وكذلک له التقدّم والبروز فى الأدب وسبک القريض، وله شعر من الطبقة العليا. توفى سنة 1275 ه - كما فى التكملة، أو 77 كما فى (الطليعة)، وقال: ودفن فى الصحن العلوى الشريف عند الإيوان الكبير المتّصل بمسجد عمران، وترک آثاراً هامّة، منها: (أمثال القاموس) و (الأضداد) و (طبّ القاموس) ورسالة فى الأفعال اللازمة المتعدية فى الواحد. وخلّف من الذكور: الشيخ إبراهيم والشيخ أحمد والشيخ حسين والشيخ محمد والشيخ على والشيخ مهدى، وفى (الكرام البررة) أنَّ الشيخ حسين توفى فى حياة أبيه حدود

(بحرانی)

بالله استعدی للبواچی یمّ البنین ردوا یتامی وانذبح عبّاس واحسین

یمّ البنین اتذبحوا کلّهم علی الگاع وحسین ظل امجرّد ومکسور الأضلاع

ومخدرة حیدر علی فرت بلا اقناع ویه الحرم والنار تسعر بالصواوین

یمّ البنین الأربعة أنذبحوا ظمایا وظلوا ثلث تیّام بالغبره عرایا

لیتچ نظرتی عالنهر صاحب الراية مفضوخ راسه إمگطعه إشماله والیمین

وکأنّی بها صاحت:

(قطیفی)

یا لیت عندی من الولد سبعین مولود بالمرجله کلّها مثل عبّ اس وتزود

تنذبح وابن المصطفی لدیاره یعود سالم ولا تنظام زینب والخواتین

عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«يَقولُ اللهُ عزّ وجلَّ: مَن لَم يرضَ بقَضائی، ولَم يشكُرْ لِنعمائی، ولم يَصْبِر على بَلائی، فلْيتخذْ ربّاً سوائی»(1).

الرضا بقضاء الله تبارک وتعالى معناه أنَّ الإنسان يترک الاعتراض والسخط على قضاء الله وقدره.

والرضا بقضاء الله وقدره متعلّقٌ بالحبّ، فإذا حصلت المحبّة بين الإنسان وربّه حصل الرضا بالقضاء النازل من المولى عزّ وجلّ؛ لأنَّ الحبيب لا يتوقع من حبيبه إلاّ الخير، بل يحمل جميعَ أفعالِه وما يَصنع به على أحسنها وأتمّها وأقومها. والرضا بقضاء الله هو أحد أركان الإيمان على ما ورد فی بعض الروايات.

منها: ما رُوی عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه سأل طائفةً من أصحابه، فقال:

«ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانِكم؟ فقالوا: نصبر عند البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء. فقال صلى الله عليه و آله: مؤمنون وربِّ الكعبة»(2).

وحُكی أنَّ أحد الصالحين كان له ولدٌ مريضٌ، فرآه صاحبه فی حالة من الحزن والارتباک والخوف على طفله، وشاهده يدخل ويخرج من باب بيته، ويدعو الله عزّ وجلّ أن يشفيه، وبعد ساعاتٍ مضت، رآه وقد خرج من منزله وهو مرتاح، فظنَّ أنّ الطفلَ شُوفی فقال له: الحمدُ لله على شفاء الولد، فقال له الرجل الصّالح: لقد مات الطفل! فتعجّب الرجل وقال له: رأيتک أثناء مرضه وأنت حزين خائف مرتبک، والآن وقد مات أراک مرتاحاً.

فقال له الرجل الصالح: كان علينا أن ندعو الله عزّ وجلّ أثناء مرضه، وأن نأتی

1- (1) بحار الأنوار: ج 5، ص 95، ح 18.

2- (2) مسكن الفؤاد: ص 79.

بالطبيب والدواء، ولكن الطفل قد مات وقد رضينا بقضاء الله وقدره(1).

ثمّ إنّه لا شک أنّ هناک أُموراً تساعد الإنسان على الرضا بقضاء الله وقدره. وأوّل هذه الأُمور هو المعرفة والعلم، فالإنسان الذى يعلم أنَّ الله عادل وحكيم، ولا يقدّر لعبده إلاّ ما هو خير له، لا يسخط على أمر الله عزّ وجلّ، فالطفل حينما يهرب من الطبيب لا يعلم أنَّ هذا الطبيب سوف يعالجه، وذلک لمصلحته، وكذلک الجاهل بقدرة الله وعظمته وحكمته يغضب ويسخط إذا ما أصابه قضاء الله.

فعن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال:

«إنَّ أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله عزّ وجلّ»(2).

إذن، المعرفة والعلم هما الأمران اللّذان يُساعدان الإنسان على الوصول إلى الدرجات العالية، ويجعلانه يرضى بقضاء الله وقدره.

ومِن ثَمَّ أنّ هناک أُموراً حتمية لا مجالَ لتغييرها.

فالموت – مثلاً – قضاءٌ محتّم، ولا مدخل فيه للإرادة الإنسانية، فينبغى للإنسان أن يُسلّم للإرادة الإلهية، وفوق التسليم أن يرضى بقضاء الله وقدره، ولا يغضب لذلک.

نعم، بعض الأُمور تحتاج إلى السعى مثل ذهاب الإنسان المريض إلى الطبيب، وطلب الرزق، وغير ذلک، أمّا نفس الموت، فماذا يصنع له الإنسان وقد قال تعالى: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (3).

لكن فى كلّ الأحوال الواجب علينا هو الرضا بقضاء الله وقدره؛ ولذا ترى النبىّ الأعظم صلى الله عليه و آله عندما توفى إبنه إبراهيم عليه السلام حزن وبكى، وروى عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «العين

1- (1) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص 471 – ص 473.

2- (2) الكافى: ج 2، ص 60 باب الرضا بالقضاء، ح 2.

3- (3) الأعراف: آية 34.

تدمعُ، والقلبُ يحزن ولا نقول إلا ما يُرضى ربّنا»(1).

وكيف لا؟ وقد قال تعالى عنه: وَ إِنَّکَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِیمٍ 2 . فمن هنا ينبغى لنا نحن المسلمين الاقتداء بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

وإذا رضى الإنسان بقضاء الله وقدره وصبر على ما ابتلاه به المولى عزّ وجلّ، سوف يشعر حينئذٍ بالثمرات التى يلمسها بيده، ويحسّها بقلبه، ويحصل على تلك النتائج الباهرة بصورةٍ ملموسةٍ وظاهرةٍ.

وأوّل هذه النتائج وأهمّها الراحة، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَن رضى بما قُسم له استراح بدنُه»(2).

ومنها: ذهاب الحُزن، فلم يحزن على ما فاته، ويكون قريباً من الله تبارک وتعالى.

إلى غير ذلک من النتائج العالية التى يلمسها الإنسان فى الحياة الدنيا.

وأمّا ما أعدّه الله تبارک وتعالى له فى الآخرة فهو الجنّة بإذنه عزّ وجلّ.

ومن عجيب قصص الرضا بقضاء الله وقدره، ما رواه ذو النون المصرى، حيث قال: دخلت المقبرة فرأيتُ امرأةً شابّةً جالسةً، وبين يديها قبور أربعة، وهى تنشد هذه الآبيات:

صبرتُ وكان الصبر خير مطيّةٍ وهل جزع يجدى تراه فأجزعُ

صبرت على ما لو تحمّل بعضَه جبالٌ برضوى أصبحت تتصدعُ

فسالت دموعُ العَين ثُمَّ رددتها إلى ناظرى والعينُ فى القلب تدمع

فقلت: ما الذى نزل بکِ، وما شأنکِ؟

قالت: أعجب شأنٍ، أصبحت ولى بنون ثلاثة ولى زوج عطوف، وأمسيت وقد

1- (1) مسكن الفؤاد: ص 93.

2- (3) الخصال: ص 632.

فارقتهم جميعاً، أفنتهم أيدى الزمان.

قلت: وكيف ذلک؟

قـالت: إنّ بعلى قام إلى شاةٍ لنا فى البيت فـذبحها، وكان لى ابنان صـغيران جعلا ينظران إلى ما فعل أبوهما، فلمّا خرج أبوهما قال أحـدهما للآخر: هَلُمَّ يا أخى حتّى أذبحک كما ذبحَ أبوک الشاة، فقال: نعم، قام إليه وأخذ السكين وذبحه، وأنا كنت مشغولةً ببعض الأُمور، فلمّا أتيتُ إذا به يخور فى دمه، ويتمرّغ فيه، فصـحت به ويلـک ما صـنعت بأخيک، ذبحته، أفٍ لک! فارتعـد واضـطرب، وخاف وهرب إلى الصـحراء، فـدخل أبوهمـا ووقف على الأمر ثُمَّ خرج إلى الصـحراء يطلب ابنه، وإذا هو بـذئبٍ قـد وثب على الغُلام ومزّقه، وتناول لحمه، وبقى بعض أعضائه، فحمله أبوه ليدفنه، فبينما هو يسـير أصابه عطشٌ شديد، وقد اشـتّد حُزنه على ولديه، فسـقط ومات، فبينما أنا باكية حزينة على ولدى المذبوح، إذا أخبرت وأُنبئتُ بموت زوجى وولدى الآخر، فخرجت لأستبين الخبر وإذا هو كما قالوا، ولمّا رجعت إلى الدار إذا بولد آخر لى، وهو طفل صـغير قـد أقبل إلى القـدر وهو على النار فوقع فى القـدر ونضج ومات، وهذه قبورهم، وأنا أصبر على ذلک؛ لأنّى أعلم أنّ الصبر أحجى وأجمل.

ذكّرنى حالُ هذه المرأةِ الصالحةِ الصابرةِ حالَ أُمِّ البنين، كانت تأتى إلى البقيع، وتصـنع أربعة قبور رمزية، وبين يديها يتيمان لقمر بنى هاشم العبّاس بن على عليه السلام، وهما عبد الله والفضل، وتندب بنيها أشجى ندبة وترثيهم(1).

ولـذا لمّا رجعت عائلـةُ الحسـين عليه السـلام إلى المدينـة قالت زينب عليها السـلام: لا أُريد أحداً يدخل علىَّ إلاّ مَن فقدت لها عزيزاً فى كربلاء. وجلست فى منزلها، وجعلت جاريتها على الباب، وإذا بالباب تُطرق، فقالت الجاريـة: مَن على الباب؟ فإنّ سـيدتى زينب لا تُريد أحداً يدخل

1- (1) شجرة طوبى: ص 406.

علیها إلاّ مَن فقدت لها عزیزاً فی کربلاء.

فقالت لها: قولی لسیدتک: إنّی شریکتُها فی هذا العزاء، وأُرید أن أدخل علیها وأساعدها، فإنّی مثلها فی المصاب، فلمّا أخبرت الجاریة زینب. قالت: سلیها مَن هی حتی تکون مثلی فی المصاب، ثُمَّ قالت: إن صدق ظنّی فإنّها أُمُّ البنین، فرجعت الجاریة وقالت لها: سیدتی تقول مَن أنتِ التی مثلها فی المصاب؟

قالت: أنا الثاکلة!! قالت: أوضحی لی من تکونین؟ قالت: أوَ ما عرفتینی، أنا أُمّ البنین، قالت الجاریة: لقد صدقت سیدتی فی ظنّها، وإنّک والله کما تقولین أُمُّ المصیبة العظمی والفاجعة الکبری:

صاحت صوت آیا فگد الأطیاب والله إشموحشه یا دور الأحباب

إهناک اوسمعن الصرخة علی الباب أنا أُمّ عباس جیتچ لا تفترین

ثمّ فتحت لها الباب، فلمّا دخلت استقبلتها زینب، واعتنقتها وقالت:

عظّم الله لک الأجر فی أولادک الأربعة.

فأجابتها أُمّ البنین: وأنتِ عظّم الله لک الأجر فی الحسین علیه السلام(1).

بچت زینب اونادت تلگنها بالله اویای گومن ساعدنها

های أُمّ البنین الراح منها صناید أربعة او بالحرب نفلین

بچت زینب اوصاحت آیحزنی اولفتها أُمّ البنین ابضلع محنی

تصیح ابصوت آیحسین یبنی های امصیبتک بچّت الدارین

. اشلون أُمّ البنین اصیاح صاحت اهنا یحسین یبنی روحی راحت

تلگنها الحرم عجّت او ناحت زینب بالعزه کسرت الصوبین

1- (1) مجمع مصائب أهل البیت علیهم السلام: ج 2، ص 196 - ص 197.

(أبوذية)

على الأولاد زيدى النوح يمهُم ابفرد ساعة الدهر بالطبگ يمهم

أحب أگصد وجاور كون يمهم أجاورهم لما اتجينى المنية

(تخميس)

يا ميّتاً ترک الألبابَ حائرةً تناوشتْه سهامُ البغى راميةً

وأعظم الخطبِ فى الإسلام داهيةً عارٍ تجولُ عليه الخيلُ عاديةً

حاكت له الريح ظافى مئزرٍ وردا

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:186

المحاضرة الخامسة عشرة: برّ الوالدين وعقوقهما

ص:187

ماتَ التصبّرُ فی انتظارکَ أیّها المُحیی الشریعه

فانهضْ فما أبقی التحمّلُ غیرَ أحشاءٍ جزوعه

کم ذا الق عودُ ودینُکم هُدِمتْ قواعدُه الرفعیه

تنعی الفروعُ أصولَه وأصولُه تنعی فروعَه

ماذا یهیجُک إن صبرت لوقعةِ الطفِّ الفظیعه

أتری تجیُ ء فجیعةٌ بأمضَّ من تلک الفجیعه

حیثُ الحسینُ علی الثری خیلُ العِدی طحنتْ ضُلُوعَه

قَتَلَتْهُ آلُ أمیةٍ ظامٍ إلی جنبِ الشریعَه

ورضیعُهُ بدمِ الورِیدِ مُخضبٌ فاطلبْ رضیعَه

ماهزَّ اضلُعَکم حِدَاءُ القوم بالعیس الظلیعه(1)

***

(نصاری)

مشینه اعله الهزل وامچتفینه اوخذونه ابها الیسر غصباً علینه

اویاکم نضل لو یحصل بدینه لمن یحسین یلفینه المحتم

1- (1) الأبیات من قصیدة رائعة للسید حیدر الحلی رحمه الله یرثی بها جدّه الإمام الحسین علیه السلام ویستنهض الحجّة المهدی المنتظر عجل الله تعالی فرجه الشریف. انظر: دیوانه: ج 1، ص 37، وقد تقدّمت ترجمته فی المحاضرة التاسعة.

مشت فوک الظعن والحرم تنحب اوعليها أسياط شمر اوزجر تلعب

حتّه الظعن للكوفة تگرب لا بن زياد لمبشر تجدّم

(فايزى)

من گال للكوفة العقيلة اميسّرة اتروح فوک الجمال الظالعة أو بين العده اتنوح

اتعاين الروس إخوانها جدامها اتلوح فوک الرماح ابديرة الكوفة ادخلوها

وكأنّى بزينب تخاطب حامل الرأس:

يشايل راس حامينه اوولينه ريّض خلى اتودعه إسكينه

ليش حسين ساچت عن ونينه گلى تعب يو جرحه تخدّر

***

(أبوذية)

حرت ما بين هالنسوه والأيتام او بگينه أبيسر ما عِدنه وليتام

لون عبّاس يبرالى والأيتام ما واحد كفو يجسر علىَّ

***

قال تعالى: وَ قَضى رَبُّکَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَکَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (1).

برُّ الوالدين هو الإحسان إليهما، وهو من أفضل القُربات إلى الله عزّ وجلّ.

وضده عقوق الوالدين، وهو الإساءة إليهما.

وكلا الأمرين يتحقق بالأعم من القول أو الفعل، بل أحياناً نجد أنّ الإيذاء باللسان أقوى تأثيراً من الإيذاء بالفعل الخارجي؛ فقد تكون كلمة تصدر من الإنسان أشدّ من جرح السيوف.

قال الشاعر واصفاً ذلک:

جراحاتُ السنانِ لها التئامُ ولا يلتامُ ما جَرحَ اللّسانُ (2)

وهذا الموضوع – برُّ الوالدين وعقوقهما – من الموضوعات التي اهتمّ بها الباري عزّ وجلّ اهتماماً منقطع النظير، حتّى أنّه تبارک وتعالى قرن برّ الوالدين والإحسان إليهما بالتوحيد، وكأنّه عزّ وجلّ يريد أن يقول للمجتمع: إنّ درجة برّ الوالدين درجة بالغة الأهميّة، تكاد تصل إلى درجة الإيمان بي.

ولذا، تجد أنَّ أربع آيات في الكتاب العزيز قرنت برَّ الوالدين بالتوحيد.

الآية الأُولى: في سورة البقرة آية 83، حيث قال تبارک وتعالى: وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً....

والآية الثانية: في سورة الأنعام آية 151، حيث قال عزّ وجلّ: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً....

والآية الثالثة: في سورة النساء حيث قال عزَّ من قائل في آية 36 من السورة المذكورة:

1- (1) الإسراء: آية 23.

2- (2) فيض القدير: ج 6، ص 179، ونسبه للسيد المرتضى رحمه الله.

وَ اعْبُدُوا اللّهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً....

بالإضافة إلى الآية المذكورة فى صدر المحاضرة والتى هى محل البحث.

فهذه الآيات قرنت بين الإيمان بالله تبارک وتعالى وبين برّ الوالدين.

وأمّا الآيات التى حثّت على برّ الوالدين بصورة عامّة من غير القرن بالتوحيد فهى كثيرة، منها فى سورة لقمان آية 15، ومنها فى سورة الأحقاف آية 150، وغيرها. وهذا كلّه ترغيب وحثٌّ مؤكدٌ من القرآن الكريم.

وأمّا ما ورد فى الحثّ على برّ الوالدين والتجنّب عن عقوقهما على لسان النبىّ الأعظم صلى الله عليه و آله، وأهل بيته عليهم السلام فى أحاديثهم الشريفة فكثير، إذ ورد عنهم عليهم السلام:

«إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنّة فوجد ريحَها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام إلاّ صنفٌ واحدٌ، قلت: مَن هم؟ قالَ العاقّ لوالديه»(1).

ولهذا أكّد الحقّ سبحانه وتعالى على قضية الإحسان لهما، فتراه جلّت عظمته تارةً يوصى، وتارةً ينذر، وأُخرى ينهى حفظاً لعباده من العقوق وعاقبته السيئة، ألا ترى أنّه أمر بذلک بعد نهيه عن عبادة سواه، وهذا نفسه دليل واضح على ما لهذا الأمر من قيمة راجحة عنده تعالى، هذا والمصلحة فى كلا الأمرين ترجع للعبد لا إلى المعبود سبحانه وتعالى، وهكذا الإحسان للأبوين أو لغيرهم تعود الفائدة الكبرى منه للمحسن، وهذا القرآن وهذه حكمته ناطقة بذلک معبّرة عمّا هنالک، يقول عزّ وجلّ: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها (2).

فإحسان الولد لأبويه وبرُّهما إنّما يرجع إليه سواء كان عاجلاً فى دار الدنيا أم آجلاً فى

1- (1) الكافى: ج 2، ص 348، ح 3.

2- (2) من دروس شيخنا الأستاذ محمد سعيد المنصورى رحمه الله، والآية 7 من سورة الإسراء.

دار الآخرة التی هی الحیاة الأبدیة: إِنَّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِیَ الْحَیَوانُ (1).

لـذا روی عن ابن عباس رضـی الله عنه: أنّه کان فی بنی إسـرائیل رجل صالـح له ابنٌ طفل وکان له عِجلَة، فأتی بها إلی غیضة (مزرعة) وقال: اللَّهُمَ إنّی اسـتودعک هذه العجلة لأبنی حتّی یکبر، ومات الرجل فشـبّت العِجلَة فی الغیضة وصارت عواناً (متوسـطة السن)، وکانت تهرب من کلّ مَن رامها، فلمّا کبر الصبی کان بارّاً بوالـدته، وکان یقسّم اللیلـة ثلاث أثلاث، یصـلی ثلثاً، وینام ثلثاً، ویجلس عند رأس أُمّه ثلثاً، فإذا أصبح انطلق واحتطب علی ظهره، ویأتی السوق فیبیعه بما شاء، ثُمَّ یتصدّق بثلثه، ویأکل ثلثله، ویعطی والدته ثلثاً.

فقالت له أمُّه یوماً: إنّ أباک ورَّثک عِجلةً وذهب بها إلی غیضة کذا واسـتودعها، فانطلق إلیها وادعُ إله إبراهیم وإسـماعیل وإسـحاق أن یردّها علیک، وإنّ من علامتها أنّک إذا نظرت إلیها یُخّیل إلیک أنّ شـعاع الشـمس یخرج من جلدها، وکانت تسـمی المذهبّة لحسـنها وصـفرتها وصـفاء لونها، فأتی الفتی الغیضة فرآها ترعی فصاح بها، وقال: أعزم علیکِ بإله إبراهیم وإسـماعیل وإسـحاق ویعقوب فأقبلت تسـعی حتّی قـامت بین یـدیه، فقبض علی عنقهـا وقادها، فتکلّمت البقرة بإذن الله تعالی، وقالت: أیُّها الفتی البارّ بوالـدته ارکبنی فإنّ ذلک أهون علیک، فقال الفتی: إنّ أُمّی لم تأمرنی بـذلک، ولکن قالت: خـذ بعنقها، قالت البقرة: بإله إسـرائیل بنبیّ إسـرائیل لو رکبتنی ما کنت تقـدر علیَّ أبـداً، فانطلقْ فإنّک لو رکبتنی أمرت الجبل أن یقتلع من أصـله وینطلق معک لفعل؛ لبرّک بوالـدتک. فسار الفتی بها فاسـتقبله عـدو الله إبلیس فی صورة راعٍ، فقـال: أیُّها الفتی إنّی رجل من رعاة البقرة اشـتقت إلی أهلی، فأخـذت ثوراً من ثیرانی فحملت علیه زادی ومتاعی حتّی إذا بلغت شطر الطریق ذهبت لأقضی حاجتی فقد أوسط الجبل وما قدرت علیه، وإنّی

1- (1) العنکبوت: آیة 64.

أخشى على نفسى الهلكة، فإن رأيت أن تحملنى على بقرتک وتنجينى من الموت، وأعطيک أجرها بقرتين مثل بقرتک، فلم يفعل الفتى، وقال: اذهب فتوكّل على الله، ولو علم منک اليقين لبلّغک بلا زاد ولا راحلة، فقال إبليس: إن شئت فبعنيها بحكمک وإن شئت فاحملنى عليها وأعطيک عشرة مثلها، فقال الفتى: إنّ أُمّى لم تأمرنى بذلک، فبينما الفتى كذلک إذا طار طائر بين يدى البقرة فهربت البقرة فى الفلاة وغاب الراعى، فدعا الفتى باسم إله إبراهيم فرجعت البقرة إليه، فقالت: أيها الفتى البارّ بوالدته لا تمرّ إلى الطائر الذى طار؛ فإنه إبليس عدو الله اختلسنى، أما أنّه لو ركبنى لما قدرت عليه أبداً، فلمّا دعوت إله إبراهيم جاء ملک فانتزعنى من يد إبليس وردنى إليک ببرّک بأُمّک وطاعتک لها.

فجاء الفتى إلى أُمّه، فقالت له: إنّک فقير لا مال لک، ويشقّ عليک الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل، فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها، قال لأُمّه: بكم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاى ومشورتى، وكان ثمن البقرة فى ذلک الوقت ثلاثة دنانير، فانطلق الفتى إلى السوق، فعقبه الله سبحانه ملكاً ليرى خلقه وقدرته؛ ليختبر الفتى كيف برّه بوالدته وكان الله به خبيراً، فقال له الملک: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال: بثلاثة دنانير واشترطُ عليک رضاء أُمّى فقال له الملک: ستّة دنانير ولا تستأمر أُمّک. فقال له الفتى: لو أعطيتنى وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضاء أُمّى. فردّها إلى أُمّه وأخبرها بالثمن، فقالت: ارجع فبعها بستة دنانير على رضايتى فانطلق بالبقرة إلى السوق، فأتى الملک، فقال: أستامرت والدتک؟ فقال الفتى: نعم، إنّها أمرتنى أن لا أنقصها عن ستة دنانير على أن أستأمرها، قال له الملک: تأتى أعطيک اثنى عشر على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أُمّه وأخبرها بذلک، فقالت: إن ذلک الرجل الذى يأتيک هو ملک من الملائكة يأتيک فى صورة آدمى؛ ليجرِّبک، فإذا أتاک فقل له: أتأمر أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل ذلک، فقال الملک: اذهب إلى أُمّک وقل لها: امسكى هذه البقرة، فإن موسى يشتريها منک لقتيل يُقتل فى بنى إسرائيل فلا تبيعوها إلا بملء جلدها دنانير، فأمسكوا تلک البقرة، وقد أراد الله تعالى من بنى

إسـرائيل ذبـح البقرة بعينها، مكافأة على برّه بوالـدته فضـلاً منه ورحمـة، فطلبوها فوجـدوها عند الفتى، فاشتروها بملء مسـكها – جلدها – ذهباً(1).

هذا نموذج بسيط زائل فى الحياة الدنيا لمن برَّ بوالدته، وأمّا ما أعدَّ الله له فى الآخرة فلا يعلمه إلاّ هو عزّ وجلّ.

والآية التى افتتحنا بها المحاضـرة جامعة مانعة، قالت: وَ قَضـى رَبُّکَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ أول ما حكمت به وألزمت وفصـلت ووضـعت الحدّ والنهايـة فى أن لا تعبـدوا إلاّ الله تبارک وتعالى، أمر منه عزّ وجلّ بأن لا نعبد إلاّ إيّاه جلّ جلاله، ونخلص العبادة له عزّ وجلّ؛ لأنّها أوجب الواجبات، كما أنَّ معصـيتَه وهو الشرک بالله سبحانه أكبر الكبائر الموبقة، وإلى الشرک تعود جميع المعاصى بحسب التحليل، ولعظم هذا الأمر قـدّمه البارى عزّ وجلّ على جميع الأحكام الخطيرة شأناً، كعقوق الوالدين ومنع حقوقهما، والتبذير، وقتل الأولاد، والزنا، وقتل النفس المحترمـة، إلى غير ذلک. ثُمَّ انتقلت الآيـة – بعـد الأمر بالتوحيـد – إلى حكم آخر يأتى بالمرتبة الثانية من الأهميّة بعد التوحيد لله تبارک وتعالى، وهو وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ، بمعنى وقضى ربُک ألاّ تعبدوا إلاّ إياه، وقضى ربُک بأن تُحسنوا بالوالدين إحساناً، والإحسان يقابل الإساءة كما هو معلوم، وهـذا بعـد التوحيـد لله الـذى هو من أوجب الواجبات، كما أنّ عقوقهما من أكبر الكبائر، كما وردت الإشارة إلى ذلک فى عدّة مواضع من كلامه تبارک وتعالى.

ثُمَّ انتقلت الآيـة إلى أمر آخر، وحقيقـة أُخرى، حيث قالت: إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْـدَکَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (بلوغ الكبر) يعنى بلوغ كبر السن، و (أُفّ) كلمة تفيد الضجر والإنزجار(2) وقد ورد عن

1- (1) بحار الأنوار: ج 13، ص 275. قصص الأنبياء، الجزائرى: ص 326.

2- (2) تفسير الميزان: ج 13، ص 79 – ص 80.

الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه عن جدّه أبى عبد الله عليه السلام، قال:

«لو علم الله كلمة أوجز فى ترك عقوق الوالدين من (أفٍ) لأتى بها» وفى رواية أُخرى، قال:

«أدنى العقوق (أفٍ) ولو عَلِمَ الله شيئاً أيسر وأهون منه لنهى عنه»(1).

وتخصيص حالة الكبر بالذكر؛ لكونها أشقّ الحالات التى تمرّ على الوالدين فيحسّان فيها بالحاجة إلى إعانة الأولاد لهما، وقيامهم بواجبات حياتهما التى يعجزان عن القيام بها، وذلک من آمال الوالدين التى يأملانها من الأولاد حين يقومان بحضانتهم وتربيتهم فى حال الصغر، وفى وقت لا قدرة لهم على شىء من لوازم الحياة وواجباتها. فالآية تدلّ على وجوب إكرامهما ورعاية الأدب التام فى معاشرتهما ومحاورتهما فى جميع الأوقات، وخاصّة فى وقت تشتدّ حاجتهما إلى ذلک، وهو وقت بلوغ الكبر من أحدهما أو كليهما(2).

هذا كلّه فى برّ الوالدين فى حياتهما.

وأمّا بعد وفاتهما وانتقالهما إلى الدار الآخرة فهناک عدّة طرق لبرّهما،

منها: أن يصلى صلاة برّ الوالدين، وهى ركعتان يقرأ فى الركعة الأُولى - بعد سورة الحمد - عشر مرات «رب إغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب»، وفى الركعة الثانية - بعد الحمد أيضاً - عشر مرات: «رب إغفر لى ولوالدى ولمَن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات»، ويقول بعد التسليم والانتهاء من صلاته عشر مرات: «رب ارحمهما كما ربَّيانى صغيراً»(3) ، وأن يتصدّق عنهما وأن يقضى ما فاتهما من صلاة وصيام، وما عليهما من ديون، ويحجّ عنهما ويزور المراقد الشريفة، ويدعو لهما فى صلاة الليل وصلاة الفريضة، فإن فعل ذلک فقد فتح لنفسه أبواب الرحمة والسعادة فى النشأتين وتمّت أعماله

1- (1) تفسير البرهان: ج 3، ص 518، ح 12 وح 13.

2- (2) انظر: تفسير الميزان: ج 13، ص 80.

3- (3) انظر: مكارم الأخلاق: ص 334. بحار الأنوار: ج 88، ص 220 - ص 221.

بحسن العاقبة وذلک منتهی الغایة، ویتعهّد بزیارة قبورهم، یدعو لهم، یرضیهم بأیة حالٍ من الأحوال، وإلاّ إذا انتقل الإنسان من هذه الدنیا إلی الحیاة الأُخرویة، الله یعلم ماذا سیجری علیه هناک؛ ولذا یُروی: أنّه کان رسول الله صلی الله علیه و آله جالساً فی أحد الأیام فی المسجد، وفُجاةً هبط علیه جبرئیل الأمین وقال له: السلام علیک یا رسول الله، انقل أقدامک الشریفة إلی المقبرة، لکی تتبرک القبور بتراب أقدامک، ولکی یشمّ حبیسو هذه القبور الضیقة المظلمة نسیم رحمتک الذی سیهبّ علیهم بقدومک علیهم، فقام رسول الله صلی الله علیه و آله مع طائفة من أصحابه، ویممّوا وجوههم نحو المقبرة، وکان أصحابه یحیطون به عن یمینه وعن شماله، وفی الأثناء وصل أمیر المؤمنین علیه السلام إلی هناک وسأل الرسول صلی الله علیه و آله عن نیتهم فی هذا المسیر، فقال له: نرید أن نذهب إلی مقبرة البقیع، وعندما وصلوا إلی هناک تداعی إلی أسماع الرسول صلی الله علیه و آله صوت شخص یستغیث ویقول: الأمان یا رسول الله، فانتبه سید الرسل إلی هذا الصوت وقال: یا صاحب القبر، أخبرنی عن سبب عذابک؟

فأجابه: یا شفیع المذنبین وقدوة المؤمنین، إنّ سخط والدتی علیّ سبّب لی هذا العذاب؛ لأننی أذیتها فی حیاتی، الأمان الأمان یا رسول الله، فأمر الرسول صلی الله علیه و آله بلالاً أن ینادی فی المدینة علی الناس بأن یجتمعوا فنادی بلال بصوت جهوری: یا أیها الناس، اجتمعوا علی قبور الآباء والأُمّهات والأقرباء بأمر من رسول الله صلی الله علیه و آله، وعندما سمعوا نداء بلال هبّوا مسرعین إلی المقبرة، فغصّت المقبرة بالناس، ومن بین الحضور کانت عجوزٌ محدودبة الظهر تتوکأ علی عصاها، جاءت ووقفت بالقرب من رسول الله صلی الله علیه و آله فسلّمت علیه وقبّلت التراب بین یدیه وقالت: یا رسول الله ما الخبر؟

فقال: أیتّها العجوز هذا ولدک؟

فأجابت: نعم یا رسول الله.

فقال لها صلی الله علیه و آله: إنّ ولدک الآن فی محنة وعذاب، اغفری له وارضی عنه. فقالت العجوز: یا رسول الله، لا أغفر له ولا أرضی عنه أبداً!!

فقال لها: لماذا؟

قالت: لقد غذيته من لبنى، وعاش فى كنفى، وتحمّلتُ من أجله الصعاب، فلمّا كبر واشّتد عوده فبدلاً من أن يحسن لى أخذ يتلذذ بأذيتى وعذابى.

فقال لها رسول الله صلى الله عليه و آله اعطفى عليه وارحميه لينجو من عذابه، ورفع رسول الله صلى الله عليه و آله يديه بالدعاء وقال: إلهى بحق الخمسة من آل الكساء أسمع هذه الأُمّ صوت استغاثة ولدها؛ كى يرقَّ قلبها عليه وتعطف عليه وتغفر له، عندها أمر العجوز بأن تضع أذنها على قبر ولدها وتسمع صوت ولدها يئن بألم وحسرة، فلم تتمالك عن البكاء وقالت: يا سيد المرسلين وشفيع المذنبين، إنّه يستغيث، ويقول: فوقى نار وتحتى نار وعن يمينى نار وعن شمالى نار وبين يدىّ نار، الأمان الأمان الأمان!!!

عندها رقّ قلبُ العجوز بسبب سماعها استغاثة ولدها وقالت: إلهى لقد عفوت عن تقصير ولدى، فألبَسه الله سبحانه وتعالى لباس رحمته وعفا عنه فوراً، فنادى الولد: أيتّها الوالدة عفا الله عنک كما عفوت عنى(1).

هكذا كان أثر دعاء الوالدة لولدها، ولذا ترى أنّ الإمام الحسين عليه السلام يوصى أُمَّ على الأكبر بقوله: ليلى ادعى لولدک، إنّى سمعت جدّى رسول الله صلى الله عليه و آله يقول:

«دعاء الأُمّ مستجاب بحقّ ولدها»، وبالفعل دخلت ليلى إلى الفسطاط، نشرت شعرها، رفعت يديها إلى السماء قائلةً: إلهى بغربة أبى عبد الله، إلهى بعطش أبى عبد الله، يا رادّ يوسف إلى يعقوب، أردد إلىَّ ولدى على. ما هى إلاّ لحظات وإذا بعلىّ الأكبر يرجع سالماً، واستجاب الله دعاء ليلى بحقّ ولدها، ولكنّ المصيبة الكبرى عندما وقع القضاء، وشاء الله أن تراه على رمضاء كربلاء مقطع إرباً إرباً(2).

1- (1) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص 123 - ص 124.

2- (2) انظر: مجمع مصائب أهل البيت عليهم السلام: ج 1، ص 393 - ص 394.

وكأنّى بأمّه ليلى تخاطبه:

ردتک ذخر لیام شیبی یوسفه إنگطع مِنک نصیبی

(مجارید)

فجیدة یا علی یبنی فجیدة بعیدة شوفتک صارت بعیدة

المد ایده علیک انشلّت ایده اوشرابه لا هنه ولا طاب له الزاد

***

یا علی یبنی النوب ذلیت والموت یاخذنی تمنیت

عمود الوسط یا شایل البیت یبنی بعد عندی اشخلّیت

(أبوذیة)

ردتک ما ردت دنیه ولا مال تحضرنی لو وگع حملی ولا مال

یالکبر خابت إظنونی والأمال عند الضیج یبنی إگطعت بی

***

رجوتُک یا علی تعیش بعدی وتوسد جثتی رَمسَ اللحُود

***

إنّا لله وإنّا إلیه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلیّ العظیم،

وسیعلم الذین ظلموا آل مُحَمّد أیَّ مُنقلبٍ ینقلبون

والعاقبة للمتقین.

ص:199

المحاضرة السادسة عشرة: صِلَة الرَحِم

اشارة

ص:201

البدارَ البدارَ آل نِزار قد فُنيتُم ما بينَ بيضِ الشَّفارِ

سوِّموا الخيلَ واطلقوها عِراباً واتركوها تشق بيد القفارِ

وابعثوها ضُوابحاً فأُمَيٌّ وسمت أنفَ مجدِكم بالصّغارِ

لا تلد هاشميةٌ علوياً إن تركتم أُميَّةً بقرارِ

أنزارُ نضُّوا برود التهانى فحسينٌ على البسيطة عارى

لا تمدُّوا لكم عن الشّمس ظِلاً إنَّ فى الشمس مهجةَ المختارِ

لا تذوقوا المعينَ واقضوا ظَمايا بعدَ ظامٍ قضى بحدِّ الغِرارِ

حقَّ أن لا تكفّنوا هاشمياً بعدما كفّنَ الحُسينَ الذارى

لا تشقّوا لآلِ فهرٍ قبوراً فابنُ طه مُلقىً بلا إقبار

طأطِئوا الرُّؤوسَ إنَّ رأسَ حُسينٍ رفعوه فوق القنا الخطّارِ(1)

***

فعندما رأت العقيلة زينب عليها السلام رؤوسَ إخوتِها وأولادِها وأولادِ عمومتِها على القنا، تذكّرت عزّها وتوجّهت نحوكافلها أبى الفضل العباس.

(بحرانى)

صاحت دخيلک يالمگطع بالشريعة جاها النده ردى ترى اچفوفى گطيعه

للخيم ردى لليتامى يالوديعة تدرين بيه امگطعه ايمينى واليسار

1- (1) القصيدة للشيخ عبد الحسين شكر رحمه الله، وقد تقدَّمت ترجمته فى المحاضرة الثانية.

امطبّر ومن جوفی انزفت کلّ های الدموم روحی العلی الأکبر یزینب بلچن یگوم

أیّست منه اوبالیتامی ردّت تحوم اتنخی اومن کثر النواخی گلبها طار

***

صاحت صوت یاعباس وینک گوم اوجرّد الماضی بیمینک

وخلها تصد واتشوف عینک آیا حمانا الفاگدینک

***

قال تعالی: وَ اتَّقُوا اللّهَ الَّذِی تَسائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنَّ اللّهَ کانَ عَلَیْکُمْ رَقِیباً (1).

لقد دعا الإسلام إلی الأُلفة والمحبّة بین جمیع الناس، وأوصاهم أن یتعارفوا ویتآلفوا، وأکّد علی ذلک، وشدّد علیه فی حقّ القرابة المعبّر عنها بالرحم، التی أوصی الله بصلتها، ونهی عن قطیعتها، وحذّر الأرحام من التدابر والتقاطع.

ولیس معنی ذلک أن تصبح القرابة صنماً یتحکّم بعواطف الناس وعقائدها، وتتحوّل الأرحام إلی آلهة تجرف فی طریقها کلّ عدلٍ وحقٍّ، ویتحوّل علی أساسها الباطل إلی حقّ والحقّ إلی باطل... بل معناها أن یکون بین الأرحام تواصلٌ وتعاطف وتوادّ فی الله ومن أجل الله، فتتحول هذهِ الصلة إلی طُهر ونزاهة، یجتمع فیها الأرحام علی طاعةِ الله وتقواه، ولا یفصمها ولا یزلزلها حادث عابر، أو قضیة تافهة، ومن هُنا کان للأرحام حقوق أشدّ وأقوی من حقوق سائر المسلمین، یحسن بنا أن نمرّ علیها ونتدبرها(2).

1- (1) النساء: آیة 1.

2- (2) الأخلاق والآداب الإسلامیة: ص 847.

فقد ابتدأت الآية المباركة بالأمر بالتقوى، قائلةً: (واتقوا الله)، وذلک لأهميّة التقوى ودورها فی بناء قاعدة المجتمع الصالح، الأمر الذی اقتضی أن تذکر مجدّداً فی نهاية الآية محل البحث، وأن يدعو سبحانه الناس إلی التزام التقوى، غاية الأمر أنّه تعالی أضاف إليها جملة أُخری؛ إذ قال: وَ اتَّقُوا اللّهَ الَّذِی تَسائَلُونَ بِهِ .

بمعنی: اتقوا الله العظيم، الذی تذکرون اسمه عندما تطلبون حقوقکم وحوائجکم فيما بينکم.

إنَّ ذکر هذا الموضوع هنا يدلّ أوّلاً علی الأهميّة الفائقة التی يُعطيها القُرآن الکريم لمسألة الرحم ووشيجة القربی إلی درجة أنّه يذکر اسم الأرحام بعد ذکر اسم الله سبحانه، وفيه إشارة – ثانياً – إلی الأمر الذی ذُکر فی مطلع الآية، وهو قوله تعالی: يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمُ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالاً کَثِيراً وَ نِساءً ، وهو أنّکم جميعاً من أبٍ واحدٍ وأُمٍّ واحدة، وهذا يعنی: أنَّ جميع أبناء آدم أقرباء وأرحام، وهذا الارتباط والترابط يستوجبُ أن يتحابّ الجميع، ويتوادّوا دون تفريق أوتمييزٍ بين فردٍ وآخر، وقبيلة وأُخری، تماماً کما يتحابّ أفراد القبيلة الواحدة(1).

مَن هم الأرحام ؟

الأرحام مفهومٌ يُعيّنه العرف(2) ، والقدر المتيقّن منه الآباء والأبناء والإخوة والأعمام والأخوال وأولادهم المُباشرون، وهؤلاء أمرنا اللهُ بصلتهم وفرضَ علينا التعاون معهم

1- (1) انظر: تفسير الأمثل: ج 3، ص 81 – ص 82.

2- (2) قال الشهيد الثانی رحمه الله فی مسالک الإفهام (ج 6، ص 232): «لا إشکال فی صحّة الوصية للقرابة؛ لما فيه من الجمع بين الصدقة وصلة الرحم، ولکن اختلف الأصحاب فی أنّ القرابة مَن هم؟ لعدم النصّ الوارد فی تحقيقه. والأکثر علی ما اختاره المصنّف من رده إلی العرف؛ لأنّه المحکم فی مثل ذلک حيث لا معين له من الشارع، وهو دال علی أنّ المراد به المعروفون بنسبه عادة، سواء فی ذلک الوارث وغيره».

ونحفظهم ونرعاهم.

رُوى عن الإمام الصّادق عليه السلام، أنّه قال:

«أوّل ناطقٍ من الجوارح يوم القيامـة الرحم، تقول: يا ربّ مَن وصـلنى فى الـدُنيا فصل اليوم ما بينک وبينه ومَن قطعنى فى الـدنيا فأقطع اليوم مابينک وبينه»(1).

آثار قطيعة الرحم:

وإنَّ من الـذنوب الكبيرة والجرائم العظيمـة أن يقطع الإنسان رحمه وينصب له العداء، ويقف فى وجهه شاهراً لسانه مُعلناً غضـبه، إنَّ قطيعة الرحم من الكبائر، وهى لا تجوز بأى شكل من الأشكال فى قاموس المسلمين.

وقد يترتّب على قطع الرحم آثار سيِّئة وعُقوبات جسيمة، وعذاب من الله شديد، وإليک بعض آثار قطيعة الرحم:

1 – إنَّها تدخل النار، وتُغضب العزيز الجبّار؛ فإنَّ الله توعّد عليها بعذاب أليمٍ لمَن قطع رحمه.

فعن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أخبرنى جبرائيل أنَّ ريحَ الجنّة توجد من مسيرة ألف عام مايجدها عاقّ، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان»(2).

2 – من آثارها أن تتحوّل الأموال إلى أيدى الأشرار.

فعن الإمام الباقر عليه السلام:

«إذا قُطعت الأرحام جُعلت الأموال فى أيدى الأشرار»(3).

3 – قطيعة الرحم من الذنوب التى تُعجّل الفناء، ففى خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يقول:

«أعوذ بالله من الذنوب التى تُعجّل الفناء... فقام إليه عبد الله بن الكواء اليشكرى، فقال :

1– (1) الكافى: ج 2، ص 151، ح 8.

2– (2) الكافى: ج 2، ص 349، ح 6.

3– (3) المصدر نفسه: ج 2، ص 348، ح 6.

يا أمير المؤمنين، أوَ يكون ذنوب تُعجّل الفناء؟ فقال: نعم – ويلک – قطيعة الرحم»(1).

وعن الإمام الصّادق عليه السلام:

«الذنوب التى تُعجّل الفناء قطيعة الرحم»(2).

4 – قطيعة الرحم سببٌ لحلول النقم، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«حلول النقم فى قطيعة الرحم»(3).

5 – قاطع الرحم لا تنزل عليه الرحمة ولا على الذين معه، كما ورد مرويّاً عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إنَّ الرحمة لا تنزل على قومٍ فيهم قاطع رحم»(4).

6 – قاطع الرحم لا تنزل عليه الملائكة ولا على القوم الذى هو فيهم، كما ورد بنفس المضمون المتقدّم:

«إنّ الملائكة لا تنزل على قومٍ فيهم قاطع رحمٍ»(5).

7 – تعجيل العقوبة الدنيوية، فعن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«ما من ذنبٍ أجدر من أن يعجّل الله تعالى لصاحبه العقوبة فى الدُنيا مع ما يدّخر له فى الآخرة من قطيعة الرحم والخيانة والكذب»(6).

هـذا كلّه فى آثار قطيعـة الرحم، وفى المقابل هناک آثار إيجابيـة كثيرة وعظيمـة لصـلة الرَحِم، جـدير بكُلّ إنسانٍ عاقل أن يتـدبّرها، ويكتبها ويبحث عنها، ويوفرّها لنفسه، خصوصاً وأنَّها فى متناول يده، وتحت سُلطانه، ممّا يجعل حججه ومعاذيره غير مقبولةٍ على الإطلاق.

1– (1) المصدر نفسه: ج 2، ص 347 – ص 348، ح 7.

2– (2) علل الشرائع: ج 2، ص 584، ح 27.

3– (3) عيون الحكم والمواعظ: ص 234.

4– (4) مستدرک الوسائل: ج 9، ص 107، ح 2.

5– (5) مجمع الزوائد: ج 8، ص 151.

6– (6) المصدر نفسه: ج 8، ص 151 – ص 152.

آثار صلة الرحم

من أبرز هذه الآثار:

1 – طاعة الله عزّ وجلَّ امتثالاً لأمره، وهذا المعنى هو غاية مطمح أنظار المؤمنين؛ فإنَّهم يبحثون عن رضاه باستمرار، ويعتبر ذلک من أهمّ عوامل إدخال السرور عليهم، والراحة لنفوسهم.

2 – صلة الرحم تزيد فی العُمر، فعن أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً أحد أصحابه واسمه نوف:

«يا نوف، صِلْ رحمک يزيدُ الله عُمُرَک»(1).

وعن الإمام الصّادق عليه السلام:

«إنَّ الرجُل ليصل رحمه، وقد بقی من عُمُره ثلاث سنين فيصيّرها الله عزَّوجلَّ ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقی من عُمُره ثلاثون سنة فيصيّرها الله ثلاث سنين. ثُمَّ تلا : يَمْحُوا اللّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ »(2).

3 – صلة الرحم تهوّن سكراتِ الموت، وكذا شدائده، وتقی من ميتة السوء؛ فعن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال:

«مَن أحبَّ أن يُخَفَّف اللهُ عزَّ وجلَّ عنه سكرات الموت، فليكن لقرابته وصولاً، وبوالديه بارّاً، فإذا كان كذلک، هوّن الله عليه سكرات الموت، ولم يُصبه فی حياته فقرٌ أبداً»(3).

وعن إمامنا الهادی عليه السلام:

«فيما كلّم الله تعالی به موسی عليه السلام: قال موسی: فما جزاءُ مَن وصل رحمه؟ قال: ياموسی، انسیءُ له أجله، وأُهوّن عليه سكرات الموت»(4).

وعن النبیّ الأكرم صلی الله عليه و آله

: «صلة الرحم تُهَوِّن الحساب، وتقی ميتة السُوء»(5).

1- (1) أمالی الصدوق: ص 278، ح 9.

2- (2) بحار الأنوار: ج 47، ص 163، ح 1. والآية 39 من سورة الرعد.

3- (3) أمالی الصدوق: ص 432، ح 24.

4- (4) المصدر نفسه: ص 276، ح 1.

5- (5) أمالی الطوسی: ص 481، ح 18.

4 – صلة الرحم تنفى الفقر، وتجلب الخير، كما روى عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله:

«صلة الرحم تزيد فى العمر وتنفى الفقر»(1).

5 – صلة الرحم تزيد فى الرزق، فعن الإمام الحُسين عليه السلام أنّه قال:

«مَن سرّه أن يبسط الله له فى رزقه ويُنسأ له فى أجله، فليصل رحمه»(2).

وغيرها من الآثار المخفيّة على الكثير من الناس.

أقل ما يتحقق به صلة الرحم

لو أعوز الإنسان المال، ولم يسعفه ذات يده أن يبسطها إلى أرحامه، ويمدهم بما أعطاه الله من فضله، فلا يبخل عليهم بما تقدر عليه من زيارةٍ لهم، أو التردد عليهم، ولا أقل من السلام عليهم؛ فإنَّ صلتهم بهذا المقدار القليل يُطيّبُ قلوبهم، ويرقّق مشاعرهم، ويزرع الحبَّ والثقة فى نفوسهم، وهذا المقدار ينمو ويربو ويُعطى أفضل الثمار.

فعن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«صِلوا أرحامكم ولو بسلام»(3).

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«صلوا أرحامكم ولو بالتسليم، إنَّ الله يقول : وَ اتَّقُوا اللّهَ الَّذِى تَسائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنَّ اللّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً»4.

أفضل صور صلة الرحم

وأفضل صلة الرحم وأعظمها فيما لو كان أحد الأرحامِ قاطعاً لها؛ فإنَّ صلتها لوجه الله حينئذٍ ستكون خالصةً لوجه الله، صافيةً من جميع شوائب الرياء والتعصب.

فإنَّ فى حالة الرضا والوفاق تتدخّل المصالح والمنافع والقرابة، ولكن إذا كان رحمك

1- (1) قرب الإسناد: ص 76، ح 244.

2- (2) الخصال: ص 32، ح 112.

3- (3) تحف العقول: ص 57.

قاطعاً لک تستطیع أن تصله، وبعملک هذا تخرجُه عن عدائه؛ لتضمّه إلی جانبک فی حُبٍّ ورضی... بل الإسلام یفرضُ علیک عدم مقاطعة أرحامک، وإن کادوک ونصبوا لک العداوة، وحاولوا الإضرار بک.

فعن أبی عبد الله الصّادق علیه السلام:

«إنّ رجُلاً أتی النبیّ صلی الله علیه و آله فقال: یا رسولَ الله، إنَّ أهل بیتی أبوا إلاّ توثُّباً علیَّ وقطیعةً لی، فأرفضهم؟

فقال: إذاً یرفضکم الله جمیعاً.

قال: فکیف أصنع؟

قال: تصل مَن قطعک، وتعطی مَن حرمک، وتعفو عمّن ظلمک، فإنّک إذا فعلت ذلک کان لک من الله عزَّ وجل ظهیر»(1).

ومن هُنا کان الرحم الکاشح وهو المعادی، هوالمصداق الأفضل للصدقة وللوصل؛ لعله یرّق قلبِه؛ ولذا تری سید الشهداء علیه السلام یأمر أخاه أبا الفضل العباس علیه السلام أن یجیبَ الشمر وهو عدو الله، قال له: أخی یا أبا الفضل، أجبه وإن کان فاسقاً. ولکنّ الشمر صاح بأعلی صوته - بعد ما وعظهم أبو الفضل العبّاس علیه السلام - یا بن أبی تراب لو کان وجه الأرض کلّه ماءً، وهو تحت أیدینا لما أسقیناکم منه قطرة! فرجع العباس إلی أخیه یخبره بجواب القوم، فسمع الأطفال یتصارخون ویُنادون: العطش العطش.

أوَ تشتکی العطش الفواطم عنده وبصدر صعدته الفُراتُ المُفعمُ

فرکب جواده ومعه اللواء، وأخذ القربة، وقصد الفُرات، فأحاط به أربعة الآف، ممَّن کانوا موکّلین بالفُرات، ورموه بالنبال، فکشفهم وقتل منهم جماعة.

وثنی أبو الفضل الفوارس نکّصاً فرأوا أشدَّ ثباتهم أن یُهزموا

ما کرّ ذو بأسٍ له متقدّماً إلاّ وفرَّ ورأسُهُ المتقّدِمُ

1- (1) الکافی: ج 2، ص 150، ح 2.

حتّى وصل إلى المشـرعة، ركز لواءه ونزل إلى الماء، فلمّا أحسَّ ببرد الماء وقد كظّه العطش، اغترف غُرفةً ليشرب، لكنه تذكّر عطش الحسين عليه السلام، فرمى الماء من يده، وقال: لا والله، لا أشربُ وأخى الحُسين عطشان، ثُمَّ جعل يقول:

يا نفسُ من بعدِ الحُسين هونى وبَعَده لا كنتِ أن تكونى

هذا حسينٌ واردُ المنونِ وتشربين بارد المَعين

***

غرف غرفه إبيمينه اوراد يشرب وگلبه إمن العطش نيران يلهب

ذكر چبدة عضيده والدمع صب ذبه أاوعلىّ گال المای يحرم

اشلون أشرب وَرد ريّان عنک وخوى احسين ورده إنمنع منک

ينهر العلگمی عگبه عسّنک وردک لاهنه ويصير علگم

اشلون أشرب وخوى احسين عطشان وسكنه والحرم وأطفال رضعان

وظن گلب العليل التهب نيران يريت المای بعده لا حله اومر

فهذا موقف أبى الفضل العباس عليه السـلام لأخيه أبى عبد الله الحُسـين عليه السـلام، وأمّا موقف أبى عبد الله عندما رآه على نهر العلقمى نادى: «الآن إنكسر ظهرى».

(فايزى)

ظهرى انكسر يا خويه وانته اللى كسرته مانى أخوک اشلون أخوک اليوم عفته

انته التجيب المای وانته الكافل انته اتخلى العقيلة بلا ولى بين آل أمية

اشلون أردّن للخيم والخيم ظلمة عبّاس خويه نومتک علگاع هظمه

مابين طفل اليرتجيک وبين حرمة کلسا تگول اسا يجيب المای ليّه(1)

***

عباسُ تسمعُ زينباً تدعوک مَن لی ياحمای إذا العدی نهرونی

***

إنّا لله و إنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلیّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أیَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:212

1- (1) مجمع مصائب أهل البيت عليهم السلام: ج 1، ص 137 - ص 142.

المحاضرة السابعة عشرة: وجوب تنصيب الإمام

اشارة

ص:213

عِشْ فی زمانِکَ ما استطعتَ نَبیلاً واترُک حدیثَک للرواةِ جَمیلا

ولعزِّک استرخصْ حیاتک إنَّه أغلی وإلا ّغادرتْکَ ذلیلا

تعطی الحیاةُ قیادَها لک کلمّا صیَّرتها للمَکرُماتِ ذَلولا

العزُّ مقیاسُ الحیاةِ وضلَّ مَن قدْ عدَّ مقیاسَ الحیاةِ الطولا

قل کیف عاش ولا تقلْ کم عاشَ مَنْ جَعَل الحیاةَ إلی عُلاه سَبیلا

لاغرو إنْ طوتِ المنیّةُ ماجداً کَثُرتْ محاسنه وعاش قلیلا

ما کان للأحرارِ إلا ّقدوةً بطلٌ توسَّد فی الطفوف قتیلا

بعثته أسفارُ الحقائق آیةً لا تقبلُ التفسیرَ والتأویلا

یدوی صداها فی المسامع زاجراً مَن عَلَّ ضیماً واستکان خُمولا

لا زال یقرؤها الزمان مُعَظِّماً فی شأنها ویزیدها ترتیلا(1)

***

1- (1) القصیدة للشاعر الحاج عبد الحسین الأزری رحمه الله، قال عنه السید جواد شبّر رحمه الله فی کتابه القیّم أدب الطّف (ج 10، ص 79): «الحاج عبد الحسین الأزری من شعراء العراق اللامعین، حرّ التفکیر والعقیدة ومن أوائل دعاة التحریر، وقد أصدر فی العهد العثمانی جریدة ببغداد، کانت من أوائل الجرائد إن لم تکن أول جریدة طالبت بحقوق العرب وحریتهم، وقد نفاه الأتراک وحبس فی الأنضول... ولد الحاج عبد الحسین فی بغداد سنة 1298 ه -، وترعرع فی زمن کثرت فیه الانتفاضات علی النظم السیاسیة وعلی العادات والتقالید البالیة، من أجل ذاک نشأ وهو ثورة أدبیة اجتماعیة... وکان الشاعر یتقن الإفرنسیة، فکان محلقاً فی خیاله ومبدعاً فی أُسلوبه القصصی. من آثاره: (بطل الحلّة) روایة عصریة، (البوران) روایة عصریة، (قصر التاج)، (دیوان شعر). توفی رحمه الله فی بغداد یوم الأحد 21 ربیع الثانی 1374 ه -، ونقل جثمانه إلی النجف الأشرف بتشییع مهیب، فدفن فی وادی السلام، ونعته الصحف العراقیة والعربیة، ورثاه عارفوه وأبّنوه».

سیدی:

فلیت أکُفّاً حاربتکَ تقطّعتْ وأرجُلَ بغیٍ جاوبتک جُذامُ

إنّها الأکُفُ الأثیمة، والأرجلُ التی سعت إلی أعظم جریمة، أبکت عین رسول الله وأمیر المؤمنین علیهما السلام، وترکت أُمَّک الزهراء علیها السلام تقیم مأتمها إلی جنب جسدک الطاهر لیلة الحادی عشر، وهی تلثم نحرک وتطالِبُک بحقوق الأُمومة.

تگلک یا عزیز الروح یا سبّاح گلبی ویاظیا بالعین أُمَّک لاح

یبنی ما تگلی وین راسک راح آیحسین یومک بیش أوصفنَّه

***

مانی أُمّک وجیت أطلب إبحگ إربای یمای العین یلّی ما شربت المای

أنَه الکسروا ضلعها گوم واحچی اویای ولهانه إعلی صوتک وارد أسمعنه

إشکثر یبنی اتعبت برباک أنه اولولیت یاشمعة إعیونی اویاعمود البیت

یبنی امن المدینة الکربله اتعنیت دسولفلی علیک إشصار یمچّنه

اگعد شوف جدک گاعد اگبالک ینادی احسین یبنی اشصایر ابحالک

یبنی من گطع یمناک وشمالک اوصدرک لیش یبنی الخیل رضنّه

یُمّه إبیاذنب چتلتک هالعدوان یبنی اولیش جسمک عالترب عریان

یم شاطی الفرات اوتنذبح عطشان أرید أعرف اعلیمن تنحرم منه

یبنی وهای جیتی انشوفک إبیاحال اویاهو اللی یباری البگه امن الأطفال

اوحمل زینب دگلی اعلی الجمل لومال یاهو اللی یعدله اولیه یتدنه

***

عن الإمـام أمير المؤمنين عليه السـلام أنّه قال: «اللّهُمّ بلى، لا تخلو الأرضُ من قائمٍ لله بِحُجّـةٍ، إمّا ظاهراً مشـهوراً وإمّا خائفاً مغموراً، لئلا تبطلَ حججُ اللهِ وبيّناتُه»(1).

هذا المقطع من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام سيد البلغاء والمتكلّمين الذى كلامه أمير الكلام؛ بل كلّ شىء فيه أميرٌ، وهو الذى فقأ عيون البلاغة، وأيتم جواهر الحكمة، كما عبّر الشـعبى، حيث قال: «تكلّم أمير المؤمنين عليه السـلام بتسع كلمات أرتجلهن ارتجالاً، فقأن عيون البلاغـة، وأيتمن جواهر الحكمـة، وقطعن جميع الأنام عن اللحاق بواحدة منهن، ثلاث منها فى المناجاة، وثلاث منها فى الحكمة، وثلاث منهـا فى الأـدب، فأمّـا اللاـتى فى المناجـاة فقـال: إلهى كفى لى عزّاً أن أكون لـک عبـداً، وكفى بى فخراً أن تكون لى ربـاً، أنت كما أحب فـاجعلنى كمـا تحب. وأمّا اللاتى فى الحكمـة فقال: قيمـة كلّ امرئ ما يحسـنه، وما هلک امرء عرف قـدره، والمرء مخبو تحت لسانه. وأمّا اللاتى فى الأدب فقال: أمنن على مَن شئت تكن أميره، واحتج إلى مَن شئت تكن أسيره، واستغنِ عمّن شئت تكن نظيره»(2).

وهـذا المقطع من كلامه الشـريف كان من ضـمن الحِكَم التى وجّهها لكميل بن زياد النخعى، وهى من الحكم الجامعة لمحاسن الكلام، وقد خرج بكميل نحو الجبّانة، أى: المقبرة، ثُمَّ أصـحر به، أى: أخذه نحو الصـحراء، فلمّا وصـلا تنفّس الصُّعَداء، ثُمَّ قال: «يا كميل، إنَّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عنى ما أقول لک».

وبـدأ يتـدرّج معه فى الحـديث، إلى أن وصـل به المقـام إلى بيـان ضـرورة وجود الإمام، فى قوله: «اللَّهُمَ بلى، لا تخلو الأرضُ من قائمٍ لله بحُجّةٍ، إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً، لئلا تبطلَ حججُ اللهِ وبيّناتُه».

قال ابن أبى الحديد فى شرح النهج: «كيلا يخلو الزمان ممَّن هو مهيمن لله تعالى

1- (1) نهج البلاغة: قسم الحكم، الرقم: 147

2- (2) الخصال: ص 420، ح 14، عنه بحار الأنوار: ج 74، ص 400، ح 23.

ومسيطر عليهم؛ وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإمامية، إلاّ أنّ أصحابنا يحملونه على أنّ المراد به الأبدال الّذين وردت الأخبار النبوية عنهم؛ أنّهم فى الأرض سائحون»(1) ، وهذا صرف لكلام أمير المؤمنين عليه السلام عن ظاهره بلا قرينة حالية، أو مقالية، فلا يُعتنى به، ولا يُلتفت إليه.

فكلّ إنسان عاقل يفهم من كلام الأمير عليه السلام حاجة الأُمَّة إلى الإمام؛ إذ التعليل الذى ذكره الإمام عليه السلام لا يناسب إلاّ ذلک.

وذلک عند قوله «لئلا تبطل حجج الله وبيناته»، فهو يناسب أن يكون هناک مَن يكون قوله حجّة لله تعالى، وليس هناک مَن يكون قوله حجّة على الناس إلاّ حجج الله، ومَن جعلوه هم، فمن هنا اتَّضح أنَّ المقصود هو الإمام عليه السلام.

أضف إلى ذلک ما ورد فى نصوص عديدة عن الأئمة عليهم السلام بأنّهم حجّة الله على العباد، كما ورد فى كتاب الكافى الشريف روايات وروايات بهذا الخصوص فى كتاب الحجّة منه والذى يأتى بعد كتاب التوحيد مباشرةً.

ومن هذهِ الروايات ما روى عن أبى عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الحجَّة لا تقوم لله عزَّ وجلَّ على خلقه إلاّ بإمام حتّى يُعرف»(2).

الإمامة عند الشيعة:

إنّ الإمامة عند الشيعة تختلف فى حقيقتها وجوهرها عمّا لدى أهل السُّنّة، فهى عندنا إمرة إلهية، وإستمرار لوظائف النبىّ والنبوة، سوى تحمّل الوحى الإلهى، ومقتضى هذا اتّصاف الإمام بالشروط المشترطة فى النبى، وعلى هذا سوف يَنحصر طريق ثبوت الإمامة بتنصيص من الله، وتنصيبٍ من النبىِّ الأكرم صلى الله عليه و آله، أو الإمام السابق.

1- (1) شرح نهج البلاغة: ج 18، ص 163.

2- (2) الكافى: ج 1، ص 177، كتاب الحجّة، ح 2.

أمّا عند غير الشيعة فهى لا تخضع إلى ميزان، بل ليس لها ميزان، فتارةً يعتمدون على تعيين السابق للاّحق، وأُخرى على الشورى، وثالثة على السيف، إلى غير ذلک. وهى ليست عندهم من الأُصول الاعتقادية، أمّا عندنا فهى أصل من الأُصول الاعتقادية.

الأدلّة على هذا الأصل

الدليل الأول: الآيات والروايات

إنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله لم تكن مهمّته مقتصرة على تلقّى الوحى الإلهى وتبليغه إلى الناس، بل كان يقوم بعدّة أُمور:

منها: تفسيره للكتاب العزيز، وشرح مقاصده، وكشف أسراره، وهذا ما يبيّنه قوله سبحانه وتعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْکَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (1).

ومنها: بيان أحكام الموضوعات التى تحدث فى زمن دعوته صلى الله عليه و آله.

ومنها: دفع الشبهات، والجواب عن التساؤلات العويصة المريبة التى كان يثيرها أعداء الإسلام من يهود ونصارى.

ومنها: أنّه صلى الله عليه و آله كان يصون الدين من التحريف والدسّ، ويراقبُ ما أخذه عنه المسلمون من أُصولٍ وفروعٍ، حتّى لا تزلَّ فيه أقدامهم.

هذه جملة من الأُمور التى مارسها النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أيام حياته الشريفة، ومن المعلوم أنَّ رحلته ستخلّف فراغاً هائلاً فى الوظائف المتقدّمة.

فلا بُدّ من وجود مَن يسدّ هذا الفراغ الهائل؛ لأنّ الأُمَّة تحتاج إلى مَن يراقبها، ويوضّح لها، ويأخذ بها إلى الطريق المستقيم فى كُلِّ زمانٍ وفى كُلّ مكانٍ.

وإلاّ كيف يترک الله تبارک وتعالى هذهِ الأُمَّة بلا شخصٍ يرشدها، ويفسِّر لها، ويرد

1- (1) النحل: آية 44.

الشبهات التی تعرِض لها، أو التساؤلات التی تتلقّاها.

خصوصاً إذا علمنا أنَّ الأُمَّة لم تصل إلی مقام العصمة فی زمن النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله حتّی تعرف مصلحتها أو ما تحتاج إلیه، فکیف بها بعده صلی الله علیه و آله؟!

وعلیه فلا یمکن أن یکون هذا الفراغ الهائل دون أن یوجد مَن یشغله، فلا بُدّ - إذن - من وجود مَن یستودعه النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله کُلّ ماتلقّاه من المعارف والأحکام، وأن تکون هذهِ الشخصیة شخصیة مثالیة، لها کفاءة وقدرة علی تقبُّلِ هذهِ المعارف والأحکام وتحمُّلِها.

الدلیل الثانی: الأُمّة الإسلامیة ومثلث الخطر المحدق بها

إنّ الدولة الإسلامیة التی أسّسها النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله کانت محاصرةً حال وفاته صلی الله علیه و آله من جهتی الشمال والشرق بأکبر إمبراطورتین عرفهما تاریخ تلک الفترة، وکانتا علی جانبٍ کبیر من القوّة والبأس، وهُما: الروم والفرس، الروم من الشمال، والفرس من الشرق.

ویکفی فی بیان خطورة إمبراطوریة الفرس، ما کتبه ملکها إلی عامله بالیمن - وذلک بعد أن وصلت إلیه رسالة النبیّ صلی الله علیه و آله تدعوه إلی الإسلام وقام بتمزیقها -: «ابعث إلی هذا الرجل بالحجاز، رجلین من عندک جَلْدَینِ فلیأتیانی به»(1).

هذه هی الأخطار الخارجیة التی تواجهها الأُمَّة الإسلامیة، وأمّا من الداخل، فقد کان الإسلام والمسلمون یعانون من وطأة مؤامرات المنافقین الذین کانوا یشکّلون جبهة عُدوانیة داخلیة، حتّی أنّ الباری عزَّ وجلَّ أنزل فیهم سورة خاصّة.

إذن، عدوّان خارجیان، وعدوٌّ داخلی، فالمثلّث تامٌّ، ومن المحتمل جداً أن یتّحد هذا المثلث، لیزلزل مابناه النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله، فما هی الوظیفة مع وجود هذا الخطر العظیم؟

1- (1) تاریخ الطبری: ج 2، ص 296.

هل الوظيفة هى تنصيب قائدٍ عارف حكيم له القدرة على قيادة الأُمَّة ووظائفها حتّى يجتمع المسلمون تحت رايته، ويكونوا صّفاً واحداً فى مُقابل ذاک الخطر؟

أو أنَّ الوظيفةَ والمصلحة العامّة تقتضى تفويض الأمر إلى الأُمَّة حتّى يختاروا لأنفسهم أميراً، مع ما يحكيه لنا التاريخ من سيطرة الروح القبلية عليهم؟(1)

والجواب هو: إنَّ القائد العارف البصير هو مَن يعتنى بالأوضاع الاجتماعية لأُمَّته، ويلاحظ الظروف المحيطة بها، ويرسم على ضوئها مايراه صالحاً لمستقبلها، وعليه فلا بدّ من تعيين القائد والمدّبر، لا دفع الأمر إلى الأُمَّة، ومتى عرفت الأُمَّة مصلحتها؟!

الدليل الثالث: نصب الإمام لُطفٌ إلهى

والدليل الثالث والمهم فى المقام هو ما سلكه السيد المرتضى رحمه الله فى الاستدلال حيث قال: إنَّ نصب الإمام لطف من الله على العباد، واللُّطف واجبٌ على الله تعالى لما تقتضيه حكمته؛ وذلک لأنَّ اللُّطف مايُقرِّب إلى الطاعة ويُبعّد عن المعصية، ولو بالإعداد وبالضرورة أنَّ نصبَ الإمام كذلک؛ لما به من بيان المعارف والأحكام الإلهية، وحفظ الشريعة من الزيادة والنقصان، وتنفيذ الأحكام، ورفع الظلم والفساد ونحوها.

وأمَّا كونه واجباً عليه تعالى؛ فلأنَّ ترک اللُّطف من الله سبحانه وتعالى إخلال بغرضه ومطلوبه، وهو طاعة العباد له، وترک معصيته، فيجب نصبه لئلا يُخِلَّ بغرضه(2).

ولذا استدلّ أصحاب الإئمة عليهم السلام بأدلّة قويّة لبيان أهميّة الإمام، منها هذه الرواية الشريفة: روى علىُّ بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن إبراهيم عن يونس بن يعقوب، قال: كان عند أبى عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه، منهم حمران بن أعين، ومحمد بن النعمان، وهشام بن سالم، والطيّار، وجماعة فيهم هشام بن الحكم - وهوشابٌّ - فقال أبوعبد

1- (1) الكامل فى التاريخ: ج 2، ص 145. وأُنظر: الإلهيات: ص 361.
2- (2) نقلنا ذلک من كتاب الإلهيات للشيخ جعفر السبحانى: ص 357 - ص 364.

الله علیه السلام: «یا هشام، ألا تخبرنی کیف صنعت بعمرو بن عبید، وکیف سألته؟ فقال هُشام: یا بن رسول الله، إنّی أَجِلّکَ وأستحییک، ولا یعمل لسانی بین یدیک، فقال أبو عبد الله: إذا أمرتکم بشیء فافعلوا.

قال هشام: بلغنی ما کان فیه عمرو بن عبید وجلوسه فی مسجد البصرة، فعظم ذلک علیّ، فخرجتُ إلیه ودخلتُ البصرة یوم الجُمعة، فأتیتُ مسجد البصرة، فإذا أنا بحلقةٍ کبیرة فیها عمرو بن عبید وعلیه شملة سوداء متّزر بها من صُوفٍ، وشملةٌ مرتدٍ بها، والناس یسألونه، فاستفرجتُ الناس، فأفرجوا لی، ثُمَّ قعدتُ فی آخر القوم علی رکبتیّ، ثُمَّ قُلتُ: أیُّها العالم، إنی رجلٌ غریبٌ، تأذن لی فی مسألةٍ؟ فقال لی: نعم. فقلتُ له: ألک عینٌ؟ فقال: یا بنیَّ أیَّ شیء هذا من السؤال؟ وشیء تراه کیف تسأل عنه؟ فقلتُ هکذا مسألتی، فقال: یا بنی سَلْ وإن کانت مسألتک حمقاء، قُلتُ: أجبنی فیها، قال لی: سل.

قُلتُ: ألک عینٌ؟ قال: نعم، قُلتُ: فما تصنع بها؟ قال: أری بها الألوان والأشخاص، قُلتُ: فلک أنفٌ؟ قال: نعم، قُلتُ: فما تصنع به؟ قال: أشمُّ به الرائحة، قُلتُ: ألک فمٌ؟ قال: نعم، قُلتُ: فما تصنع به؟ قال: أذوقُ به الطعام، قُلتُ: فلک أُذُنٌ؟ قال: نعم، قُلتُ: فما تصنع بها؟ قال: أسمعُ بها الصوت، قلتُ: ألک قلبٌ؟ قال: نعم، قلتُ: فما تصنع به؟ قال: أُمیِّز به کلَّما ورد علی هذه الجوارح والحواسّ.

قُلتُ: أوَ لیس فی هذهِ الجوارح غنیً عن القلب؟ فقال: لا، قُلتُ: وکیف ذلک وهی صحیحة سلیمة. قال: یا بنیّ، إنَّ الجوارح إذا شکّت فی شیءٍ شمّته أو رأته أو ذاقته أو سمعته، ردتَّه إلی القلب، فیستیقن الیقین ویُبطل الشکّ.

قال هشام: فقُلت له: فإنّما أقام الله القلب لشکّ الجوارح؟ قال: نعم، قُلتُ: لا بُدّ من القلب وإلاّ لم تستیقن الجوارح؟ قال: نعم، فقلتُ له: یا أبا مروان، فالله تبارک وتعالی لم یترک جوارحک حتّی جعل لها إماماً یُصحّحُ لها الصحیح ویُتیقن به ما شُکّ فیه، ویترک هذا الخلق

كُلّهم فی حیرتهم وشکّهم واختلافهم لا یقیمُ لهم إماماً یردوّن إلیه شکّهم وحیرتهم، ویقیمُ لک إماماً لجوارحک تردُّ إلیه حیرتک وشکّک؟ قال: فسکت ولم یقُلْ شیئاً.

ثمّ التفت إلیَّ فقال لی: أنت هُشام بن الحکم؟ فقلتُ: لا، قال: أمن جُلسائه؟ قُلت: لا، قال: فمن أین أنت؟، قال: قُلتُ من أهل الکوفة، قال: فأنت إذاً هو، ثُمَّ ضمنّی إلیه، وأقعدنی فی مجلسه وزال عن مجلسه وما نطق حتّی قُمت.

قال: فضحک أبوعبد الله علیه السلام وقال: یاهشام، من علَّمکَ هذا؟ قُلتُ: شیءٌ أخذته مِنْکَ وألَّفته، فقال: هذا والله، مکتوبٌ فی صُحف إبراهیم وموسی»(1).

فهکذا هو حال الإمام المعصوم علیه السلام، بمثابة قلبِ الإنسان، فالعالم بلا إمامٍ کالإنسان بلا قلبٍ، وکیف یعیش الإنسانُ إذا کان بلا قلبٍ أو تعرّضَ قلبه لجرح أو عارضٍ معیّن، بل کیف نتصور إنساناً یخترق قلبَه سهمٌ مثلث له ثلاث شعب.

قال أربابُ المقاتل: کان الحسین علیه السلام یقول عندما برز إلی القتال:

أنا الحسینُ بنُ علیّ آلیتُ أن لا أنثنی

أحمی عیالاتِ أبی أمضی علی دینِ النبیّ

وأخذ یضرب فیهم یمیناً وشمالاً، حتّی قتل منهم خلقاً کثیراً.

فلّما نظر الشمر إلی ذلک أقبل إلی عمر بن سعد، وقال: أیُّها الأمیر، إنَّ هذا الرجل یفنینا عن آخرنا مبارزةً، قال: کیف نصنعُ به؟

قال: نفترق علیه من کلِّ مکان، فافترقوا علیه: فرقةٌ ترمیه بالنبال والسهام والحجارة، وفرقة یطعنونه بالرّماح، وفرقة یضربونه بالسّیوف، حتّی أثخنوه بالجراح، قال فی اللُّهوف: حتّی أصابته إثنتان وسبعون جُراحة، فوقف یستریح ساعة، وقد ضعف عن القتال، فبینما هو واقفٌ إذ أتاه حجرٌ فوقع فی جبهته، فسالت الدماء علی وجهه ولحیته.

1- (1) الکافی: ج 1، ص 169 - ص 171، کتاب الحجّة، ح 3.

فأخذ الثوب ليمسح الدم عن وجهه، إذ أتاه سـهمٌ محدّد له ثلاث شُعب فوقع فی قلبه(1) ، ثُمَّ أخذ السـهم وأخرجه من وراء ظهره، فانبعث الـدم کالمیزاب، فوضع یـده تحت الجرح، فلمّا إمتلأت رمی بها إلی السـماء، فما رجع من ذلک الـدم قطرة، ثُمَّ وضع یـده مرّة أُخری، فلمّا امتلأت دمّاً لطّخ بهـا رأسه ولحیته، وقـال: «هکـذا والله أکونُ حتّی ألقی جـدّی محمـداً، وأنا مخضوبٌ، وأقولُ: یارسولَ الله، قتلنی فلان وفلان»(2).

هذا وزینب علیها السلام تنظر أخاها بلا معین ولا مؤازر ولا عشیرة بعد ماخرجت مع أهل بیتها:

دنظر للعشیرة إشکثر حلوه تحل الموزمة اوتکشف البلوه

أدوا لبو الیمة اشروط الإخوّة اوسوّوا یوم إله للحشر تذکار

الفواطم لو اثلاثة من زلمها عگب احسین کون احضرت یمّها

ولا سلبوا یتیمه ولا نهب صار چا محد جسر یحر خیمها

أنه اتمنیت هالنهضة انهضوها إلزینب یوم اجوها إیسلبّوها

ابضربها اوتلتهب بذیالها النار وإلذیج الیتیمه الروّعوها

(بحرانی)

فرّت یتیمة امدوهنة امن إخیام الحسین تبچی اوتنادی یا خلگ درب الغری منین

گلها عدو امن الگوم اسمعی یا حزینه ابعید الغری وینچ یهالحرّه اووینه

1- (1) اللهوف فی قتلی الطفوف: ص 71.

2- (2) مجمع مصائب أهل البیت علیهم السلام: ج 1، ص 253 - ص 255.

ممشه ثلث تيام چانچ توصلينه واشلون بس وحدچ ابهذا البر تسيرين

گالت أبوى حسين دلينى بجسمه إيگولون من فوگ الثرى إمخضّب إبدمه

إبيا كتر صارت طيحته أرد أصل يمّه بلچت يحاچينى امن أنادى ابصوت يحسين

***

أحباىَ لو غيرُ الحِمامِ أصابَكُم عتبتُ ولكِنْ ما على المَوتِ مَعْتَبُ

***

إنّا لله و إنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:225

المحاضرة الثامنة عشرة: سورة العصر

اشارة

ص:227

أروحُکَ أم روحَ النبوّةِ تصعدُ من الأرضِ للفردَوسِ والحورُ سُجّدُ

ورأسُکَ أم رأْسُ الرسولِ علی القنا بآیةِ أهلِ الکهفِ راحَ یردّدُ

وصدرُک أم مستودَعُ العلمِ والحِجی لتحطیمهِ جیشٌ من الجهلِ یَعمدُ

وشاطرتِ الأرضُ السّماءَ بشجوِها فواحدةٌ تبکی وأُخری تُعدّدُ

وقد نَصبَ الوحیُّ العزاءَ ببیتهِ علیکَ حِداداً والمُعزّی مُحمّدُ

یلوح له الثقلان ثقلٌ مُمزّقٌ بسهمٍ وثقلٌ بالسّیوفِ مُقدَّدُ

فعترتُه بالسّیفِ والسهمِ بعضُها شهیدٌ وبعضٌ بالفلاةِ مُشرّدُ

فأیُّ قتیلٍ أصلتِ الشّمسُ جسمَه ومشهدُها من أصلهِ مُتولّدُ

وأیُّ ذبیحٍ داستِ الخیلُ صدرَه وفُرسانُها من ذکرهِ تَتَجمّدُ

ألم تکُ تَدری أنَّ رُوحَ مُحمّدٍ کقُرآنهِ فی سِبطه مُتجسّدُ

فلو عَلمتْ تلکَ الخُیولُ کأهلِها بأنَّ الذی تحتَ السَنابکِ أحمدُ

لثارتْ علی فُرسانِها وتمرّدت علیهم کما ثَاروا بها وتمرّدوا

وأعظمُ ما یُشجی الغیورَ حرائرُ تُضام وحامیها الکفیلُ مُقیّدُ

فمِن مُوثَقٍ یشکو التشدُّدَ من ید وموثَقةٍ تبکی فتلطُمها الیدُ

کأنّ رسولَ الله قال لقومهِ خُذوا وتْرَکُم من عترتی وتشدّدوا(1)

***

1- (1) القصیدة للسید صالح بن السیّد مهدی بحر العلوم، قال عنه السید داخل حسن فی مَن لا یحضره الخطیب (ج 1، ص 224): «شاعر الشعب، ینتمی لأسرة صاحب الکرامات بحر العلوم، ولد سنة 1328 ه- فی النجف الأشرف، له دیوان شعر طبع منه جزءان [توفّی فی العقد الأخیر من القرن العشرین]».

طبّوا للخيام وفرهدوها وعزيزات النبوّة سلبوها

وچم طفلة إلنبيهم روّعوها اوفرّت من خيمها تحوم واتّدور

***

عگب ما فرهدوا ذيج الصواوين شبّوا نارهم بخيام الحسين

اوطلعت هايمة ذيچ النساوين يتاماها اتّعثّر بين الصخور

***

وَ الْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ (1).

القَسَم ومعناه:

لقد احتلّ القَسَم فی القرآن الکریم مجالاً واسعاً، فصارت مواردُه مثیرة للاهتمام، فما هو القَسَم إذن؟

«القَسَم: هو الیمین، ویُجمع علی أقسام، والفعل أُقسم»(2).

وفی الصحاح: «أقسمت: حلفت، وأصله من القسامة، وهی الأیمان تقسّم علی الأولیاء فی الدم»(3).

وفی الفروق اللغویـة: «الفرق بین القسم والحلف: أنَّ القَسَم أبلغ من الحلف؛ لأـنّ معنی قولنـا (أُقسم بـالله) أنّه صار ذا قسمٌ بالله، والقسـم النصیب، والمراد: أنَّ الذی أقسم

1- (1) العصر: آیة 1 - آیة 3.

2- (2) کتاب العین: ج 5، ص 86.

3- (3) الصحاح: ج 5، ص 2010.

عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم بالله، والحلف من قولک سيف حليف أى: قاطعٌ ماضٍ فإذا قلت: حلف بالله فكأنّک قُلت قطع المخاصمة بالله، فالأوّل أبلغ؛ لأنّه يتضمّن معنى الآخر مع دفع الخصم، ففيه معنيان، وقولنا: حلف يفيد معنى واحد، وهو قطع المخاصمة فقط...»(1).

أركان القسم:

إنّ القسم من الأُمور ذات الإضافة، وهو فعلُ فاعلٍ مُختار له إضافة إلى أُمور أربعة: أ. الحالف، ب. ما يحلف به، ج. ما يحلف عليه، د. الغاية من القسم.

أمّا الأوّل: فالحلف عبارة عن فعل الفاعل المختار، فلا يصدر إلاّ منه سواء أكان واجباً، كالله سبحانه، أم ممكناً، كالإنسان وغيره.

وأمّا الثانى (ما يحلف به) فإنّ لكلِّ قوم أُموراً مقدّسة يحلفون بها، وأمّا القرآن الكريم فقد حلف سبحانه بأُمور تجاوز عددها الأربعين مُقسماً به.

وأمّا الثالث (ما يحلف عليه) والمراد هو جواب القسم الذى يُراد منه التأكيد عليه وتثبيته وتحقيقه، وهذا ما يقال القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده.

وثمّة ركن رابع، وهو الغاية المتوخّاة من القسم، فنقول: إنّ الغاية إمّا هى تحقيق الخبر ودعوة المخاطب إلى الإيمان والإذعان به، كما هو الغالب، أو إلفات النظر إلى عظمة المُقسَم به، وما يكمن فيه من أسرار ورموز، أو لبيان قداسته وكرامته، ومن خلال هذا البيان، يتّضح الجواب على ما ربما يُقال من أنّ قَسَمه سبحانه إن كان لأجل المؤمن فهو يصدّقه بلا حلف، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده، فيكون هذا القَسَم لغواً.

والجواب: إنّ إيمان المؤمن بصدق إخباره سبحانه لا ينافى تأكيده بالحلف، مضافاً إلى ما عرفت من أنَّ حلفه سبحانه بشىء إشارة إلى كرامته وقداسته، أو إلى عظمته وما يكمن

1- (1) الفروق اللغوية: ص 429، رقم 1723.

فيه من أسرار ورموز(1).

القسم فی سورة العصر:

لم يُقسم البارى عزّ وجلّ فی كلِّ القُرآن الكريم بالعصر إلاّ فی هذه السورة المباركة، التی لخّصت جميع المعارف القرآنية وجمعت شتات مقاصد القرآن فی أوجز بيان، كما عبّر عنها صاحب التفسير العظيم الميزان(2).

وعلى ضوء مـا تقـدّم فی أركان القَسم يأتی الكلام فی تطبيقها على هـذه السورة المباركـة: فالمُقسِم هو الله تبارک وتعالى، والمُقسَم به هو العصر، وجواب القسم هو كون الإنسان فی خسر، والغاية هی تأكيد الجواب.

ولا شكّ – بحسب ما ذكرنا – أنّ الشیء الذی يقسم به لا بدّ أن يكون من الأُمور المهمّة المُقدّسة حتّى يثبت الجواب والغاية.

ما هو العصر:

الأقوال والتفاسير فی ذلک مختلفة قد تصل إلى السبعة، أذكر بعضها، وهی: أنّ العصر الذی أقسم به البارى عزّ وجلّ هو:

1 – عصر النبی صلى الله عليه و آله.

2 – أنّه الدهر.

3 – وقت العصر.

4 – صلاة العصر.

5 – عصر ظهور الإمام المهدى عليه السلام(3) ، ولكلّ قولٍ يوجد قائل وناصر له. والأشياء

1– (1) انظر: الأقسام فی القرآن الكريم: ص 10 – ص 13.

2– (2) انظر: تفسير الميزان: ج 20، ص 355.

3– (3) انظر هذه الأقوال فی: تفسير جوامع الجامع: ج 3، ص 837. تفسير الرازى: ج 32، ص 84 – ص 87. التفسير الأصفى: ج 2، ص 1474. تفسير الميزان: ج 20، ص 355.

المذكورة كُلّها مهمّة ومقدّسة، وتستحقّ أن يُقسم بها لإثبات جواب القسم الآتى بعد القسم، وهو: إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِى خُسْرٍ ، وقد تسأل وتقول: من أين نشأت أهميّة هذه الأشياء المذكورة حتّى أقسم بها البارى عزّ وجلّ؟

والجواب:

أمّا الأول: وهو عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله؛ «فلكونه عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشرى، وظهور الحقّ على الباطل»(1).

أو «لأنَّ المنهج ذا المواد الأربعة فى ذيل هذه السورة: [الإيمان، وعمل الصالحات، والتواصى بالحقّ، والتواصى بالصبر] نزل فى هذا العصر»(2).

ويؤيّد عظمة هذا العصر خطبة الزهراء عليها السلام، حيث تقول: «وكُنتم على شفا حُفرةٍ من النار، مُذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطى الأقدام، تشربون الطرق وتقتاتون القدّ، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارک وتعالى بمُحمّد صلى الله عليه و آله»(3).

أو كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وأنتم معشرَ العرب على شرّ دين وفى شر دار متنخون، بين حجارة خشن، وحيّات صُم، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة»(4).

فهكذا عصر يشعّ على ظلمة العصر الذى سبقه فينوّرها، يستحق أن يُقسَم به، ويُذكر آناء الليل وأطراف النهار.

وأمّا الثانى: وهو الدهر؛ «لما فيه من عجائب الحوادث الدالّة على القدرة الربوبية وغير

1- (1) تفسير الميزان: ج 20، ص 355.
2- (2) تفسير الأمثل: ج 20، ص 435.
3- (3) الاحتجاج: ج 1، ص 136 - ص 137.
4- (4) نهج البلاغة: ج 1، ص 66.

ذلک»(1) ، أو «لأنّ فیه عبرة لأولی الأبصار»(2) ، أو «لما فی مروره من أصناف العجائب»(3).

وأمّا الثالث: وقت العصر «الطرف الأخیر من النهار؛ لما فیه من الدلالة علی التدبیر الربوبی، بإدبار النهار وإقبال اللیل وذهاب سلطان الشمس»(4) ، أو «أنّ هذا الوقت معظّم... فکما أقسم فی حقّ الرابح بالضحی فکذا أقسم فی حقّ الخاسر بالعصر؛ وذلک لأنّه أقسم بالضحی فی حقّ الرابح وبشّر الرسول أنّ أمره إلی الإقبال، وهاهنا فی حقّ الخاسر توعدّه أنّ أمره إلی الإدبار»(5).

وأمّا الرابع: وهو صلاة العصر، وذلک «أنّه تعالی أقسم بصلاة العصر؛ لفضلها بدلیل قوله وَ الصَّلاةِ الْوُسْطی... [و] التکلیف فی أدائها أشقّ؛ لتهافت الناس فی تجاراتهم ومکاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعایشهم... [و] أنّ صلاة العصر بها یحصل ختم طاعات النهار، فهی کالتوبة بها یُختم الأعمال، فکما تجب الوصیّة بالتوبة کذا بصلاة العصر؛ لأنّ الأُمور بخواتیمها، فأقسم بهذه الصلاة تفخیماً لشأنها، وزیادة توصیة المکلف علی أدائها، وإشارة منه أنّک إن أدّیتها علی وجهها عاد خسرانک ربحاً»(6).

وأمّا الخامس: وهو عصر ظهور الإمام صاحب العصر والزمان عجل اللّه تعالی فرجه الشریف.

فعن المفضّل بن عُمر قال: سألت الصّادق جعفر بن محمّد علیها السلام عن قولِ الله عزّ وجلّ وَ الْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ قال علیه السلام: «العصرُ عصر خروج القائم»(7).

1- (1) تفسیر المیزان: ج 20، ص 356.

2- (2) تفسیر جوامع الجامع: ج 3، ص 837.

3- (3) تفسیر البحر المحیط: ج 8، ص 508.

4- (4) تفسیر المیزان: ج 20، ص 355 - ص 356.

5- (5) تفسیر الرازی: ج 32، ص 86.

6- (6) المصدر نفسه.

7- (7) کمال الدین وتمام النعمة: ص 656، ح 1. عنه بحار الأنوار: ج 24، ص 214، ح 1.

وقد يقال: ما هو الشيء المقدّس فی هذا العصر حتّی يُقسِمَ به البارى عزّ وجلّ؟

والجواب: إنّه عصر يشبه عصر رسول الله صلی الله عليه و آله فی رجوع الناس إلی صلب الدين وصحيحه، بعد هذا البعد والفراق لأئمة الدين وهداته، ويكفی تصديقاً بعظمة هذا العصر ما ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام فی حديث حول سيرته عند قيامه عجل اللّه تعالی فرجه الشريف قال: «... ولا يترک بدعة إلاّ أزالها، ولا سنّة إلاّ أقامها»(1).

فتصل الناس فی ذلک العصر إلی الكمال الذی ليس بعده كمال يرجی فی هذه النشأة.

وأنّه عجل اللّه تعالی فرجه الشريف يسير فيهم بسنّة رسول الله صلی الله عليه و آله، ويعمل فيهم بعلمه... إذا قام القائم عجل اللّه تعالی فرجه الشريف دعی الناس إلی الإسلام جديدا، وهداهم إلی أمرٍ قد دثر، وضلّ عنه الجمهور(2).

والخلاصة: إنّ الله تبارک وتعالی أقسم بأحد هذه المقدّسات الخمسة وبذلک «تتّضح... عظمة آيات القرآن وسعة مفاهيمها، فكلمة واحدة تتحمّل من المعانی العميقة ما يجعلها صالحة لكلّ هذه التفاسير المتنوّعة»(3).

جواب القسم فی السورة المباركة:

وبعد معرفتنا بالآراء فی تفسير ما أقسم به البارى عزّ وجلّ يأتی الدور الآن للتعرّف علی جواب هذا القسم، فما هو الجواب المراد تأكيده لنا؟

الجواب بالغ الأهميّة، والإخبار به نتيجة صعبة القبول، وهو: إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ .

قال الراغب الإصفهانی: «خسر: الخسر والخسران انتقاص رأس المال، وينسب ذلک إلی الإنسان، فيقال: خسر فلان، وإلی الفعل، فيقال: خسرتْ تجارته، قال تعالی: (تِلْکَ إِذاً

1- (1) الإرشاد: ج 2، ص 385.

2- (2) انظر: المستجاد من الإرشاد: ص 267.

3- (3) تفسير الأمثل: ج 20، ص 435.

كَرَّةٌ خاسِرَةٌ، ويستعمل ذلک فی المقتنیات الخارجة، کالمال والجاه فی الدنیا، وهو الأکثر، وفی المقتنیات النفسیّة کالصحّة والسلامة والعقل والإیمان والثواب، وهو الذی جعله الله تعالی الخسران المبین... وکل خسران ذکره الله تعالی فی القرآن، فهو علی هذا المعنی الأخیر، دون الخسران المتعلق بالمقتنیات الدنیویة والتجارات البشریة»(1).

ثمّ إنّ المراد بالإنسان هنا جنسه(2) ، فیکون المعنی کلّ إنسان فی خُسر «والإنسان إذا لم یَستعمل نفسَه وعُمرَه فیما یوجب له الربح الدائم، فهو فی خسران؛ لأنه عمل فی إهلاک نفسه وعمره، وهما أکبر رأس ماله»(3).

وفی التفسیر الصافی: «لفی خسران فی مساعیهم، وصرف أعمارهم فی مطالبهم»(4).

«یخسر هذا الإنسان ثروته الوجودیة شاء أم أبی، تمرُّ الساعات والأیام والأشهر والأعوام من عمر الإنسان بسرعة، تضعف قواه المادیّة والمعنویة، تتناقص قدرته باستمرار. نعم، إنّه کشخص عنده ثروة عظیمة، وهذه الثروة یؤخذ منها کلّ یوم شیء باستمرار رغم إرادته، هذه طبیعة الحیاة الدنیویة طبیعة الخسران المستمرّ، القلب له قدرة معینة علی الضربان، وحین تنفد هذه القدرة یتوقف القلب تلقائیاً دون علّة من عیب أو مرض، هذا إذا لم یکن توقف الضربان نتیجة مرض»(5) ، فهو أشبه ما یکون بذلک الرجل بائع الثلج الذی یصیح ویقول: ارحموا مَن یذوب رأسُ ماله، حتّی قال البعض تعلّمت معنی الخسران من بائع الثلج(6).

1- (1) مفردات غریب القرآن: ص 147.

2- (2) انظر: تفسیر المیزان: ج 20، ص 356.

3- (3) زاد المسیر: ج 8، ص 304.

4- (4) التفسیر الصافی: ج 7، ص 549.

5- (5) تفسیر الأمثل: ج 20، ص 435.

6- (6) انظر: تفسیر الرازی: ج 32، ص 85.

وقـال الشّـيخ الطّوسـى: «إنّ الإنسـان لفى خسـر جواب القسم، وفيه إخبـار من الله أنّ الإنسـان يعنى الكافر (لفى خسـر) أى: لفى نقصان بارتكـاب المعاصـى وكفره بـالله، والخسـر هلاک رأس المال للإنسان، وبارتكاب المعاصـى فى هلاک نفسه خسـران، وهو أكبر من رأسـه ماله»(1).

والخلاصة: كُلّ الناس فى هذه الدنيا فى خسـر، فتكون الآية والقول المنسوب لرسول الله صلى الله عليه و آله وهو: «الناس كلّهم هلكى إلاّ العالمون، والعالمون كلّهم هلكى إلاّ العاملون والعاملون كلّهم هلكى إلاّ المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم»(2) يحملان مفهوماً واحداً.

الإستثناء فى السورة المباركة:

بعـد تأكيـد الجواب بالقسم وبأدوات أُخرى من قبيل (إنّ) المفيـدة للتأكيد، و (اللام) كذلک، جاء الدور الآن لتفريج هذه الكربة وتضـييق دائرة الخسـران، وتوسيع دائرة الربح، فاستثنت السورة المباركة أربعة طوائف حيث قالت: إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ ، فلنتعرف على هذه الطوائف الأربعة؛ حتّى نسعى جاهدين لنكون منهم إن شاء الله تعالى.

الطائفة الأُولى: الَّذِينَ آمَنُوا ، هذه هى الطائفة الأُولى، والتى تمثّل العنوان المستثنى من الخسران الذى أقسم عليه البارى عزّ وجلّ وأكّده.

وفى أضواء البيان: «هذا هو المستثنى من الإنسان المتقدّم، ممّا دلّ على العموم كما

1- (1) التبيان: ج 10: ص 405.

2- (2) ذكره فى جامع السـعادات: ج 1، ص 220 تحت جملة: «ومن هنا يظهر سـرّ قوله» ولكن فى هامش جامع السـعادات قال محقّق الكتـاب: «جاء نصّ هـذه العبارة فى مجموعـة ورام ص 320 عن النـبى صـلى الله عليه و آله مرسـلاً» أقول: ولم أعـثر عليه فى المجموعة المذكورة لاختلاف نسختى، ولعلَّ اللهَ يحدث بعد ذلک أمراً.

قدّمنا، والإيمان لغةً التصديق وشرعاً الإعتقاد الجازم بأركان الإيمان»(1).

وقال السّيد العلاّمة: «والمستثنون هم الأفراد المتلبّسون بالإيمان والأعمال الصالحة، فهم آمنون من الخسر؛ وذلک أنَّ کتاب الله يبيّن أنّ للإنسان حياةً خالدةً مؤبّدةً لا تنقطع بالموت، وإنّما الموت انتقال من دار إلى دار... ويبيّن أنَّ شطراً من هذه الحياة وهى الحياة الدنيا حياة امتحانية... وقد سمّى الله تعالى ما سيلقاه الإنسان فى الآخرة جزاءً وأجراً فى آيات كثيرة، ويتبيّن بذلک كلّه أنّ الحياة رأس مال للإنسان يكسب به ما يعيش به فى حياته الآخرة، فإن اتّبعَ الحقّ فى العقد والعمل فقد ربحت تجارته، وبورک فى مكسبه، وأمن الشر فى مستقبله، وإن اتّبع الباطل وأعرض عن الإيمان والعمل الصالح فقد خسرت تجارته، وحرم الخير فى عقباه، وهو قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ .

والمراد بالإيمان الإيمان بالله، ومن الإيمان بالله الإيمان بجميع رسله والإيمان باليوم الآخر، فقد نصّ تعالى فيمّن لم يؤمن ببعض رسله أو باليوم الآخر أنّه غير مؤمن»(2).

الطائفة الثانية: وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وهذه هى الطائفة الثانية: استثناء من جملة الناس الذين خسروا فى هذه الحياة الدنيا.

ولكن ما هو عمل الصالحات؟ هل هو أداء الفرائض(3) ، أو مواساة الإخوان(4) ، أو أنّه الموافق لكتاب الله وعملَه صاحبُه خالصاً لوجه الله، وكونه صادراً من مؤمن بالله(5) أو أنّه

1- (1) أضواء البيان: ج 9، ص 93.

2- (2) تفسير الميزان: ج 20، ص 356 - ص 357.

3- (3) انظر: تأويل الآيات: ج 2، ص 854.

4- (4) انظر: غاية المرام: ج 4، ص 147.

5- (5) انظر: أضواء البيان: ج 9، ص 94.

العمل بالطاعات(1).

والظاهر أنَّ بيان الأعمال الصالحة فی هذا الإستثناء ينطبق على ما ذُكر هنا، فأداء الفرائض، ومواساة الإخوان، والعمل بالطاعات وما شاكل ذلک، كلّها من الأعمال الصالحة، ولكن هذا من باب ذكر المصاديق، فهو إذن كلّ الأعمال الصالحة.

قال فی الميزان: «التلبّس بجميع الأعمال الصالحة»(2) ، ولا أظن أنّ الأعمال الصالحة تحتاج إلى بيان أكثر بعد ما ذُكر فی كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه و آله.

فكلّ ما أمر به كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه و آله هو من الصالحات سواءً بلغ رتبة الوجوب أم الاستحباب، ومصاديق هذه الكبرى كثيرة لا تُعدُّ ولا تحصى؛ لذا لم أعثر على مفسّر عدّها أو أحصاها.

الطائفة الثالثة: وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ هذه هی الطائفة الثالثة المستثناة من الخُسر، وهم مَن تواصوا بالحقّ.

«قال بعضهم: التواصی بالحقِّ هو المقام مع الحقّ، والقيام بأوامره على حدود الاستقامة»(3).

وقال الفيض الكاشانی: «بالثابت الذی لا يصحّ إنكاره من اعتقاد أو عمل»(4).

وهذا أيضاً من باب ذكر الكُبرى التی لها مصاديق كثيرة، فمن التواصی بالحقّ التواصی بجميع أُصول الدين وفروعه، ومنه التواصی بالإهتمام بالعمل على طبق الفروع، مثل أداء الفرائض، والمواظبة عليها، ومنه برّ الوالدين، وغيرها الكثير.

فمن هنا يرد هذا التساؤل وهو: أليس أنّ التواصی بالحقّ داخل فی وَ عَمِلُوا

1- (1) انظر: التبيان: ج 10، ص 405.
2- (2) تفسير الميزان: ج 20، ص 357.
3- (3) نقله عنه فی تفسير السلمی: ج 2، ص 419.
4- (4) التفسير الصافی: ج 7، ص 549.

الصّالِحاتِ ، فعلامَ ذُكر مرّةً أُخرى، وكذا التواصى بالصبر؟!

والجواب: نعم، هو داخل فيه، لكنّه ذُكر مرّة أُخرى للتأكيد.

قال العلاّمة الطّباطبائى: «ثمَّ التواصى بالحقّ من العمل الصّالح، فذكره بعد العمل الصالح، من قبيل ذكر الخاص بعد العام؛ اهتماماً بأمره، كما أنّ التواصى بالصبر من التواصى بالحقّ، وذكره بعده من ذكر الخاص بعد العام؛ اهتماماً بأمره، ويؤكّد تكرار ذكر التواصى، حيث قال: وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ ولم يقل: وتواصوا بالحقِّ والصّبر»(1).

وفى أضواء البيان: «وقيل: إنّ التواصى: أن يوصى بعضهم بعضاً بالحقّ. وقيل: الحقّ كلّ ما كان ضد الباطل، فيشمل عمل الطاعات وترك المعاصى... وقيل الحقّ هو القرآن؛ لشموله كلّ أمر وكلّ نهى وكلّ خير»(2).

وعلى القيل الأخير - الحقّ هو القرآن - لماذا يستغرب البعض من تفسير الآية بأوضح مصاديق الحقّ والالتزام به، ألا وهو أمير المؤمنين عليه السلام، كما فى تأويل هذه الآيات الشريفة والمروية عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، أو مطلق الإمامة والولاية(3) بعد تواتر الحديث عن المصطفى صلى الله عليه و آله: «علىٌّ مع القرآن والقرآن مع على، لن يفترقا حتّى يردا علىّ الحوض»(4).

وقد ورد بألفاظ أُخرى، والحديث متواتر معنىً، بل روى الحاكم النيسابورى عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنَّه قال: « إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِى خُسْرٍ هو أبو جهل بن هشام إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ قال: هم علىّ وشيعته»(5).

1- (1) تفسير الميزان: ج 20، ص 357.

2- (2) أضواء البيان: ص 94.

3- (3) انظر: تأويل الآيات: ج 2، ص 854. شواهد التنزيل: ج 2، ص 482.

4- (4) المستدرک على الصحيحين: ج 3، ص 124. المعجم الأوسط: ج 5، ص 135. الجامع الصغير: ج 2، ص 177، ح 5594. كنز العمال: ج 11، ص 603، ح 32912.

5- (5) شواهد التنزيل: ج 2، ص 482.

الطائفة الرابعة: والطائفة الرابعة المستثناة من الخُسر هم مَن تواصى بالصبر بعد التواصى بالحقّ، سواءً كان التواصى بالصبر من مصاديق التواصى بالحقّ أم من مصاديق العمل الصالح، فهو من عطف الخاص بعد العام، ولو ذكر بعده وتواصوا بالصوم لكان عطف الصوم على الصبر من باب عطف الخاص بعد العام أيضاً؛ لأنَّ الصوم من مصاديق الصبر إن لم يكُن هو الصبر بعينه، كما فى اطلاقات بعض الآيات الشريفة كقوله تعالى: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ (1) ، فعن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «يعنى بالصبر الصوم»(2).

وذهب بعض المفسّرين إلى كون المقصود بالصبر هنا هو: الصبر على تحمّل المشاق فى طاعة الله، والصبر عن معصيته(3).

لكن حملها على الجميع لا ضير فيه بعد إطلاق الكلام؛ ولذا قال العلاّمة الطباطبائى رحمه الله: «وقد أُطلق الصبر، فالمراد به أعمّ من الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته... والصبر عند النوائب التى تصيبه بقضاء من الله وقدر»(4).

وفى بعض التفاسير عن أئمّة الهدى عليهم السلام: وصّوا ذراريهم ومَن خلفوا من بعدهم بالولاية وبالصبر عليها(5) ، وفى بعضها الآخر على بن أبى طالب(6). أو العترة(7).

لكن هل المسلمون فعلاً عملوا بوصية القرآن ووصية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بمواصلة العترة وعدم مقاطعتهم، أو عملوا بعكس ما أوصاهم القرآن والرسول الأعظم صلى الله عليه و آله؟!

1- (1) البقرة: آية 45.

2- (2) مَن لا يحضره الفقيه: ج 2، ص 76، ح 1776.

3- (3) التبيان: ج 10، ص 405. تفسير الآلوسى: ج 30، ص 229. جوامع الجامع: ج 3، ص 838. تفسير البحر المحيط: ج 8، ص 504.

4- (4) تفسير الميزان: ج 20، ص 357.

5- (5) انظر: بحار الأنوار: ج 24، ص 215، ح 4، تأويل الآيات: ج 2، ص 854.

6- (6) انظر: غاية المرام: ج 4، ص 147، ح 2.

7- (7) التفسير الصافى: ج 7، ص 550.

يجيبنا على هذا السؤال سـليل العترة الطاهرة عليهم السـلام وزين عبادها الإمام السّجاد عليه السلام فى خطبته حيث قال فيها: «... قُتل أبو عبـد الله وعترته، وسُبى نساؤه وصبيته وداروا برأسه فى البلـدان من فوق عامل السـنان، وهـذه الرزية التى لا مثلها رزية، أيّها الناس أصـبحنا مطرودين مشـرَّدين، مذودين شاسـعين عن الأمصار، كأنّا أولاد ترک وكابل، من غير جرم أجرمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة فى الإسلام ثلمناها، ما سـمعنا بهذا فى آبائنا الأولين، إن هذا إلاّ اختلاق، والله لو أنَّ النبىَّ صلى الله عليه و آله تقدَّم إليهم فى قتالنا، كما تقدّم إليهم فى الوصاية بنا، لما زادوا على ما فعلوا بنا، فإنّا لِلّهِ وإنا إليه راجعون...»(1).

بلى والله...

كأنَّ رسولَ الله قال لقومه خذوا وتْرَكم من عترتى وتشدّدوا

ولذا كانت تنظر الحوراء زينب عليهما السلام إلى الأشلاء المقطّعة على رمضاء كربلاء، وكأنّى بها تنادى:

خوية اشلون أسوى وهاى الظعون بس انودعک ساعة ويرحلون

وما ندرى ابعزمهم وين يردون عدوان وكره بين مظهرين

ناداها العدو بسچ من النوح المن تشتجين حسين مذبوح

تشوفينه جسد علگاع مطروح دگومى الناگتچ محنه مجيمين

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

1- (1) مثير الأحزان: ص 91. اللهوف: ص 117.

المحاضرة التاسعة عشرة: قسوَة القلوب

اشارة

ص:243

سلامٌ على الحوراء ما بقى الدهرُ وما أشرقت شمسٌ وما طلعَ البدرُ

سلامٌ على القلبِ الكبيرِ وصبرِه بما قد جرت حُزناً له الأدمعُ الحُمرُ

جرى ما جرى فى كربلاء وعينُها ترى ما جرى ممّا يذوب له الصخرُ

لقد أبصرتْ جسمَ الحُسينِ موزّعاً فجاءت بصبرٍ دون مفهومهِ الصبرُ

رأتْهُ ونادت يا ابن أُمّى ووالدى لک القتلُ مكتوباً ولى كُتبَ الأسرُ

أخّى إنّ فى قلبى أسىً لا أُطيقُهُ وقد ضاق منّى فى تحمّله الصدرُ

علىّ عزيزٌ أن أسير مع العِدى وتبقى بوادى الطّف يصهُرک الحرُ

أخى إن سرى جسمى فقلبى بكربلا مقيمٌ إلى أن ينقضى منّى العمرُ

أخى كُلُّ رُزءٍ غير رُزئِک هيّنٌ وما بسواه اشتدّ واعصوصب الأمرُ

أخى أنت عن جدّى وأُمّى وعن أبى وعن أخى المسموم سلوى ولى ذخرُ

متى شاهدت عيناى وجهَک شاهدتْ وجوهَهَم الغرّا وكان بک اليُسرُ

ومُذ غبت عنّى غاب عنّى جميعهُم ففقدک كسرٌ ليس يرجى له جبرُ(1)

***

أنه زينب اليحجون عنّى سليت المصايب ما سلنى

مصايب حسين الدوهننى نزلن على عيونى وعمنّى

1- (1) القصيدة لشاعر أهل البيت عليهم السلام السيد رضا الهندى رحمه الله، وقد تقدَّمت ترجمته فى المحاضرة الخامسة.

قال تعالى: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَ مَا اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ (1).

لقد وصف الله تبارک وتعالى نفسه بصفاته اللائقة به ومن صفاته الجمالية أنّه حليمٌ تباركت أسماؤه، وأنّه يُمهل عبادَه ولكن لا يُهملهم حتّى ولو عصوه، فيصبر عليهم، بل هو الصبور تبارک وتعالى، ولكن بعد أن يرى أنّ هؤلاء العباد لا يريدون إصلاح أنفسِهم، ولا يغيّرون ما فيها، يرفع عنهم فيضه، قال تعالى: إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ (2)، ولو رجعنا إلى الواقع لرأينا ذلک بوضوح، فهذه الآية تُحدّثنا عن حصول القسوة فى قلوب أقوامٍ بعد مرور زمان من الحلم الإلهى والفيض والنعم.

وهؤلاء القوم هم بنو إسرائيل، والآية المباركة جاءت «بعد قصّة البقرة التى ذبحها بنو إسرائيل وكانوا يُجادلون موسى عليه السلام بغية التخلّص من ذبحها، ولكن قاموا بذبحها وما كادوا يفعلون، وكان ذبح البقرة؛ لأجل تحديد هوية القاتل الذى قام بقتل ابن عمّه غيلةً، واتُّهِم بقتله شخصاً آخر من بنى إسرائيل، فصاروا يتدارؤون ويدفعون عن أنفسهم هذه التهمة، فرجعوا فى أمره إلى موسى عليه السلام وشاء الله أن يُظهر حقيقة الأمر بنحو مُعجزٍ، فقال لهم موسى عليه السلام: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً فلمّا ذبحوها - بعد محاولات طويلة - أمر سبحانه أن يضربوا المقتول ببعض البقرة حتّى يحيى المقتول ويُعيّن هوية القاتل، قال سبحانه: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذلِکَ يُحْيِ اللّهُ الْمَوْتى وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، ومع رؤية هذه المعجزة الكبرى التى كان من المفروض أن تزيد فى إيمانهم وانصياعهم لنبيهم موسى عليه السلام لكن - وللأسف - قست قلوبهم بنحو يحكى سبحانه شدّة تلک القسوة

1- (1) البقرة: آية 74.

2- (2) الرعد: آية 11.

ويقول: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَهِیَ کَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً »(1).

قسوةُ القلوبِ وأسبابها:

القسوة فی اللغة: الغلظة، وقست غلظت ویبست(2) ، وأصلها: الصلابة فی کلّ شیء، ومن المجاز قسا الدرهم یقسوا قسواً، زاف أی: ردأ فهو قسیّ (3). وبالتأمّل فی الآیة الشریفة نری أنّها جاءت فی مقام ذمّ بنی إسرائیل علی هذه القسوة وتشبیه قلوبهم بالحجارة، ثمَّ الإعتذار للحجارة، وهذا دلیل علی أنّ لهم الدور الکبیر فی عروض هذه القسوة علی قلوبهم، وإلاّ لم یصح ذمّهم علی قسوتهم، قال تعالی: فَبِما نَقْضِهِمْ مِیثاقَهُمْ لَعَنّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِیَةً یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمّا ذُکِّرُوا بِهِ (4) ، فالآیة المبارکة تُعلّل القسوة بسبب نقضهم المیثاق؛ «ولأجل ذلک جعل سبحانه قلوبهم قاسیة لا یتأثّرون بوعظ الأنبیاء وإنذارهم، ولا یکترثون من تحریف الدین وغیره، والآیتان – الآیة محل البحث وهذه الآیة – تعبّران عن دور العبد فی مصیره، وأنّه سبحانه غبَّ فعل العبد، یعاقبهم بلعنهم، وجعلِ قلوبهم قاسیة، وله نسبتان إلی العبد وإلی الله»(5).

إذن قسوة القلوب ناشئة من أفعال العبد نفسه، ومن هنا صار لزاماً علینا أن نتعرّف علی أسباب القسوة بحسب ما روی فی ذلک:

فقد روی عن النبیِّ صلی الله علیه و آله أنَّه قال:

«یا علی، ثلاث یقسین القلب: إستماع اللهو، وطلب الصید، وإتیان باب السلطان»(6).

1- (1) الأمثال فی القرآن الکریم: ص 95 - ص 96.

2- (2) انظر: لسان العرب: ج 15، ص 181.

3- (3) انظر: تاج العروس: ج 20، ص 78.

4- (4) المائدة: آیة 13.

5- (5) لُب الأثر فی الجبر والقدر: ص 252 - ص 253.

6- (6) روضة الواعظین: ص 414.

وعن أبی عبد الله علیه السلام أنّه قال:

«قال أمیر المؤمنین (صلوات الله علیه): «لُمتان: لمّة(1) من الشیطان، ولمّة من الملک، فلمّة الملک الرقّة والفهم، ولُمّة الشیطان السهو والقسوة»(2).

وفی الکافی الشریف فی مناجاة موسی علیه السلام:

«یا موسی، لا تطوّل فی الدنیا أملک فیقسو قلبک، والقاسی القلب منّی بعید»(3).

وعن الإمام الصّادق علیه السلام أنّه قال:

«أنهاکم أن تطرحوا التراب علی ذوی الأرحام؛ فإنَّ ذلک یورث القسوة، ومَن قسا قلبُه بَعُدَ مِن ربّه عزّ وجلّ»(4).

وعنه صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«لا تکثروا الکلام بغیر ذکر الله؛ فإنّ کثرة الکلام بغیر ذکر الله قسوة للقلب، وأنَّ أبعد الناس من الله القلب القاسی»(5).

وعن إمامنا الصّادق علیه السلام أنّه قال:

«ولیس شیء أضرَّ لقلب المؤمن من کثرة الأکل، وهی مورثة لشیئین: قسوة القلب، وهیجان الشهوة»(6).

وروی عن نبی الله عیسی بن مریم علیه السلام أنّه قال:

«قسوة القلب من جفوة العیون، وجفوة العیون من کثرة الذنوب، وکثرة الذنوب من حُبِّ الدنیا، وحبّ الدنیا رأسُ کُلِّ خطیئة»(7).

وعن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قال:

«ما جفّت الدموع إلاّ لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلاّ لکثرة الذنوب»(8).

1- (1) اللمّة: الهمّة والخطرة تقع فی القلب. النهایة: ج 4، ص 273.

2- (2) الکافی: ج 2، ص 230، ح 3.

3- (3) الکافی: ج 2، ص 329، ح 1.

4- (4) علل الشرائع: ج 1، ص 304 - ص 305، ح 1.

5- (5) وسائل الشیعة: ج 12، ص 194، ح 19، عن أمالی الشیخ الطوسی: ص 3، ح 1.

6- (6) مستدرک الوسائل: ج 12، ص 94، ح 8.

7- (7) مستدرک الوسائل: ج 12، ص 96، ح 13.

8- (8) علل الشرائع: ج 1، ص 81، ح 1.

وخلاصة هذه النصوص الشريفة أنّ موجبات قساوة القلب عدّة أُمور:

الأوّل: استماع اللهو، ويمكن أن يقصد به الغناء، أو مطلق ما يشغل من هوى أو طرب(1)، أو هو لعب لا يعقب نفعاً، وسمّي لهواً؛ لأنّه يشغل عمّا يعنى من قولهم: ألها فى الشيء أى: شغلنى، كمّا فسره أبو هلال العسكرى(2).

الثانى: طلب الصيد، والمقصود به صيد اللهو الذى هو محرّم عند المشهور، ودخوله فى سفر المعصية كما صرّح به السيد الخوئى رحمه الله(3).

الثالث: إتيان باب السلطان، ويطلق على الحاكم الجائر، كما روى ذلک فى فقه الرضا عليه السلام «وإذا فزعت من سلطان أو غيره فقل: حسبى الله...»(4).

الرابع: طول الأمل فى الدنيا.

الخامس: طرح التراب على الأرحام عند الدفن.

السادس: كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى.

السابع: كثرة الأكل.

الثامن: كثرة الذنوب، وهى تجمع الكثير من الأسباب المتقدّمة.

هذه بعض أسباب وموجبات قسوة القلب، ويبقى ما هو المطلوب منا إزاءها؟!

ممّا لا شكّ فيه أن تجنّب هذه الموارد يؤثّر تأثيراً إيجابياً فى ارتفاع قسوة القلب، ولا نقول أنّه العلاج، بل هو الوقاية، وهى خير من العلاج، كما اشتهر عند الأطباء ذلک، وعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«ترک الذنب أهون من طلب التوبة»(5).

1- (1) انظر: كتاب العين: ج 4، ص 87.

2- (2) انظر: الفروق اللغوية: ص 469.

3- (3) انظر: كتاب الصلاة: ج 8، ص 117.

4- (4) فقه الرضا: ص 393، ح 112.

5- (5) نهج البلاغة: ج 4، ص 42، رقم 170.

وأمّا ما يوجب رقّة القلب، فقد روى:

«أنّ بعض أنبياء بنى إسـرائيل شـكا إلى الله تعالى قسوة القلب وقلّـة الدمعة، فأوحى الله إليه أن كُلِ العدس، فأكلَ العدس، فرقّ قلبُه وكثُرت دمعته»(1).

ومن العلاج أيضاً مسح رأس اليتيم، فقد روى عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنَّه قال:

«مَن أنكر منكم قساوة قلبه فليُدن يتيماً فيلاطفه وليمسح رأسه، يلين قلبُه بإذن الله عزّ وجلّ، فإنَّ لليتيم حقّاً»(2).

قلوبٌ تشبه الحجارة:

ثمَّ تنتقل الآية الشريفة لتعرّفنا على حقيقة تلك القلوب القاسية، وعلى مدى تلك القسوة وشدّتها.

فيأتى الجواب المفزع بأنّ قساوة تلك القلوب بلغت الذروة، فهى كالحجارة أو أشدّ قسوة، أى: لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة.

وقد يسأل سائل عن معنى (أو) هنا، وظاهرها يفيد الشكّ الذى لا يجوز عليه؟

وقد أجاب العلماء عن ذلك بوجوه:

الـوجه الأـول: أن تكون للإباحـة، كقولهم: جـالس الحسن أو ابن سـيرين، فيكون معنى الآيـة: إن شـبّهتم قلوبهم بالحجـارة أصـبتم، وإن شبّهتموها بما هو أشدّ أصبتم، وإن شبّهتموها بالجميع فكذلك.

الوجه الثانى: أن تكون (أو) للتفصيل، فيكون معنى الآية: أنَّ بعضهم قلوبهم كالحجارة، وبعضهم أشدّ منها.

الوجه الثالث: أن تكون (أو) هنا مبهمة بالنسبة للمخاطب، وإن كان الله تعالى عالماً

1- (1) المحاسن: ج 2، ص 504، ح 639.
2- (2) وسائل الشيعة: ج 3، ص 286، ح 3.

بـذلک، فیکون معنی الآیة: إنَّ قلوبهم کأحد هذین لا یخرج عنهما، کقولهم: أکلت بسـرة أو تمرة، وهو یعلم ما أکل علی التفصـیل، إلاّ أنّه أبهمه علی المخـاطب، وکـذلک الآیـة؛ لأنّ الغرض فیها أن یخبر تعالی عن شـدّة قسوة قلوبهم، وأنّها ممّا لا تثنی لوعظ ولا تصـغی لحقّ، فسواء کانت فی القسوة کالحجارة أم أشدّ منها، فقد تمَّ ما أرید إلیه من الغرض فی وصفها وذمّها.

الوجه الرابع: أن تکون بمعنی بل، کقوله تعالی: وَ أَرْسَلْناهُ إِلی مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیدُونَ (1) ، وتکون فائدة هذا أنَّ قلوب هؤلاء فی بعض الأحوال مع القسوة والعدول عن تصوّر الحقّ والتفکیر فیه ربما لانت بعض اللین، وفی حال أُخری تکون فی نهایة البعد عن الحقّ وکادت تصغی إلی الحقّ، فتکون فی هـذه الحال کالحجارة التی ربما لانت، وفی حالٍ أُخری ربما تکون فی نهایـة البعـد عن الحقّ والنفور عنه، فتکون فی هذه الحال أشدّ قسوة من الحجارة(2).

وقد أضاف الشیخ الطوسی وجهین آخرین یمکن رجوعهما إلی ما ذُکر(3).

الحجارةُ ألین من قلوبِ بنی إسرائیل:

ثمّ نجد أنّ القرآن الکریم عذر الحجارة، ولم یعذر قلوب بنی إسرائیل القاسیة، وعلّل ذلک بأُمور ثلاثة:

الأمر الأول: وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما یَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ أی: تفجر الأنهار من الحجارة کالعیون الجاریـة من الجبال الصـخریة(4) ، وقوبل فیه بین الحجارة والماء؛ لکون

1- (1) الصافات: آیة 147.

2- (2) انظر: أمالی السید المرتضی: ج 3، ص 142 - ص 149 نقلناه باختصار وتصرّف یسیر.

3- (3) التبیان: ج 1، ص 306 - ص 307.

4- (4) الأمثال فی القرآن الکریم: ص 96 - ص 97.

الحجارة يضرب بها المثل فی الصلاة، ككون الماء يضرب به المثل فی اللين، فهذه الحجارة علی كمال صلابتها يتفجّر منها الأنهار علی لين مائها، وتشقّق فيخرج منها الماء علی لينه وصلابتها، ولا يصدر من قلوبهم حال يلائم الحقّ، ولا قول حقّ يلائم الكمال الواقع(1).

فأعذر الحجارة وعاب قلوبهم بقساوتها حين لم تلن بذكر الله ولا بالمواعظ، وقيل: أراد به حجراً مخصوصاً، وهو حجر موسی عليه السلام الذی كان تخرج منه العيون(2).

وبالفعل بعض الحجارة ينبع منها الماء؛ لذا روی: «أنّ رسول الله صلی الله عليه و آله اجتاز بحجر ينبعُ منه ماء كثير، فتعجّب من ذلک، فسأل الله انطاقه، فقال له: لِمَ يخرج منک الماء الكثير معَ صغرک؟! فقال: من بكاء حزنٍ، حيث سمعت بقولک: ناراً وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَةُ (3) ، وأخاف أن أكون من تلک الحجارة. فأجابه الله وبشّره النبی بذلک، ثمّ تركه ومضی، ثمّ عاد إليه وبعد وقت رآه ينبع كما كان، فقال: ألم يأمنک الله؟ فقال: فذلک بكاء الحزن وهذا بكاء السرور»(4).

الأمر الثانی: إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ «كالعيون الحادثة عند الزلازل المستتبعة للإنشقاق والانفجار المتعقّب لجريان الأنهار»(5).

وفی تفسير القرطبی: «قال مجاهد: ما تردّی حجر من رأس جبل، ولا تفجّر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء، إلاّ من خشية الله، نزل بذلک القرآن الكريم. ومثله عن ابن عباس وجريح»(6).

1- (1) انظر: تفسير الميزان: ج 1، ص 203.

2- (2) نسبه السمرقندی فی تفسيره إلی القيل. انظر: تفسير السمرقندی: ج 1، ص 92.

3- (3) التحريم: آية 6.

4- (4) انظر: الخرائج والجرائح: ج 1، ص 169، ح 259، عنه بحار الأنوار: ج 8، ص 297، ح 50.

5- (5) الأمثال فی القرآن الكريم: ص 97.

6- (6) تفسير القرطبی: ج 1، ص 465.

وهذا معناه أن: «لا امتناع عند الحجارة ممّا يحدث فيها من أمره وإن كانت قاسية، بل هى متصرّفة على مراده لا يعدم شىء ممّا قدر فيها، وبنو إسرائيل مع كثرة نعمه عليهم، وكثرة ما أراهم من الآيات يمتنعون عن طاعته، ولا- تلين قلوبهم لمعرفة حقّ، بل تقسو وتمتنع من ذلک»(1).

الأمر الثالث: إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ .

والأمر الأخير الذى تمتاز به الحجارة على تلک القلوب القاسية أنّها تهبط من خشية الله، وهذا أروع مدح لها، وأعلى ذمّ لهاتيک القلوب القاسية. وهبوط هذه الحجارة كما يحصل من الجبال العالية إلى الأودية المنخفضة من خشية الله، ولا مانع من أن يكون للهبوط علّة طبيعية كالصواعق التى تهبط بها الصخور، وعلّة معنوية كشف عنها الوحى وهى: الهبوط من خشية الله.

وعلى ضوء ذلک فالحجارة على الرغم من صلابتها تتأثّر طبقاً للعوامل السالفة الذكر، وأمّا قلوب بنى إسرائيل فهى صلبة لا تنفعل أمام وحيه سبحانه وبيان رسوله، فلا تفزع نفوسهم، ولا تخشع لأمره ونهيه.

ومن عجيب الأمر أنَّ بنى إسرائيل رأوا بأُمِّ أعينهم ليونة الحجارة، حيث استسقى موسى لقومه، فأمر بأن يضرب بعصاه الحجر، فلمّا ضربه انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط.

ثمّ إنّ ظاهر الآية نسبة الشعور إلى الحجارة، حيث إنّها تهبط من خشية الله، وهذه حقيقة علمية كشف عنها الوحى وإن لم يصل إليها الإنسان بأدواته الحسيّة(2) ، فقال تعالى:

1- (1) التبيان: ج 1، ص 311.

2- (2) انظر: الأمثال فى القرآن الكريم: ص 97.

وَ إِنْ مِنْ شَیْ ءٍ إِلاّ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لکِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ (1).

قال العلاّمة الطباطبائی رحمه الله: «وبالجملة فقوله: وَ إِنَّ مِنْها لَما یَهْبِطُ بیان ثانٍ لکون قلوبهم أقسی من الحجارة، فإنّ الحجارة تخشی اللهَ تعالی، فتهبط من خشیته، وقلوبهم لا تخشی الله تعالی ولا تهابة»(2).

وهذا صریح قوله سبحانه: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلی جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَةِ اللّهِ (3).

وقال الفخر الرازی: «أی: ومن الحجارة ما ینزل وما ینشقّ ویتزایل بعضه عن بعض عند الزلازل؛ من أجل ما یرید الله بذلک من خشیة عبادٍ له، وفزعهم إلیه بالدعاء والتوبة»(4).

فیکون معنی هذا الأمر: «من الحجارة ما یشقّق فیقطر منه الماء، وقلوبکم لا یجیء منها الکثیر من الخیر ولا القلیل، ومن الحجارة إن أقسم علیها باسم الله تهبط، ولیس فی قلوبکم شیء منه، فقالوا: یا مُحمّد: زعمت أنّ الحجارة ألین من قلوبنا وهذه الجبال بحضرتنا، فاستشهدها علی تصدیقک فإن نطقت بتصدیقک فأنت المحقّ، فخرجوا إلی أوعر جبلٍ، فقالوا: استشهده. فقال رسول الله صلی الله علیه و آله:

أسألک بجاه مُحمّدٍ وآله الطیبین الذین بذکر أسمائهم خفّف الله العرش علی کواهل ثمانیة من ملائکته بعد أن لم یقدروا علی تحریکه. فتحرّک الجبل وفاض الماء، ونادی أشهد أنّک رسول ربّ العالمین، وأنَّ هؤلاء الیهود کما وصفت أقسی من الحجارة...»(5).

1- (1) الإسراء: آیة 44.

2- (2) تفسیر المیزان: ج 1، ص 203.

3- (3) الحشر: آیة 21.

4- (4) تفسیر الرازی: ج 3، ص 131.

5- (5) قصص الأنبیاء (الراوندی): ص 288. الخرائج والجرائح: ج 2، ص 519 - ص 521.

وهناک روایات عدیدة یطول المقام بذکرها فی حدیث الأحجار والأشجار مع رسول الله صلی الله علیه و آله، فقد روی عنه صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«إنّ حجراً کان یُسلّم علیّ فی الجاهلیة إنّی لأعرفه الآن»(1).

ثمّ ختمت الآیة هذا التشبیه الرائع والتقریع اللاذع بقوله تعالی: وَ مَا اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ فالمعنی: «أنّ الله تعالی بالمرصاد لهؤلاء القاسیة قلوبهم، وحافظ لأعمالهم محصی لها، فهو یجازیهم بها فی الدنیا والآخرة، وهو کقوله تعالی: وَ ما کانَ رَبُّکَ نَسِیًّا ، وفی هذا وعید لهم وتخویف کبیر لینزجروا»(2).

«والغفلة عن الشیء ترکه علی وجه السهو والنسیان، فأخبرهم الله تعالی أنّه غیر غافل عن أعمالهم السیئة ولا ساهٍ عنها»(3).

ولذا نجد رسول الله صلی الله علیه و آله کلّما بالغ فی إکرام هؤلاء القوم القاسیة قلوبهم والإحسان إلیهم بالغوا فی إیذاء عترته، والإساءة إلیهم، وهظمهم وسبّهم، وشتمهم، وقتلهم وحبسهم وتشریدهم ونفیهم فی البلدان، حتی قال الشاعر واصفاً قلوبهم تلک:

قست القلوب فلم تمل لهدایةٍ تباً لهاتِیکَ القلوب القاسیة(4)

وبالفعل کانت قلوب القوم فی معرکة الطف کالحجارة، أو أشد قسوة، لم تنتفع بالمواعظ، بل کانوا یجعلون أصابعهم فی آذانهم کلّما وعظهم سیّد الشهداء علیه السلام، فتحوّلت قلوبهم کما قال تعالی: قُلُوبُنا غُلْفٌ 5 ، أی: علیها غشاوة وأغطیة لا تفقه ما تقول(5).

1- (1) تفسیر نور الثقلین: ج 1، ص 91، ح 247.

2- (2) تفسیر الرازی: ج 3، ص 133. والآیة فی سورة مریم: آیة 64.

3- (3) التبیان: ج 1، ص 312.

4- (4) من قصیدة رائعة للشیخ عبد الحسین الأعسم رحمه الله مطلعها: قد أوهنت جلدی الدیار الخالیة...

5- (6) انظر: التبیان: ج 3، ص 380.

فالحسين عليه السلام يخطب والأشعث بن قيس يقول: نحن لا ـ ندرى ما تقول، ولكن انزل على حكم بنى عمّک؛ فإنّهم لا يرونک إلاّ ما تحب.

فقال له الحسين: لا والله لا أعطيكم بيدى إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد. ثمّ قال: ألا وإنَّ الدعىَّ ابن الدعى قد ركز بين اثنتين؛ بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة(1).

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

1- (1) انظر: الإرشاد: ج 2، ص 98. اللهوف: ص 59.

المحاضرة العشرون: الدعاء سلاح المؤمن

اشارة

ص:257

مدارسُ آيات خلت من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مقفرُ العَرصاتِ

لآلِ رسولِ اللهِ بالخيف من منى وبالبيتِ والتعريفِ والجمراتِ

ديارُ عليٍّ والحسينِ وجعفرٍ وحمزةَ والسّجادِ ذى الثَفَناتِ

ديارٌ عفاها جورُ كلِّ منابذ ولم تعفُ للأيام والسنواتِ

أفاطمُ لو خلتِ الحُسينَ مجدّلاً وقد مات عَطشانا بشطِ فراتِ

إذن للطمتِ الخدَّ فاطمُ عنده وأجريتِ دمعَ العينِ فى الوجناتِ

أفاطمُ قومى يا ابنة الخير واندُبى نجومَ سماواتٍ بأرضِ فلات

قبورٌ بكوفانٍ وأُخرى بطيبةٍ وأُخرى بفخٍ نالها صلواتى

قبورٌ بجنبِ النهر من أرضِ كربلا مُعرَّسهم منها بشطِ فراتِ

تُوفوا عُطاشا بالفراتِ فليتنى تُوفيتُ فيهم قبلَ حين وفاتى

إلى الله أشكو لوعةً عند ذكرِهم سقتنى بكأسِ الثَّكل والفظعات

سأبكيهُمُ ما حجَّ للهِ راكبٌ وما ناحَ قُمرىٌ على الشجراتِ

سأبكيهُمُ ما ذرَّ فى الأُفقِ شارقٌ ونادى منادِ الخيرِ بالصّلواتِ

ديارُ رسولِ الله أصبحْنَ بَلقعاً وآلُ زيادٍ تسكُنُ الحُجراتِ

وآلُ زيادٍ فى القُصورِ مصونةً وآلُ رسولِ اللهِ فى الفَلواتِ (1)

1- (1) الأبيات من قصيدة رائعةٍ لشاعر أهل البيت عليهم السلام دعبل الخزاعى رحمه الله «هو دعبل بن على بن زرين بن سليمان الخزاعى، أبو على الشاعر المشهور، يعود نسبه إلى خزاعة إحدى قبائل اليمن الشهيرة. ولد سنة 148 ه -، أصله من الكوفة، ويقال: إنّه من قرقيسا وأقام ببغداد، له كتاب طبقات الشعراء وكتاب الواحد فى مثالب العرب ومناقبها، وله من الشّعر الكثير، حتى نقل عنه أنّه قال: مكثت نحو ستين سنة ليس من يوم ذرَّ شارقه إلاّ وأنا أقول فيه شعراً... وقد نظم فى جميع فنون الشّعر لكنّه ضاع منه الكثير، ومن الأسباب التى أدّت إلى إتلاف ديوانه أو فقده القهر والظّلم اللذين لاحقته

قال تعالى: وَ إِذا سَأَلَکَ عِبادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ فَلْیَسْتَجِیبُوا لِی وَ لْیُؤْمِنُوا بِی لَعَلَّهُمْ یَرْشُدُونَ (1).

لقد خلق الله تبارک وتعالى الإنسان وحثّه على العبادة والتفكّر، وهو غنّى عنهما، حيث يقول عزَّ من قائل (وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِیَعْبُدُونِ 2 ، وقال: وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الذِّکْرَ لِتُبَیِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَیْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (2) ، وقال جلّ وعلا: إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ اللّهَ غَنِیٌّ عَنْکُمْ وَ لا یَرْضى لِعِبادِهِ الْکُفْرَ وَ إِنْ تَشْکُرُوا یَرْضَهُ لَکُمْ (3).

وبيّن له طُرقاً إليه، وسبلاً يسلكها حال الشدّة والرخاء، ليس فيها من العناء لا عينٌ ولا أثر، وغايته تبارک وتعالى: أن يشدّنا إليه، وأن يجعلنا دائمين الصلة به.

ومن هذه الطرق والسبل الدعاء، وهو: «السؤال الذى أمر الله عباده فى كتابه، وأذِنَ لهم ورغّبهم إلى أن يدعوه ويسألوه، حتّى أنّه عدّ تركهم له اعتداء منهم إيّاه، وغفلةً من حضرة ربوبيته، ووعدهم بالإستجابة وأوعد بالاستكبار عنه»(4).

«[و] من عجائب علوم الإسلام وحقائق القرآن المبين أنَّه سبحانه رخَّصَ عبادَه، بل أمرهم أن يُكلّموه ويسرّوا إليه أسرارَهم، وسرائرَ قلوبهم. ووعدهم سبحانه أن يجيبهم ويقبلهم، وينظر إليهم نظرةً كريمة، يجيب بها دعوتهم، ويكشف بها كربتهم، وأمرهم أن يسألوه إجابة دعائهم بكلّ بيان وبكلّ لسان»(5).

«والذى عليه أكثر الخلق من المسلمين، وسائر أهل الملل وغيرهم: أنَّ الدعاء من

1- (1) البقرة: آية 186.

2- (3) النحل: آية 44.

3- (4) الزمر: آية 7.

4- (5) الذريعة: ج 8، ص 172.

5- (6) توحيد الإمامية: ص 191.

أقوى الأسـباب فى جلب المنافع ودفع المضارّ، وقد أخبر تعالى عن الكفّار أنّهم إذا مسّهم الضرّ فى البحر دعوا الله مخلصين له الدين، وأنَّ الإنسان إذا مسّه الضـرّ دعاه لجنبه، أو قاعداً أو قائماً، وإجابة الله لدعاء العبد مسلماً، كان أو كافراً، وإعطاؤه سؤله من جنس رزقه لهم، ونصره لهم، وهو ممّا توجبه الربوبية للعبد مطلقاً»(1).

سبب نزول الآية المباركة

تشـكّل أسباب النزول قرينةً على فهم الآية القرآنية، ولو قرينة ناقصة لكشف الستار عن محتوى الآية بشكل أكبر، وفى هذه الآية الشريفة ذكر أكثر المفسّرين فى سبب نزولها: أنّ سائلاً سأل النبىَّ صـلى الله عليه و آله: أقريب ربُّنا فنناجيه، أم بعيـدٌ فنناديه؟ فنزلت الآية: وَ إِذا سَأَلَکَ عِبادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ ...(2).

وقال المقـدّس الأردبيلى رحمه الله: «النـداء للبعيـد المحتاج إلى رفع الصوت، والمناجاة للقريب الـذى لا يحتاج إلى ذلک، والخطاب له صلى الله عليه و آله، والتقـدير فقـل لهم: إنى قريب - وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد، وإطلاعه على أحوالهم - بحال من قرب مكانه منهم، يعنى إذا سألک عبادى - وفى هـذه الإضافـة تشـريف لهم - عن كيفيّة أحوالى من جهة القرب والبعد، فقل: إنّى عليم أعلم دعاءكم، ولو كان فى غاية الخفاء، كما يسمع القريب إذا قرَّبَ فمه إلى أذنه يناجيه، بل أقرب من حبل الوريد، فأقبل دعاء الداعى إذا دعانى»(3).

أُسلوب الآية وبيانها

للأُسلوب القرآنى ما يشعر السامع والقارئ رقّة الخطاب وشدّته، بحسب اللحن

1- (1) شرح العقيدة الطحاوية: ص 519.

2- (2) انظر: تفسير مجمع البيان: ج 2، ص 18. التبيان: ج 2، ص 129. الكشّاف: ج 1، ص 337. جامع البيان: ج 2، ص 215.

3- (3) زبدة البيان: ص 165.

الذى تأتى به الآية الشريفة.

فمثلاً قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (1).

قال عنه إمامنا الصادق عليه السلام:

«لذّة ما فى النداء أزالت تعب العِبادة والعناء»(2).

ولـذّة ما فى النداء هى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إذ هكذا خطاب من الطبيعى أن يُخفّفَ آلامَ الصوم وشدّته، وهكذا قوله تعالى: (كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ فهكذا أُسلوب وبيان يخفّف من شدّة العناء.

وفى حياتنا اليومية رقّة الأُسلوب وجماليته لهما الأثر الكبير فى مطاوعة الآخرين لک فى الرأى، أو فى إنجاح الحاجّة المقصودة.

وكذلک العكس، فنرى القرآن الكريم يستعمل أُسلوباً آخر مع الكفّار والمنافقين ويزجرهم أشدّ الزجر، وأمثلة ذلک فى الكتاب العزيز كثيرة، منها قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (3).

فبالتأمّل فى هـذه الآيـة نرى أنَّ أُسـلوبها وبيانها اشـتمل على ألفاظ هى بـذاتها تحمل ألواناً من الشدّة مثل: (جاهد، اغلظ، مأواهم جهنم، وبئس المصير).

الخلاصة:

إنّ الله عزّ وجلّ – كما هو مقتضـى حكمته تبارک وتعالى – يسـتعمل اللفظ بحسب المخاطَب وشأنه، بل نفس المخاطب قـد يخاطبه تارةً بخطاب وأُخرى بخطاب آخر، وما هذه الآية الشريفة إلاّ مثالاً واضحاً على ما ذكرناه؛ لذلک أخذت مأخذاً كبيراً فى أبحاث

1- (1) البقرة: آية 183.

2- (2) فقه القرآن: ج 1، ص 72.

3- (3) التوبة: آية 71.

علماء التفسير.

قال العلاّمة الطباطبائی رحمه الله: «أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون، وأرقّ أُسلوب وأجمله، فقد وضع أساسه على التكلّم وحده دون الغيبة ونحوها، وفيه دلالة على كمال العناية بالأمر، ثُمَّ قولُه: عبادی. ولم يقل: الناس وما أشبهه يزيد فی هذه العناية، ثُمَّ حذف الواسطة فی الجواب، حيث قال: فإنّی قريب، ولم يقل: فقل إنّه قريب. ثُمَّ التأكيد ب - (إنّ)، ثمّ الإتيان بالصفة دون الفعل الدال على القرب؛ ليدلّ على ثبوت القرب ودوامه، ثُمَّ الدلالة على تجدد الإجابة واستمرارها؛ حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليهما، ثُمَّ تقييده الجواب، أعنی قوله: أجيب دعوة الداع. بقوله: إذا دعان، وهذا القيد لا يزيد على قوله: دعوة الداع المقيّد به شيئاً، بل هو عينه، وفيه دلالة على أنَّ دعوة الداع مجابة من غير شرط وقيد، كقوله تعالى: ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ المؤمن: 60، فهذه سبع نكات فی الآية تنبئ بالإهتمام فی أمر استجابة الدعاء والعناية بها، مع كون الآية قد كرر فيها - على إيجازها - ضمير المتكلم سبع مرّات، وهی الآية الوحيدة فی القرآن على هذا الوصف»(1).

القُرب الإلهی

كيف نتصور قرب الله إلينا وقربنا منه تبارک وتعالى، وهو الذی لا يحدّه زمانٌ ولا مكان ولا جهة، فهو «الذی لم يسبقه وقتٌ ولم يتقدّمه زمانٌ، ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، ولم يوصف بأين ولا مكان»(2).

لذا أجاب علماؤنا الأبرار - قديماً وحديثاً - عن هذا فبيّنوا القُرب الإلهی وحقيقته.

قال الشيخ الطوسی رحمه الله: «قوله: فَإِنِّی قَرِيبٌ قيل فی معناه قولان: أحدهما: إنّی قريب الإجابة: سريع الإجابة، فجاز ذلک لمشاكلة معنى قريب لسريع.

1- (1) تفسير الميزان: ج 2، ص 30 - ص 31.

2- (2) التبيان: ج 2، ص 13.

الثانی: قریب؛ لأنّه یسمع دعاءهم کما یسمعه القریب المسافة منهم، فجاز لفظة قریب، فحسن البیان بها. فأمّا قریب المسافة، فلا یجوز علیه تعالی؛ لأنّه من صفات المحدثات»(1).

وقال العلاّمة الطّباطبائی رحمه الله: «فهو سبحانه الحائل بین الشیء ونفسه، وهو الحائل بین الشیء وبین کلّ ما یقارنه، من ولدٍ أو زوجٍ أو صدیقٍ أو مالٍ أو جاهٍ أو حقٍّ، فهو أقرب إلی خلقه من کلّ شیء مفروض، فهو سبحانه قریب علی الإطلاق، کما قال تعالی: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْکُمْ وَ لکِنْ لا تُبْصِرُونَ الواقعة: 85، وقال تعالی: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ ق: 16، وقال تعالی: أَنَّ اللّهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ الأنفال: 24»(2).

شروط استجابة الدُعاء

لم تتعرّض الآیة المبارکة لأی شرطٍ فی استجابة الدعاء سوی لشرط

إِذا دَعانِ ، وکما تقدَّم عن العلاّمة الطّباطبائی أنّ هذا القید لا یزید علی قوله دعوة الداع مجابة، بل هو عینه، وقال: «وفیه دلالة علی أنَّ دعوة الداع مجابة من غیر شرط وقید».

لکن لا ـ ینکر أحدٌ بأن الکثیر من أدعیتنا لا تُجاب، والذی یُجاب هو القلیل، بل لو انعکس الأمر، وقلنا: إنَّ أکثر أدعیتنا تُجاب وبعضها لا یُجاب لا یضرُّ بأصل الإشکال، وهو أنَّ الآیة تقول: أُجِیبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ ونحن ندعو فلا نری الإجابة ولو فی بعض أدعیتنا، وأمّا الآیة الأُخری فهی أصرح، وهی قوله تعالی: ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ 3.

وقد طُرِحَ هذا الإشکال علی الإمام الصّادق علیه السلام من قِبَلِ بعضِهم، قال: «آیتان فی

1- (1) المصدر نفسه: ج 2، 130.

2- (2) تفسیر المیزان: ج 2، ص 31 - ص 32.

كتاب الله أطلبهما ولا أجدهما. قال عليه السلام: وما هما؟ قلت: قول الله عزّ وجلّ: ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ فندعوه فلا نرى إجابةً، قال عليه السلام: أفترى الله أخلف وعده؟! قلت: لا قال: فَلِمَ ذلک؟! قلت: لا أدرى، قال عليه السلام: ولكنّى أُخبرُکَ، مَن أطاع الله فيما أمره، ثمّ دعاه من جهة الدعاء أجابه. قلتُ: وما جهة الدعاء؟ قال عليه السلام: تبدأ فتحمد الله، وتذكر نعمه عندک، ثمَّ تشكره، ثُمَّ تُصلّى على النبيِّ وآله صلى الله عليه و آله، ثُمَّ تذكر ذنوبک فتقرّ بها، ثُمَّ تستغفر الله منها، فهذه جهة الدعاء...»(1).

إذن الآية الشريفة مطلقة، ولكن يقيّد هذا الإطلاق بيان معنى الدعاء الحقيقى، أو بعبارةٍ أُخرى: «إنّنى أجيب دعوة الداعى إذا دعانى على الوجه الصحيح، وبالشرط الذى يجب أن يقارن الدعاء»(2).

وقال الشّيخ الطّوسى رحمه الله: «فإن قيل: إذا كان لا يجيب كلَّ مَن دعاه فما معنى الآية؟ قلنا: معناه أنّ مَن دعا على شرائط الحكمة التى قدّمناها واقتضت المصلحة إجابته اجيب لا محالة»(3).

وقال الشّيخ الكفعمى: «إن قلت: نرى كثيراً من الناس يدعون فلا يُجابون فما معنى قوله تعالى أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ ؟ قلت: سبب منع الإجابة الإخلال بشرطها من طرف السائل، بأن يكون قد سأله غير مقيد بآداب الدعاء، ولا جامعاً لشرائطه، و إمّا بأن يكون قد سأل ما لا صلاح فيه، فربما توهم السائل صلاح أمر وفيه فساده، فلو عجّل الله إجابته لهلک به، قال سبحانه وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ»4.

1- (1) الكافى: ج 2، ص 486، ح 8. وسائل الشيعة: ج 7، ص 81 - ص 82، ح 7.

2- (2) أمالى السيد المرتضى: ج 3، ص 59.

3- (3) التبيان: ج 2، ص 129.

وقد مثّل بعض المتأخرين للدعاء الذى يعلم الله عزّ وجلّ أنّه لا مصلحة فيه، بالولد الذى يطلب من أبيه الشراب وهو يتصوّر أنّه نافع، ولكنّه فى الواقع سُمّاً، فإنَّ إجابة الوالد للولد تقتله، ومنعه عنه يؤذيه(1).

ولذا نقرأ فى دعاء الإفتتاح:

«ولعل الذى أبطأ عنّى هو خير لى؛ لعلمک بعاقبة الأُمور، فلم أرَ مولىً كريماً أصبر على عبدٍ لئيمٍ منک علىّ يا ربِّ»(2).

وبإختصار: إنَّ الذى يدعو من دون إستجماعه للشرائط لايسمّى داعياً حقيقةً، بل الداعى الحقيقى الذى يُجاب إذا دعا هو مَن كان جامعاً للشرائط، وحينئذٍ لانحتاج إلى تخصيص وتقييد لإطلاق الآية، فالآية تقول: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ ، وهذا لم يدعو وإنّما كان لاهياً، والله لايستجيب دعاءً من قلبٍ لاه(3).

إذ هناک شرائط لاستجابة الدعاء يمكن تلخيصها بما يلى:

أوّلاً: البدء بحمدِ الله تبارک وتعالى، والثناء عليه، وذكر نعمه عزّ وجلّ علينا، ثُمَّ نشكره، وقد أشار إمامُنا الصَّادقُ عليه السلام فى الرواية المتقدّمة إلى ذلک، وأنّه من جهة الدعاء التى لا بدّ أن نبدأ بها. والملاحظ فى أكثر أدعية المعصومين عليهم السلام ذلک، ويكفيک أن تراجع بعض أدعية الصّحيفة السّجادية؛ لتدرک تلک الحقيقة.

ثانياً: الصَّلاة على النبىِّ وآله عليهم السلام، فإنّها من شرائط استجابة الدعاء، كما فى الرواية المتقدّمة أيضاً، وأنّ الدُعاء محجوب حتّى يُصلّى على محمّدٍ وآلِ محمّد، فعن الإمام

1- (1) مثَّل به الشيخ الملكى التبريزى رحمه الله فى كتابه القيّم (المراقبات): ص 186، تحت عنوان (سرّ عدم استجابة دعاء الأخيار).

2- (2) مصباح المتهجد: ص 564.

3- (3) (3) ففى الكافى الشريف (ج 2، ص 473، ح 2): «عن أبى عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): لا يقبل الله عزّ وجلّ دعاء قلب لاهٍ، وكان على عليه السلام يقول: إذا دعا أحدكم للميت فلا يدعو له وقلبه لاهٍ عنه، ولكن ليجتهد له فى الدعاء».

الصَّادق علیه السلام أنّه قال:

«لا یزال الدعاء محجوباً عن السّماء حتّی یصلّی علی النبیِّ وآله»(1).

وعنه علیه السلام: قال:

«إیّاکم إذا أراد أحدکم أن یسأل من ربّه شیئاً من حوائج الدنیا والآخرة حتّی یبدأ بالثناء علی الله عزّ وجلّ والمدح له، والصلاة علی النبیِّ صلی الله علیه و آله، ثمَّ یسأل الله حوائجه»(2).

ویکفیک تصدیقاً لذلک ما جاء فی قصّة حمّاد بن عیسی مع الإمام الکاظم علیه السلام حیث قال: «دخلتُ علی أبی الحسن موسی بن جعفر علیه السلام بالبصرة، فقلتُ له: جُعلت فداک ادعُ اللهَ تعالی أن یرزقنی داراً وزوجة وولداً وخادماً، والحجّ فی کلِّ سنةٍ. قال: فرفع یده، ثمَّ قال:

اللَّهمَّ صلِّ علی مُحمّدٍ وآلِ مُحمّدٍ، وارزق حمّاد بنَ عیسی داراً وزوجة وولداً وخادماً والحجّ خمسین سنة».

«قال حمّاد: فلمّا اشترط خمسین سنة علمت أنّی لا أحجُّ أکثر من خمسین سنة.

قال حمّاد: وقد حججت ثمانیة وأربعین سنة، وهذه داری قد رزقتها، وهذه زوجتی وراء الستر تسمع کلامی، وهذا ابنی وهذه(3) خادمی، وقد رزقت کلَّ ذلک، فحجّ بعد هذا الکلام حجتین، فلمّا صار فی موضع الإحرام دخل یغتسل، فجاء الوادی فحمله فغرق، فمات رحمنا الله وإیّاه قبل أن یحجّ زیادة علی الخمسین، وقبره بسیّاله»(4).

ثالثاً: «أن یسعی الداعی إلی تطهیر أمواله من کلّ غصب وظلمٍ، وأن لا یکون طعامه من حرام، فعن رسول الله صلی الله علیه و آله قال:

«مَن أحبّ أن یُستجاب دُعاؤه فلیطب مطعمه وملبسه»(5).

1- (1) الدعوات: ص 31.

2- (2) الکافی: ج 2، ص 484، ح 1.

3- (3) کذا فی المصدر.

4- (4) قرب الإسناد: ص 310 - ص 311، ح 1210. عنه بحار الأنوار: ج 48، ص 47 - ص 48، ح 36.

5- (5) تفسیر الأمثل: ج 1، ص 533.

فبأكله للطعام الحرام، أو غصبه لأموال الآخرين، أو بإتيانه مطلق الذنب والمعصية، يكون قد عرّض نفسه لسخط الله، واستوجب حرمانه، فعن الإمام أبى جعفر الباقر عليه السلام قال:

«إنّ العبد يسأل الحاجة من حوائج الدنيا فيكون من شأن الله قضاءها إلى أجل قريب، أو وقتٍ بطىء، فيذنب العبد عند ذلک ذنباً، فيقول الله للملَک الموكّل بحاجته: لا تنجز حاجته واحرمه إيّاها؛ فإنّه تعرّض لسخطى، واستوجب الحرمان منّى»(1).

الرابع: أن يدعو بالمأثور ولا يخترع دُعاءً من عند نفسه، فللأسف نرى الكثير من الناس يدعون بأدعيةٍ مختَرَعةٍ، مع أنّ أدعية القرآن الكريم والنبيِّ العظيم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام كثيرة جداً، وفيها أعلى مراتب الأدب، وها هى الصّحيفة السّجادية للإمام زين العابدين عليه السلام فيها كلّ ما يخطر على بال الداعى.

قال السيد على الخراسانى: «أليس من الحرىّ بنا أن نأخذ أُصول الدعاء وفروعَه وآدابه وألفاظه من الذى يُجمع المؤرّخون على أنّه كان أعبد أهل زمانه، وأشخصهم، ومَن كان له قصب السبق فى هذا المضمار، لا يجاريه أحد؟! أليس من الحرىّ بنا أن نأخذه ممَّن لم يُنقل عن أحدٍ ما نُقل عنه، من عبادة وزهد حقيقيين...؟! كيف لا، وهو الإمام زين العابدين علىُّ بن الحسين بن علىِّ بن أبى طالب، الرابع من أئمة أهل البيت عليهم السلام وخلفاء النبىِّ فى إمامة المسلمين»(2).

وقد نهى الأئمة عليهم السلام أصحابهم أن يخترعوا دعاءً من عند أنفسهم، فعن عبد الرحيم القصير قال: «دخلتُ على أبى عبد الله عليه السلام فقلت: جُعلتُ فداک إنّى اخترعت دُعاءً، قال: دعنى من اختراعک، إذا نزل بک فافزع إلى رسول الله...»(3).

1- (1) الإختصاص: ص 31 - ص 32.

2- (2) مقدّمة الحديقة الهلالية: ص 13 - ص 14 للشيخ البهائى رحمه الله.

3- (3) الكافى: ج 3، ص 476، ح 1.

وقـد يخطـأ المخترع فى اختراعه، فيـدعو بما لا مصـلحة فيه، أو ما فيه المفسـدة، كما فى حال ذلک الرجل الـذى دعا وهو عنـد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «اللَّهُمَّ إنّى أعوذ بک من الفتنة، فقال عليه السلام:

أراک تتعوّذ من مالک وولدک، يقول الله عزّ وجلّ : أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ،

ولكن قل: اللَّهُمَّ إنّى أعوذ بک من مُضلاّت الفتن»(1).

فعلى المؤمن أن يلجأ إلى أبواب رحمـة الله تبارک وتعالى، ويتعلّم منهم كيفيّـة الدعاء، ولذا ترى فى أكثر الكُتب الفقهية - إن لم تكن كلّها - تركيز الفقهاء على كلمة (وأن يدعو بالمأثور)(2) ؛ لأجل الخلاص من هذه المحاذير.

الخـامس: العمل والسـعى مع الـدعاء، فلا ينبغى له أن يتوقّع الإجابـة من دون عملٍ دؤوب، وإن كانت رحمته تبارک وتعالى واسـعة، ففى الكافى الشّريف رُوى عن النبىِّ صلى الله عليه و آله أنَّه قال:

«إنّ أصـنافاً من أُمّتى لا يُسـتجاب لهم دعاؤهم: رجلٌ يـدعو على والديه، ورجل يدعو على غريمٍ ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يُشـهد عليه، ورجـلٌ يـدعو على امرأته وقـد جعل الله عزّ وجلّ تخليـة سبيلها بيـده، ورجلٌ يقعـد فى بيته ويقول: ربّ ارزقنى ولا يخرج ولا يطلب الرزق، فيقول الله عزّ وجلّ له: عبدى! ألم أجعل لک السبيل إلى الطلب والضـرب فى الأرض بجوارحٍ صحيحةٍ، فتكون قد أعذرت فيما بينى وبينک فى الطلب لاتّباع أمرى؛ ولكيلا تكون كلاًّ على أهلک...»(3).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال

: «الداعى بلا عمل كالرامى بلا وتر»(4).

قال الشيخ محمّد عبده: «الرامى من قوس بلا وتر يسقط سهمه ولا يصيب، والذى

1- (1) وسائل الشيعة: ج 7، ص 137، ح 1.
2- (2) انظر: شرائع الاسلام: ج 1، ص 179. تبصرة المتعلّمين: ص 54 وغيرهما.
3- (3) الكافى: ج 5، ص 67.
4- (4) نهج البلاغة: ج 4، ص 79، رقم 337.

يدعو الله ولا يعمل لا يجيب الله دُعاءَه»(1).

فالوتر بطبيعة حركته يدفع السهم نحو الهدف، وهكذا دور العمل فى الدعاء. و «من مجموع شروط الدعاء المذكورة نفهم أنّ الدعاء لا يُغنينا عن التوسل بالعوامل الطّبيعية، بل أكثر من ذلک يدفعنا إلى توفير شروط استجابة الدعاء فى أنفسنا، ويحدث بذلک تغييراً كبيراً فى حياة الإنسان وتجديداً لمسيرته، وإصلاحاً لنواقصه. أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الإسلامى أنّه مخدِّر؟!»(2).

وهناک شروط أُخرى وأركان مهمّة يطول المقام بذكرها، مثل الكون على الطهارة، واستقبال القبلة، والإلحاح، وما شاكل ذلک.

قال الشيخ الكفعمى رحمه الله: «واعلم أنّ للدعاء أركاناً وأسباباً وأوقاتاً وأجنحةً، فأركانه ستّة: حضور القلب، والرقّة، والإستكانة، والخشوع، وتعلّق القلب بالله وقطعه عن الأسباب، وأسبابه: الصلاة على مُحمّدٍ وآلِه، وأوقاته: الأسحار، وأجنحته: الصدق، فإذا وافق أركانَه قَوِىَ، وإن وافق أسبَابه أنجح، وإن وافق أوقاتَه فاز، وإن وافق أجنحته طار»(3).

الاستجابة لله والإيمان به عزّ وجلّ

ثمَّ تختم الآية الشريفة بقوله تعالى: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَ لْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ «أى: فليجبونى وليصدّقوا رسُلى»(4) ، أو «اقبلوا أنتم أيضاً دعوتى إذا دعوتكم وأمرتكم بالطاعات والدعاء، فاطلبوا واسألوا تضرعاً وخفية لا بقلب ساه وغير متوجّه

1- (1) نهج البلاغة: ج 4، ص 79 الهامش.

2- (2) تفسير الأمثل: ج 1، ص 435.

3- (3) المصباح: ص 770.

4- (4) أمالى السيّد المُرتضى: ج 3، ص 60.

ومتعقّل لمعنى ما تقولون، لا جهراً ورياءً، فإنّ الله لا يحب المعتدين، واطلبوا ولا تستكبروا ولا تتركوا الدعاء استكباراً وتجبّراً، وعدم اعتقاد الإجابة وعدم علمه بالسماع وقدرته على الإجابة، فإنَّ مَن فعل ذلک يدخل النار مقيماً فيها.. وَ لْيُؤْمِنُوا بِی أمر بتحصيل الإيمان، أی: التصديق بجميع ما جاء به الأنبياء لمَن لا إيمان له، وبالثبات والإستمرار للمتّصف به، أو التصديق بأنّه قادر على الإجابة لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ راجين فی ذلک كلّه الرشد، يعنی إصابة الحقّ والخير»(1).

فكلّ مَن استجاب لِلّهِ فی أن يدعوه، وآمن به إيماناً حقيقياً، ودعا الله عزّ وجلّ بشروط الدعاء أجابه الله تبارک وتعالى، ولو كان فی أوساط الغيران والجبال، فقد روی عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال:

«بينما ثلاثة نفر من بنی إسرائيل يسيرون إذ أخذهم المطر فآووا إلى غارٍ فی جبلٍ، فانطبقت عليهم صخرة فسدّت الغار، فقالوا: تعالوا! فليسأل الله عزّ وجلّ كلُّ رجل منّا بأفضل عمله، فقال أحدُهم: اللَّهُمَّ إن كنت تعلم أنّه كانت لی ابنة عمٍّ جميلة، وكنت أهواها، فدفعت إليها مائة دينار، فلمّا جلست منها مجلس الرجل من المرأة، قالت: اتقِ اللهِ يا ابن العم ولا تفض الخاتم إلاّ بحقٍ، فقمت عنها وتركت لها المائة دينار. اللَّهُمَّ إن كنت تعلم أنّی فعلتُ ذلک خشية منک وابتغاءً لما عندک فافرج عنّا، فانفرج عنهم ثلث الصخرة.

وقال الآخر: اللَّهُمَّ إن كنت تعلم أنّه كان لی أبوان، شيخان، كبيران، فكنت أغدو عليهما بصبوحهما، وأروح عليهما بغبوقهما، فغدوت عليهما يوماً فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أنصرف عنهما فيفقدان غداءهما فوقفت حتى استيقظا، فدفعت إليهما غداءهما. اللَّهُمَّ إن كنت تعلم أنّی إنَّما فعلت ذلک ابتغاء ما عندک، وخشية منک فافرج عنّا، فانفرج عنهم الثلث الثانی.

1- (1) زبدة البيان: ص 165.

وقال الثالث: اللّهُمَّ إن كنت تعلم أنّنی استأجرت أجیراً، فلمّا دفعت إلیه أجرته، قال: عملی أوفی من هذا، وترک لی أجرته، وقال: بینی وبینک یوم یؤخذ للمظلوم فیه من الظالم ومضـی، فابتعت له بأُجرته غنماً، فلم أزل أرعاها ونمت حتی تزایدت وکثرت، فلمّا کان بعد مدّةٍ من الدهر أتانی، فقال: یا هـذا إنَّ لی عنـدک أجرةً، عملت لک کـذا وکذا، فی وقت کذا وکذا، فقلت له: خذ الغنم فهی لک، فقال تمنعنی أجرتی وتهزأ بی؟ فقلت: خـذها فإنّها لک، فأخـذها ودعا لی. اللّهُمَّ إن کنت تعلم أنّی إنّما فعلت هذا خشـیةً منک، وابتغاءً لما عندک، فافرج عنّا، فانفرج عنهم باقی الصخرة وخرجوا یتماشون»(1).

فهؤلاء النفر إنما فرّج الله عنهم؛ لأنهم دعوا الله بأوثق الوسائل، وتوسّلوا إلیه بأحبّ الأعمال، فاسـتجاب الله دَعاءَهم، وکـذلک کان أدعیة أهل البیت علیهم السـلام فإنّهم یتوسّلون إلی الله بأحبّ خلقه إلیه، وکذا مَن سار علی نهجهم وتربّی فی کنفهم؛ ولذا توسّلت لیلی أُمّ علی الأکبر بأحبّ السـبل إلی الله تعالی، دخلت إلی خیمتها، رفعت یدَیها إلی السـماء قائلة: إلهی بغربة أبی عبد الله، إلهی بعطش أبی عبد الله، إلهی بوحدة أبی عبد الله، یا رادّ یُوسف إلی یعقوب، اردُد إلیّ ولدی علیّ.

ردت الخیمتها الغریبة تبچی علی ابنیها ابریبة

وتوسّلت لله بحبیبه بالحسین وشما بیه من مُصیبة

یا رادّ یوسف من مغیبه الیعقوب ومسچن نحیبة

أریدک علیّ سالم تجیبه

فاستجاب الله دُعاء لیلی لولدها، ونصر علیاً الأکبر علی بکر بن غانم، فقتله واحتزّ رأسه، وجاء إلی أبیه الحسین وهو یقول:

1- (1) الفرج عند الشدّة: ج 1، ص 28 - ص 29.

صيدُ الملوک أرانب وثعالب وإذا برزتُ فصيدیَ الأبطالُ

یـا أبـة هل من جائزةٍ؟ فقال له أبوه الحُسـین: بُنی علیّ، وأیُّ جائزةٍ تُریـدُ من أبیک؟ فقال: یا أبـة، فهل من شـربةٍ من ماء سبیل أتقّوی بِها علی الأعداء، فقال له أبو عبد الله علیه السـلام: بُنی علیّ، اصبر قلیلاً سیسـقیک جدُّک المُصـّطفی بکأسه الأوفی شْـربةً لا تظمأ بعدها أبداً، فرجع علیُّ الأکبر یُقاتل حتی قتل تمام المائتین، إلی أن وقع صریعاً، الله أکبر.

وکأنّی بالحوراء زینب علیها السلام هوت علی ذاک الجسد الطاهر تلثمه تقبیلاً:

هوت فوگه تشم خدَّه وتحبّه أو تطبگ طبرة الراس وتعصبه

او تفتح زیگ ثوبه او تجس گلبه لگت دمّه من افاده یفوّر(1)

***

إنّا لله وإنّا إلیه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلیّ العظیم،

وسیعلم الذین ظلموا آل مُحَمّد أیَّ مُنقلبٍ ینقلبون

والعاقبة للمتّقین.

1- (1) انظر: مجمع مصائب أهل البیت علیهم السلام: ج 1، ص 390 - ص 428.

المحاضرة الحادية والعشرون: أنصار الله عزّ وجلّ

اشارة

ص:275

أرى العُمرَ فیَ صرفِ الزمانِ یَبیدُ ویذهبُ لکن ما نَراهُ یعودُ

فکُنْ رَجُلاً إن تنضَّ أثوابُ عیشهِ رثاثاً فثوبُ الفخر مِنهُ جدیدُ

وإیّاکَ أن تشری الحیاةَ بذلّةٍ هیَ الموتُ والموتُ المُریحُ وجودُ

لذاکَ نضی ثوبَ الحیاةِ ابنُ فاطمٍ وخاضَ عُبابَ الموتِ وهو فریدُ

ولیس لدیهِ ناصرٌ غیرَ نیّفٍ وسبعینَ لیثاً ما هُناکَ مزیدُ

سطت وأنابیبُ الرماح کأنّها أُجامٌ وهم تحتَ الرّماحِ أُسودُ

تری لهُمُ عندَ القراعِ تباشُراً کأنَّ لهم یومَ الکریهةِ عیدُ

ومابرحوا عن نُصرةِ الدینِ والهُدی إلی أن تفانی جمعُهم وأُبیدُ(1)

***

وقف علیهم أبو عبد الله الحسین علیه السلام کأنّی به یخاطبهم:

یشبّان بالله لا تونّون بونینکم گلبی تگطعون

تهدّون حیلی من تلوجون یا ثمرة فوادی متحجون

مدری یبعد أهلی شتریدون بعیونکم لیَّ تدیرون

تشعبون گلبی من تلوجون

1- (1) الأبیات لشاعر أهل البیت السید سلیمان الحلّی، والد الشاعر الکبیر السید حیدر الحلی رحمهما الله. قال عنه عمر کحالة: «سلیمان الحلی (1222-1247 ه - 1807-1831 م) سلیمان بن داود بن سلیمان الحسینی الحلی، (أبو حیدر). أدیب، نحوی، شاعر. ولد بالحلة، وتوفی بها سنة 1247 ه تقریباً، ودفن بالنجف. من آثاره: أرجوزة نظم الجمل وشرحها، حاشیة علی الفاکهی سماها الدرر الحلیة فی إیضاح غوامض العربیة، وله شعر». معجم المؤلفین: ج 4، ص 263.

قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (1).

لقد أرسل الله تبارک وتعالى الأنبياء والمرسلين لهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ ولذا ترى أنَّ بلاغات الأنبياء والمرسلين وصلت إلى منتهى العطف واللين مع أقوامهم، حتّى إذا بلغت أرواحهم القُدسيّة أعلى درجات النصرة لله عزّ وجلّ، بدأوا يحذّرون أقوامهم من العذاب والسخط الذى ينتظرهم إذا ما خالفوا دعواتهم الإلهية، وهداياتهم الربّانية، وأمثلة ذلک كثيرة جداً، فقد جاء على لسان نبيِّ الله نوح عليه السلام ما قصّه لنا البارى عزّ وجلّ: قالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَ نَهاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِى إِلاّ فِراراً (6) وَ إِنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (2)، ثمّ يدعو نوح عليه السلام على قومه بعد اليأس من هدايتهم: وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً (26) إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَکَ وَ لا يَلِدُوا إِلاّ فاجِراً كَفّاراً (3).

ولم يختلف الأمر فى بقية الأنبياء والمرسلين عليهم السلام؛ لأنَّ المصدر للإرسال واحد، وهو البارى عزّ وجلّ، وأهدافهم واحدة، وأخلاقهم وسجاياهم كذلک، إلاّ ما اقتضت الظروف من أساليب الهداية والتبشير، وهذا ما يعبّر عنه ب - (تنوّع الأدوار والهدف الواحد).

وهذا صريح قوله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ (4).

1- (1) الصف: آية 14.

2- (2) نوح: آية 5 - آية 7.

3- (3) نوح: آية 26 - آية 27.

4- (4) الحديد: آية 25.

ولمّا نطالع القصص القرآنی ونمرّ بحیاة نبی الله عیسی بن مریم علیه السلام نجد هذا الأسلوب غایة فی الوضوح، حیث یقول عزّ وجلّ: وَ لَمّا جاءَ عِیسی بِالْبَیِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُکُمْ بِالْحِکْمَةِ وَ لِأُبَیِّنَ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِیهِ فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَطِیعُونِ (63) إِنَّ اللّهَ هُوَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَیْنِهِمْ فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ یَوْمٍ أَلِیمٍ (1).

وبالعودة إلی الآیة الشریفة نجد أنّ الله تبارک وتعالی یطلب من المؤمنین عین ما طلبه نبی الله عیسی علیه السلام لکونه مطلب حقّ، وکأنّما البارئ عزّ وجلّ أیّد هذه الدعوة المبارکة التی أطلقها هذا الرسول العظیم، وهی الدعوة لنصرة الله تبارک وتعالی.

ومن هنا ینبغی لنا أن نشیر إلی بعض النقاط:

الأُولی: «أنه لا ریب فی عدم حاجة القادر المتعال إلی نصرة أحد، فإنّه تعالی بوجوب وجوده غنیّ بالذات، والخلق محتاجون إلیه، کما قال تعالی شأنه: یا أَیُّهَا النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَی اللّهِ وَ اللّهُ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ (2).

فالمراد بنصرته کما ذکره المفسّرون ودلت علیه الأخبار هو نصرة دینه، ونصرة النبیّ والأئمة الأطهار، والأولیاء الأبرار.

وبعبارة أُخری: کلّ مَن یکون فی نصرته یکون فی رضا الله تعالی، فنصرته نصرة الله. وهذا المطلب فی غایة الوضوح بمکان، لا یحتاج إلی شاهد وبرهان.

الثانیة: أنّ المراد بنصرته هو الإقدام والمساعدة فی کلّ أمر عُلم تعلّق غرضه بوقوعه، ولهذا تتفاوت کیفیّة النصرة بحسب تفاوت الأزمان والأحوال والأمکنة»(3).

1- (1) الزخرف: آیة 63 - آیة 65.

2- (2) فاطر: آیة 15.

3- (3) مکیال المکارم: ج 2، ص 206.

الثالثة: لقد جاءت كلمة (أنصار الله) فى القرآن الكريم ثلاث مرات؛ اثنان منها فى الآية محل البحث، وواحدة فى قوله تعالى فَلَمّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللّهِ 1.

وورد فى موضع آخر بشارة من الله عزّ وجلّ لمَن يقدّم النصرة له تبارک وتعالى بنحو الشرط والجزاء، وهو قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (7) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (1).

ولو أردنا أن نجمع بين هذا الموضع والآية محل البحث لكان الكلام بهذا النسق الجميل (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللّهِ.... إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ....

ولأجل هذا الجزاء المهم لمَن ينصر الله عزّ وجلّ، كان حريّاً بكلّ إنسان أن يتعرّف على المراد بهذه النصرة زيادةً على ما تقدَّم إجمالاً.

كيف نكون أنصار اً لله عزّ وجلّ

بعد وضوح ما تقدّم فى النقطة الأُولى، وهى: إنّ الله تبارک وتعالى غنىٌّ عن العالمين، وكما يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«.. فلم ينصركم من ذُلٍ... استنصركم وله جنود السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.. أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملاً»(2).

إذن ما هذه النصرة حتّى نحاول أن نتّصف بها؛ لنكون ممَّن يحصل على الجزاء الوافر، وهو نصرة الله تبارک وتعالى له؟

هناک عدّة آراء للمفسّرين، أذكر أهمّها:

الرأى الأول: إنّ الكلام فيه حذف للمضاف، والمضاف المحذوف هو إمّا أن يكون

1- (2) محمّد: آية 7 - آية 8.

2- (3) نهج البلاغة: ج 2، ص 113.

الدين، أو الرسول، أو الوحى، أو الطريق، أو شىء من هذا القبيل، كما عليه جملة من المفسّرين(1).

ونصـرة الدين تكون بإظهار شعائره، ونصرة الرسول بمواساته والصبر على ما أصابه، كما صبر هو إذ كُسِرَتْ رُباعيتُه، وجُرِحَ وجهُه، وقُتل عمُّه، وأوذى بضروبٍ من الأذى، فواساكم مع ذلک بنفسه، فافعلوا أنتم كذلک أيضاً(2).

ونصرتنا له تبارک وتعالى بنصرة عباده، والقيام بحفظ حدوده، وإعانة عهوده، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه(3).

الرأى الثانى: وهناک مَن ذهب إلى أنّ المقصود ب - (أنصار الله): أنّهم أعانوا الله على هؤلاء الكفار، أى: مع معونة الله، وأنّهم جند لله فى الأرض، يتوجّهون إلى نصرة الله(4).

وعلى هـذا يكون هناک فرق بين قول عيسـى عليه السـلام مَنْ أَنْصارِى وقولهم نَحْنُ أَنْصارُ اللّهِ ، والفرق هو «أنّ نَحْنُ أَنْصارُ اللّهِ نحن الـذين ينصرون الله، ومعنى مَنْ أَنْصارِى مَن الأنصار الذى يختصّون ويكونون معى فى نصرة الله»(5) ، فلذا لاحظنا «أنّ الحواريين لم يقولوا: نحن أنصارک، بل لكى يُعربوا عن منتهى إيمانهم بالتوحيـد، وليؤكدّوا إخلاصـهم، ولكى لا يشمّ من كلامهم أىّ رائحة للشـرک قالوا: نحن أنصار الله ننصر دينه»(6).

1- (1) انظر: المحرر الوجيز: ج 5، ص 112. تفسير الرازى: ج 28، ص 48. التفسير الصافى: ج 6، ص 470. التبيان: ج 4، ص 455. تفسير البغوى: ج 3، ص 519، وج 4، ص 338.

2- (2) انظر: تفسير البغوى: ج 3، ص 519.

3- (3) انظر: تاج العروس: ج 7، ص 529.

4- (4) انظر: التبيان: ج 2، ص 472 - ص 473. الكشّاف: ج 4، ص 101.

5- (5) الكشّاف: ج 4، ص 101.

6- (6) تفسير الأمثل: ج 2، ص 512.

وخلاصة هـذين الرأيين هناک مَن يُقـدّر حـذف مضاف، بحسب ما يسـتفيده من القرائن، بأن يكون المضاف المحـذوف الدين، أو الرسول (عيسى)، أو السبيل، أو الطريق، أو الوحى، كما ذكرناه فى الرأى الأول.

أو لاـ يكون هنـاک مضـاف محـذوف، بـل الكلاـم يكون على مـا هو عليه، وأنَّ النصـرة لله تبارک وتعالى تكون بتحقيق مطلوبه عزّ وجلّ، ومطلُوبُه فى هـذه الآيـة مثلاً (قتل الكافرين)، فنصـرته بقتلهم، كما يشـير إليه ذيل الآيـة الشـريفة: فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصّ بَحُوا ظاهِرِينَ ، فالنصـرة نصـرة حقيقيّـة «فالشـيطان عدو الله يجتهد فى تحقيق الكفر، وغلبة أهل الإيمان، والله يطلب قمع الكفر وإهلاک أهله، وإفناء مَن اختار الإشراک بجهله، فمَن حقَّقَ نصرة الله حيث حقَّقَ مطلوبه...»(1).

مَن هم الحواريون ؟

الحوارى أصـله من الحور، وهو شدّة البياض، ولم يسـتعمل القرآن الكريم هذا اللفظ إلاّ فى خواص عيسـى عليه السـلام من أصحابه(2) ، وحوارى الرجل صفوته وخالصته(3) ، وقد كان عددهم اثنى عشر رجلاً، قيل: «سُمّوا بذلک؛ لأنّهم كانوا نوارنيين عليهم أثر العبادة، أو لنقاء قلوبهم كما ينقى الثوب بالتحوير»(4).

وقيل: «إنّهم كانوا قصّارين، فمرّ بهم عيسـى عليه السلام، وقال: مَن أنصارى إلى الله، أى: مع الله، قالوا: نحن أنصار الله. ويُقال: أنَّه مرّ بهم وهم يغسلون الثياب، فقال لهم: إيش تصنعون؟ قالوا نُطهّرُ أنفسنا من هذه الذنوب، فبايعوه. ويقال: إنّهم كانوا صيادين فمرّ

1- (1) تفسير الرازى: ج 28، ص 48.

2- (2) انظر: تفسير الميزان: ج 3، ص 203.

3- (3) انظر: الكشّاف: ج 1، ص 432.

4- (4) تفسير جوامع الجامع: ج 1، ص 290.

بهم وقال:

ألا أدلّكم على اصطياد أنفع لكم من هذا؟ قالوا: نعم، فقال: تعالوا نصطاد أنفسنا من شرّ إبليس، فبايعوه»(1).

فكأنّما عيسى عليه السلام دعاهم بقوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (2).

ويؤيد أنّهم كانوا يغسلون الثياب أنّ الذى يغسل الثياب يسمى بلغة النبط (هوارى)، وهو القصّار، فعُرِّبَت هذه اللفظة فصارت حوارى(3).

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«.. إنّ حوارى عيسى عليه السلام كانوا شيعته.. وإنّ شيعتنا حواريونا، وما كان حوارى عيسى عليه السلام بأطوع له من حوارينا لنا، وإنّما قال عيسى عليه السلام للحوارين: مَن أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله، فلا والله، ما نصروه من اليهود ولا قاتلوهم دونه، وشيعتنا والله، لم يزالوا منذ قبض الله عزّ ذكرُه رسولَه صلى الله عليه و آله ينصرونا ويقاتلون دوننا ويحرقون ويعذبون ويُشردون فى البلدان جزاهم الله عنّا خيراً»(4).

حواريّو الإسلام وأنصاره

نستطيع أن نقول إنَّ لكلِّ نبيٍّ يوجد خواص ومقرّبون وشيعة، وبالتالى يمكن تسميتهم بحواريه، كما جاء فى تصريح الرواية السابقة، وحواريو الإسلام هم أقرب الناس إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه و آله وأنصار دينه، فمّن دافع عن هذا الدين، وجاهد فى سبيل إعلاء كلمته حتّى استشهد دونه، أو بقى مدافعاً عنه إلى أن توفّاه الله تبارك فهو من

1- (1) تفسير السمرقندى: ج 1، ص 242.

2- (2) الصفّ: آية 10 - آية 11.

3- (3) انظر: تفسير الرازى: ج 8، ص 66.

4- (4) الكافى: ج 8، ص 268، ح 396، عنه بحار الأنوار: ج 14، ص 274، ح 7.

أنصاره؛ ولذا جاء فی زیارة قبور شهداء معرکة أحد:

«السَّلامُ علیکم یا أنصارَ اللهِ وأنصارَ رسولِهِ علیهِ وآلهِ السَّلام»(1).

وما روی فی حقّ شیعة الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام عن رسول الله صلی الله علیه و آله:

«یا علی شیعتُک شیعةُ اللهِ، وأنصارُکَ أنصارُ اللهِ»(2).

وأوضح من ذلِکَ کُلِّه أصحابُ الإمامِ الحُسین علیه السلام حیث ورد فیهم فی الزیارة الشَّریفة علی لسان الإمام الصَّادق علیه السلام:

«السَّلامُ علیکُم یا أولیاءَ اللهِ وأحبائَه، السَّلامُ علیکُم یا أصفیاءَ اللهِ وأودّائَه، السَّلامُ علیکُم یا أنصارَ دینِ اللهِ، السَّلامُ علیکُم یا أنصارَ رسولِ اللهِ، السَّلامُ علیکُم یا أنصارَ أمیرِ المؤمنینَ، السَّلامُ علیکُم یا أنصارَ فاطمةَ سیّدةِ نساءِ العالمینَ، السَّلامُ علیکُم یا أنصارَ أبی محمّدٍ الحسنِ بنِ علیٍّ الولی الناصح، السَّلامُ علیکُم یا أنصارَ أبی عبدِ اللهِ»(3).

هذه الطائفة هم أنصار الله، وأنصار رسوله، وأنصار أمیر المؤمنین، وأنصار الإمام الحسن المجتبی، والحسین شهید کربلاء، هم حواریو الإسلام وأنعِم بهم وأکرِم، وهناک حواریو الضلال والکفر والعناد، وهذا ما أشارت إلیه الآیة المبارکة، حیث قسّمت الحواریین إلی طائفتین، حیث یقول عزَّ من قائل: فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ وَ کَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَیَّدْنَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلی عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِینَ.

وفی تفسیر هذه الآیة المبارکة أنّ الطائفة التی کفرت هی التی قتلت شبیه عیسی وصلبته، والأُخری هی التی آمنت وقبلت أن یقتل شبیه عیسی بدلاً عن نبی الله عیسی علیه السلام، فَأَیَّدْنَا الَّذِینَ آمَنُوا ، وهی التی لم تقتل شبیه عیسی علی الطائفة الأُخری،

1- (1) بحار الأنوار: ج 97، ص 221.

2- (2) أمالی الشیخ الصدوق: ص 67.

3- (3) مصباح المتهجد: ص 723. إقبال الأعمال: ج 2، ص 65.

عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ 1.

وبقولهم هذا: (نحن أنصار الله) أصابوا الفضل من الله(1) ، ويكفيك الجزاء الذى ذكره تعالى إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ 3.

وهكذا كان أصحاب أبى عبد الله الحسين عليه السلام، فطوبى لهم نصروا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه و آله، ورحم الله الشاعر حيث يقول:

نصروا ابنَ بنتِ نبيِهم طُوبى لهم نالوا بنُصرتِه مراتبَ سامية

قد جاورُوه ها هنا بقبورهم وقصورُهُم يوم الجزاء متحاذية(2)

وفى كامل الزيارات:

«خرج أمير المؤمنين عليه السلام يسير بالناس حتّى إذا كان فى كربلاء على مسيرة ميل أو ميلين تقدّم بين أيديهم، حتّى صار بمصارع الشهداء، ثم قال: قبض فيها مائتا نبىّ، ومائتا وصى، ومائتا سبط كلهم شهداء باتباعهم، فطاف بها على بغلته خارجاً رجله من الركاب، فانشأ يقول: مناخُ رُكّابٍ، ومصارعُ شُهداء، لا سبَقَهُم مَن كانَ قبلَهُم، ولا يلحقُهُم من أتى بعدَهم»(3).

وهكذا دافعوا بكلّ غالٍ ونفيس عن دينهم، وقرآنهم، وإمامهم:

1- (2) انظر: تفسير ابن أبى حاتم: ج 2، ص 66.

2- (4) شجرة طوبى: ج 2، ص 421.

3- (5) كامل الزيارات: ص 443 - ص 454.

گظوا حگ العليهم دون الخيام ولا خلّوا خوات حسين تنظام

لمن طاحوا تفايض منهم الهام أو تهاووا مثل مهوى النجم من خرّ

هووا ما بين من گطعوا وريده ووگع راسه وبين الطاحت ايده

أو بين إمسبّح ابرميه شديده أوبين الصار للنشاب مكسر

يذكر بعضُ الخطباء أنَّه لمّا جاء حبيب إلى أبى عبد الله عليه السلام كلّمته زينب، وقالت له: عمّ يا حبيب، لا تقصّر فى نصرة أبى عبد الله الحسين المظلوم الغريب!

قالت له ذلک، ودموعها على خديّها، ودموع حبيب على خدّيه، فلمّا كان يوم العاشر من محرّم وبدأ القتال وقف أمام خيمتها وهو يقول: آهٍ لوجدک يا زينب، وأنت تُحمَلين على بعير ضالع.

وبرز حبيب للقتال، وكان يقاتل قتال الأبطال، ويضرب فى القوم يميناً وشمالاً، والحسين ينظر إليه، وبعد برهة من الزمن يرجع حبيب وقد أدار وجهه ولم يرد أن يرى الحسين عليه السلام وجهه، فاستدار الحسين؛ ليرى ما به، فنظر إليه فرأى دموعه تتحادر على خدّيه، فقال له الحسين عليه السلام: حبيبى يا حبيب، هل ذكرت الأهل والأوطان؟

فقال: لا، يا أبا عبد الله، ولكن انظر إلى باب الخيمة!

فنظر الحسين إلى باب الخيمة، وإذا بها زينب متّشحة بوشاح أُمّها فاطمة، فانكسر قلب شيخ الأنصار حبيب، ثمَّ قال للإمام الحسين عليه السلام: سيّدى يا أبا عبد الله، قل لزينب ترجع إلى الخيمة، فقد كسرت قلبى.

جاء الإمام الحسين عليه السلام لأُخته زينب، فقال لها: أُخيَّ زينب، ارجعى فقد كسرتى قلب حبيب بوقوفک! ارجعى فهو وأصحابه لا يقصّرون.

وبالفعل حتّى الذى يقع فيهم يوصى الآخر بالغريب المظلوم؛ لهذا عندما جاء الإمام الحسين عليه السلام مع حبيب، ووقفا عند رأس مسلم بن عوسجة، كان مسلم يوصى حبيب بالحسين عليه السلام.

مسلم بالمعارة حارب وطاح اجه حسين وحبيب بصحبته راح

لگو مسلم طعين الموت بيه لاح وگف يمّه حبيب يهل العيون

***

المنية لو وجه منها بعيده چا وصّيتنى بكل التريده

حبيب تريدنى عندى وصيّه شبيدى حالت علىّ المنية

أوصيک بغريب الغاضريه بحسين عنه لا تگصرون

***

نصروا ابن بنت نبيهم طوبى لهم نالوا بنصرته مراتب سامية

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:287

المحاضرة الثانية والعشرون: إحياء الموتى

اشارة

ص:289

فِداءٌ لِمَثْواکَ مِنْ مَضْجَعٍ تَنَوَّرَ بِالأبْلَجِ الأرْوَعِ

بِأَعبَقَ مِن نَفَحَاتِ الجِنانِ رَوْحاً وَمِن مِسْکِها أضوَعِ

وَرَعیاً لِیَومِکَ یَومِ الطُّفُوفِ وَسَقیاً لِأرضِکَ مِنْ مَصْرَعِ

وَحُزناً عَلَیکَ بِحَبسِ النُّفُوسِ عَلَی نَهْجِکَ النَّیِّرِ المَهْیَعِ

وَصَوْناً لِمَجْدِکَ مِنْ أنْ یُذالَ بِما أنْتَ تَأْباه مِنْ مُبدِعِ

فَیا أیُّها الوِترُ فِی الخالِدِینَ فَذّاً إلی الآنَ لَمْ یُشفَعِ

تَعالَیتَ مِنْ مُفْزِعٍ لِلحُتُوفِ فَبُورِکَ قَبْرُکَ مِنْ مَفْزَعِ

تَلوذُ الدُّهورُ فَمِنْ سُجَّدٍ عَلَی جانبیهِ ومِنْ رُکَّعِ

شَمَمْتُ ثَراکَ فَهَبَّ النسیمُ نَسیمُ الکرامةِ مِنْ بَلقَعِ

وَعَفَّرْتُ خَدّی بحیثُ استراحَ خَدٌّ تَفْرَّی وَلَمْ یَضرَعِ

وَحَیثُ سَنابکُ خَیلِ الطُّغَا ةِ جَالت عَلَیهِ وَلَمْ یَخشَعِ

وَطُفْتُ بِقَبْرِکَ طَوفَ الخیا لِ بِصَومَعَةِ المُلْهَمِ المُبْدِعِ

کأنَّ یداً من وراءِ الضریحِ حمراءَ مبتورةِ الإصبعِ

تمدُّ إلی عالمٍ بالخنوعِ والظیمُ ذی شَرقٍ مترع(1)

1- (1) الأبیات من قصیدة رائعة للشاعر الکبیر محمد مهدی الجواهری رحمه الله، قال عنه السید داخل حسن: «ولد الشاعر محمد مهدی الجواهری فی حدود سنة 1900 م (فی النجف الأشرف)، وهو ینتمی إلی أسرةٍ علمیةٍ عریقة تعرف بأسرة آل صاحب الجواهر، وهو من أبرز شعراء العراق بل العرب المعاصرین قاطبةً... له دیوان مطبوع فی أربع مجلدات، وقصیدته العینیة هذه هی من أروع ما قیل فی الإمام الحسین علیه السلام، وقد کُتب منها خمسة عشر بیتاً علی الباب الذّهبی فی مشهد الإمام الحسین علیه السلام، ویقول الأستاذ الباحث محمد سعید الطریحیّ فی کتابه (أجراس کربلاء): إنّ الجواهری حدّثه عن اعتزازه الکبیر بهذه القصیدة، وقال له: إنها زادی إلی الآخرة. توفی الجواهری فی دمشق سنة 1999 م، ودفن فی ضاحیة السیدة زینب علیها السلام». انظر: مَن لا یحضره الخطیب: ج 1، ص 221.

یم گبرک یبو السجاد دوم الدوم نتمنَّه نِطوف او من نطوف انطوف چنَّه ابروضة الجنة

وعنک مِن یِبَّعدنَّه الزمان انعیش بالوَنَّه

وبالزفره او بالحسره اوننذب أُمّک الزهره

نگلها ابظلعچ اوکسره نقسم علی الباری کون

نوصل گبر أبو الیمّه

گبرک کعبة الوفَّاد بیه امرادنه یحصل نِشم طیب التراب اللّی اعلی گبرک کبل لا نوصل

ومن نوصل نگول اشلون جسم ابن النبی اتفصَّل بسیوف اوسمر وبزان

***

قال تعالی: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ أَرِنِی کَیْفَ تُحْیِ الْمَوْتی قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلی وَ لکِنْ لِیَطْمَئِنَّ قَلْبِی قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّیْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَیْکَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلی کُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ یَأْتِینَکَ سَعْیاً وَ اعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (1).

لیس من المعیب أنّ الإنسان یسأل حتّی یعلم، أو یسأل حتّی یتیقّن، وإنّما المعیب أن یبقی علی جهله وشکّه، فلا یرفعهما بالسؤال.

والحال أنّ رسول الله صلی الله علیه و آله وأهل بیته الأطهار علیهم السلام أمرونا بالسؤال، فعن إمامنا الصّادق علیه السلام أنّه قال:

«العلمُ خزائن والمفاتیح السؤال، فاسألوا یرحمکم الله، فإنّه یؤجر

1- (1) البقرة: آیة 260.

أربعة: السائل، والمتكلّم، والمستمع، والمحبّ لهم»(1).

وقد يسأل السائل ويرتفع جهلُه وشكّه بمجرّد الجواب، وقد يُنظَّر له، وقد تصل الحالة إلى المعاينة والمشاهدة، فيرتفع عنه كُلُّ جهلٍ وشك بجميع مراتبه؛ لأنّه يرى ما سأل عنه يتحقّق أمامَ عينيه، أو يحال على مسألة تشبه ما سأل عنها، وهى عنده من اليقينيات، فتورثه اليقين أيضاً.

وعلى أساس وراثة اليقين الذى لا يتطرّق إليه أىُّ احتمالٍ آخر، ولأجل معرفة الحقيقة جاء سؤال الخليل عليه السلام لربّه تبارک وتعالى، وطلب منه المشاهدة لعملية إحياء الموتى، إذ قال: أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى.

السؤال طلباً لليقين

تقدّم قريباً أنَّ سؤال إبراهيم الخليل عليه السلام لربِّه عزّ وجلّ لم يكن ناشئاً من عدم إيمان الخليل، فإحياء الموتى إنَّما كان لطلب اليقين، وكان هناک مبررٌ لهذا السؤال.

ففى الكافى الشّريف عن الإمام الصّادق عليه السلام فى حديث قال:

«... ثمّ التفتَ إبراهيمُ عليه السلام فرأى جيفةً على ساحل البحر، نصفها فى الماء ونصفها فى البر، تجىء سباع البحر فتأكل ما فى الماء ثم ترجع، فيشدّ بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً، فعند ذلک تعجّب إبراهيم عليه السلام ممّا رأى وقال: رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قال: كيف تخرج ما تناسل، التى أكل بعضٌ ها بعضاً؟ قال: أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قال: قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ، يعنى حتّى أرى هذا كما رأيتُ الأشياء كُلَّها، قال: قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْکَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً فقطّعهنَّ واخلطهنَّ كما اختلطت هذه الجيفة فى السباع التى أكل بعضها بعضاً، فخلط ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَکَ

1- (1) روضة الواعضين: ص 7، ورواه فى المجازات النبويّة: ص 209، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

سَعْياً،

فلمّا دعاهن أجبنه، وكانت الجبال عشرة»(1).

و ذكرت بعض المصادر سبباً آخر لهذا السؤال، وهو أنّه لما حاجّ نمرود فى ربّه، قال إبراهيم عليه السلام: « رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ ، قال نمرود: أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ وموّه على الأغبياء، ودلّس على الضعفاء بإطلاق مَن أراد قتله من السجن، وقتل مَن برئَ من عِرضِ الناس، فلمّا بهت لقوله تعالى: فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ ، طالبه نمرود بإحياء الموتى، فأخذ أربعة من الطير»(2).

وما سأل عنه إبراهيم عليه السلام بقى شبهة فى أذهان الكثير من المعاندين، وإلى زماننا، وفى زمان الأئمة عليهم السلام أخذ الكثير من الزنادقة يصرخون بها فى أزقّة المُدن، وهى ما يعبّر عنه بشبهة (الآكل والمأكول).

وخلاصتها: أنّ الإنسان يعود يوم القيامة بهذا الجسد المادى، وتعود روحه أيضاً، فإذا استحال جسد الإنسان إلى تراب وامتصّته جذور الأشجار والنباتات، وأصبح ثمرٌ أكله إنسان آخر، وغدا جزءاً من جسده، أو أنَّ إنساناً أكل لحمّ إنسانٍ آخر، فإلى أىِّ جسدٍ ستعود هذه الأجزاء المأكولة؟!(3).

والجواب: «إنَّ الروح لا تستطيع أن تتفاعل تفاعلاً كاملاً إلاّ مع الجسد الذى تربّت وتكاملت معه، لذلک ففى البعث لا بدّ من حضور الجسد السابق نفسه، لكى تستطيع الروح الإندماج به، وتستأنف نشاطها فى عالم أسمى، ولتجنى ثمارَ أعمالِها»(4).

وفى زمان الإمام الصّادق عليه السلام روى هشام بن الحكم أنّه قال الزنديق للإمام

1- (1) الكافى: ج 8، ص 305، ح 473.

2- (2) الثاقب فى المناقب: ص 137.

3- (3) انظر: تفسير الأمثل: ج 2، ص 286.

4- (4) تفسير الأمثل: ج 2، ص 288.

الصّادق عليه السلام: «أنّى للروح بالبعث؟! والبدن قد بلى، والأعضاء قد تفرّقت، فعضو فى بلدةٍ تأكلها سباعُها، وعضو بأخرى تمزّقه هوامّها، وعضو قد صار تُراباً بنى مع الطين حائط! قال: إنّ الذى أنشأه من غيرِ شىءٍ، وصوّره على خير مثالٍ كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه. قال أوضح لى ذلک. فأوضح له»(1).

والخلاصة: إنّ سؤال إبراهيم عليه السلام ربّه أن يريه إحياء الموتى إنّما كان لأجل اليقين أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى.

هل الواقعة على نحو الحقيقة أو المثال ؟

ثمَّ إنّه قد وقع الخلاف بين المفسّرين فى أنّ الأمر بالذبح هل كان على نحو الحقيقة أو مجرّد مثال قرّب به للخليل إبراهيم عليه السلام؟ المشهور بين المفسّرين وما دّلت عليه الروايات والنقول التاريخية هو: أنّ هذه الحادثة كانت على نحو الحقيقة، وأنّها وقعت أمام عينى خليل الله إبراهيم عليه السلام.

ولكن البعض من المفسّرين ذهب إلى الرأى الآخر، وأنّه ليس فى هذه الآية ما يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام ذبح الطيور، وبعد ذلک عادت إلى الحياة من جديد بأمر الله تعالى، بل أنّ الآية فى صدد بيان مثال لتوضيح مسألة المعاد، يعنى أنّک يا إبراهيم خُذْ أربعةً من الطّير، فضمّها إليک حتى تستأنسَ بک بحيث تجيب دعوتک إذا دعوتها، فإنّ الطيور من أشدِّ الحيوانات استعداداً لذلک، ثمَّ اجعل كلَّ واحدةٍ منهنّ على جبل، ثمَّ أدعُها، فإنّها تُسرع إليک، وهذه المسألة اليسيرة بالنسبة لک تماثل فى سهولتها ويسرها مسألة إحياء الأموات، وجمع أجزائها المتناثرة بالنسبة إلى الله تعالى.

فعلى هذا يكون أمر الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فى الطيور الأربعة لا يعنى أن يقدم إبراهيم

1- (1) انظر: الاحتجاج: ج 2، ص 97.

على هذا العمل حتماً، بل إنّه مجرّد بيان مثالٍ وتشبيه، كأن يقول شخص لآخر – لبيان سهولة الأمر عليه –: اشرب هذا القدح من الماء حتى انهى هذا العمل، ويريد بذلک بيان سهولته، لا أنَّ الآخر يجب عليه أن يشرب الماء.

واستدلّ أنصار النظرية الثانية بكلمة فَصُرْهُنَّ إِلَيْکَ ، وقالوا: إنّ هذه الجملة إذا كانت متعدية بحرف (إلى) فتكون بمعنى الأنس والميل، فعلى هذا يكون مفهوم الجملة: (خذ هذه الطيور وآنسهى بک) مضافاً إلى أنَّ الضمائر فى (صُرهنَّ) و (منهنَّ) و (ادعُهنَّ) كُلّها تعود إلى الطّيور، وهذا لا يكون سليماً إلاّ إذا أخذنا بهذه النظرية؛ لأنّه على التفسير المشهور تعود بعض الضمائر على نفس الطيور، ويعود البعض الآخر منها على أجزاء الطيور، وهذا غير مستساغ فى الإستعمال.

الجواب عن هذه النظرية:

أولاً: إنّ إبراهيمَ عليه السلام طلب من الله تعالى المُشاهدة الحسّية للمعاد والبعث؛ لكى يطمئن قلبه، ولا شک أنَّ ضربَ المثل والتشبيه وتقريب الصورة لا يجسّد مشهداً، ولا يكون مدعاة لتطمين الخاطر، فنبىُّ الله مؤمن بالمعاد عقلاً ومنطقاً، ولكنّه كان يريد أن يُدرِک ذلک عن طريق الحسِّ أيضاً.

وثانياً: لقد كان المقصود أن يشاهد إبراهيم عليه السلام نموذجاً من البعث وعودة الأموات إلى الحياة بعد أن تلاشت أجسادها، وهذا لا يتناسب مع تفسير كلمة (صرهن) ب – (آنسهن) أو (صح بهنَّ) وذلک لقوله تعالى ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً فهذا التعبير قرينة قوية على الرأى المشهور فى وقوع الحادثة على نحو الحقيقة لا المثال والتقريب؛ لأنّ هذا أوضح لإبراهيم عليه السلام أنّ المعاد يوم القيامة سيكون كذلک على شكلٍ واسع ومقياسٍ كبيرٍ جدّاً(1).

1- (1) انظر: تفسير الأمثل: ج 2، ص 281 – ص 283. ونسبه إلى صاحب تفسير المنار، ونقل عن الرازى أنّه قديماً اختاره أبو مسلم.

الطيور الأربعة

لقد اختلفت بعض الروايات فی مصادیق الطیور الأربعة ما هی؟ ففی بعض الروایات المرویّة عن إمامنا الرضا علیه السلام أنّها کانت «نسراً وطاووساً وبطاً وديكاً»(1).

وبعض التفاسیر ذکرت کانت «طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة»(2).

وفی روایة الخصال عن أبی عبد الله الصّادق علیه السلام أنّها کانت: «هدهداً وصرداً وطاووساً وغراباً»(3). ولعلَّ غیرها ذکر غیر ذلک، والملاحظ فی هذه التفاسیر الثلاثة للطیور أنّ الطاووس کان عُنصراً مشترکاً.

فقد تکرّر فی جمیعها، والطاووس عندهم له تفسیره الخاص، فهو علامة الزینة والخیلاء والتکبّر والفخر بالنفس والغرور بها، حتّی أنَّ الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام أشار إلی ذلک فی خُطبةٍ له فی وصفه جاء فیها: «... ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذی أقامه فی أحکم تعدیل، ونضد ألوانه فی أحسن تنضید، بجناحٍ أشرج قصبه، وذنب أطال مسحبه. إذا درج إلی الأنثی نشره من طیه، وسما به مطلاً علی رأسه کأنّه قلع داری عنجه نؤتیه. یختال بألوانه، ویمیس بزیفانه. یفضی کإفضاء الدیکة، ویؤر بملاقحة أرَّ الفحول المغتلمة فی الضراب... یمشی مشی المرح المختال، ویتصفح ذنبه وجناحیه فیقهقه ضاحکاً؛ لجمال سرباله وأصابیغ وشاحه، فإذا رمی ببصره إلی قوائمه زقا معولاً بصوت یکاد یبین عن استغاثته، ویشهد بصادق توجّعه؛ لأنّ قوائمه حمش کقوائم الدیکة الخلاسیة»(4).

وقال المازندرانی رحمه الله: «فإنَّ قتل الطاووس إیماءً إلی ترک الزینة، وقتل الدیک: إلی ترک

1- (1) عیون أخبار الرضا: ج 2، ص 176. التوحید للشیخ الصدوق: ص 132، ح 14.

2- (2) تفسیر جوامع الجامع: ج 1، ص 240 - ص 241.

3- (3) الخصال: ص 264 - ص 265، ح 146.

4- (4) نهج البلاغة: ج 2، ص 71 - ص 73. والدیک الخلاسی: هو المتولد بین دجاجتین هندیة وفارسیة. انظر: القاموس المحیط: ج 2، ص 211، تاج العروس: ج 8، ص 262.

الصولـة والشـهوة، وقتل الغراب: إلى ترک الخسّـة وبعـد الأمل، وقتل الحمامـة: إلى ترک الترفّع والمسارعـة إلى الهوى، فإنَّ مَن أمات هـذه الصفات عن نفسه فقد أحياها بحياة طيبة أبدية»(1).

وكيف كان، فالطيور الأربعـة مختلفة، والاختلاف بينها كبير، وجواب فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ ، جواب عمّا سأله إبراهيم عليه السـلام بقوله: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى ومن المعلوم وجوب مطابقة الجواب للسؤال، فبلاغة الكلام وحكمة المتكلم يمنعان عن اشتمال الكلام على ما هو لغو زائـد لا يترتّب على وجوده فائـدة عائدة إلى الغرض المقصود من الكلام، وخاصّة القرآن الذى هو خير كلامٍ، ألقاه خيرُ متكلّم إلى خيرِ سامعٍ واعٍ، وليست القصّة على تلک البساطة التى تتراءى منها فى بادى النظر، ولو كان كذلک لتمّ الجواب بإحياء ميّتٍ ما كيف كان، ولكان الزائـد على ذلک لغواً مسـتغنى عنه، وليس كـذلک، ولقد أُخذ فيها قيودٌ وخصوصـيات زائدة على أصل المعنى، فاعتُبر فى ما أريد إحيائه أن يكون طيراً، وأن يكون حيّـاً، وأن يكون ذا عـدد أربعـة، وأن يُقتل ويُخلط ويُمزج أجزائها، وأن يُفرّق الأجزاء المختلطـة أبعاضاً، ثمّ يوضع كلُّ بعضٍ فى مكانٍ بعيـد من الآخر، كقُلـة هذا الجبل وذاک الجبل، وأن يكون الإحياء بيد إبراهيم عليه السـلام نفس السائل بدعوته إياهنّ، وأن يجتمع الجميع عنده. فهذه كما ترى خصوصيات زائدة فى القصّة، هى لا محالة دخيلة فى المعنى المقصود إفادته.

وبالجملـة فأجابه الله تعالى بأن أمره بأن يأخـذ أربعـةً من الطير، ولعلَّ اختيار الطير لكون هذا العمل فيها أسـهل وأقل زماناً، فيشاهد حياتها ويرى اختلاف أشخاصها وصورها، ويعرفها معرفةً تامّةً، ثمّ يقتلها ويخلط أجزائها خلطاً دقيقاً، ثمَّ يجعل ذلک أبعاضاً، وكلّ بعضٍ منها على جبل؛ لتفقد التميّز والتشخّص، وتزول المعرفة، ثمَّ يدعوهنّ

1- (1) شرح أصول الكافى: ج 12، ص 428.

يأتينه سعياً... فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ إنّما أمر بذلک ليعرفها فلا يشک فيها عند إعاده الحياة إليها، ولا ينكرها، وليرى ما هى عليه من الإختلاف والتميّز أوّلاً وزوالهما ثانياً(1).

ظهور الإعجاز وتجليّه لإبراهيم عليه السلام

لا يشک أحـد بأنّ إحياء الميت بعد تقطيعه وخلطه وتقسـيمه أمرٌ خارق للعادة ومعجز لا غبار عليه، فكيف تجمّعت هذه الأوصال المقطّعة والدماء الممزوجة من الجبال، وتطايرت تلک الأجزاء بعضـها إلى بعض حتّى اسـتوت الأبدان، وجاء كلُّ بدنٍ حتّى انضم إلى رقبته ورأسـه التى كـانت بين أصابع خليل الله إبراهيم عليه السـلام فخلّى إبراهيم عن مناقيرِهنَّ فطرْنَ، ثمّ وقفن فشـربن من ذلک الماء والتقطن من ذلک الحب، وقلن يـا نبيَّ الله أحييتنا أحياک الله، فقال إبراهيم عليه السـلام: بل الله يحيى ويميت وهو على كلِّ شـىءٍ قـدير، كما جاء ذلک فى سؤال المأمون لإمامنا الرضا عليه السلام وجوابه عن هذه الحادثة(2).

والملفت للنظر أنّ الآيـة عبّرت ب – ادْعُهُنَّ ، أى: ادع الطيور، يـا طاووس، ويا فلان، ويا فلان، ويمكن أن يُسـتفاد ذلک – مضافاً إلى دلالة ضمير (هن) الراجعة إلى الطيور – من قوله: ادْعُهُنَّ ، فإنَّ الدعوة لو كانت لأجزاء الطيور دون أنفسها كان الأنسب أن يقال: (ثمّ نادهن)؛ فإنّها كانت على جبالٍ بعيدة عن موقفه عليه السلام، واللّفظ المستعمل فى البعيد خاصّة هو النداء دون الدعاء، وقوله: يَأْتِينَکَ سَعْياً ، أى يتجسّدنَ واتصفن بالإتيان والإسراع إليک(3).

«فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَکَ سَـ عْياً ، وهل أمره بدعائهن وهنَّ أحياء أو أموات؟ وعلى كل حال فدعاؤهن قبيح؛ لأن أمر البهائم التى لا تعقل ولا

1- (1) انظر: تفسير الميزان: ج 2، ص 374 - ص 377.

2- (2) انظر: التوحيد، الشيخ الصدوق: ص 132، ح 14.

3- (3) انظر: تفسير الميزان: ج 2، ص 377.

تفهم قبيح. وكذلک أمرهن وهنّ أعضاء متفرقة أظهر فی القبح.

قلنا: لم يرد ذلک إلاّ حال الحياة دون التفرّق والتمزق، فأراد بالدعاء الإشارة إلى تلک الطيور، فإنّ الإنسان قد يشير إلى البهيمة بالمجیء، أو الذهاب فتفهم عنه، ويجوز أن يسمى ذلک دعاء، إمّا على الحقيقة، أو على المجاز...»(1).

استفادة فقهية

لقد استفيد من هذه الآية فائدة فقهية مهمّة، وهى ما لو نذر الإنسان أن يتصدّق بجزءٍ من ماله مثلاً إذا تحقق له الأمر الكذائى، فكم يجب عليه أن يتصدّق؟

عُرضت هذه المسألة على إمامنا الصّادق عليه السلام: «فقيل له: إنَّ رجُلاً مات وأوصى إليه بمائة ألف درهم، وأمره أن يُعطىَ أبا حنيفة منها جزءاً، فسأل عنها جعفر بن محمّد عليه السلام وأبو حنيفة حاضر، فقال له جعفر بن محمّد عليه السلام: ما تقول يا أبا حنيفة؟ فقال: الربع، فقال لإبن أبى ليلى، فقال: الربع، فقال جعفر بن محمّد عليه السلام: ومن أين قلتم الربع؟ قالوا: لقول الله عزّ وجلّ: قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْکَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ، فقال أبو عبد الله عليه السلام: هذا قد علمت الطير أربعة، فكم كانت الجبال، إنّما الأجزاء للجبال، ليس للطير. فقالوا: ظننا أنّها أربعة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ولكن الجبال عشرة»(2).

وقوّى صاحب الجواهر رحمه الله العملَ بهذا المضمون فى الوصية المبهمة فى شرحه على الشرائع(3) ، والمسألة مبحوثة مفصلاً فى محلها(4).

1- (1) تنزيه الأنبياء: ص 53.

2- (2) وسائل الشيعة: ج 19، ص 383، ح 8.

3- (3) انظر: جواهر الكلام: ج 28، ص 319.

4- (4) انظر: الحدائق الناضرة: ج 22، ص 454 وما بعدها.

الولاية التكوينية عند أهل البيت عليهم السلام

تقدّم آنفاً أنَّ ما حصل من مجيء الطيور الأربعة المقطّعة تسعى مسرعة فى طيرانها أو مشيها من ضروب الولاية التكوينية، والذى هو عبارة عن التصرّف فى الخلق والتكوين، وإحداث ما يُعتبر خارقاً مثل إحياء الميت وإبراء المريض(1).

ومثل هذا الذى قام به إبراهيم الخليل عليه السلام بعينه قام به الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام، ففى الثاقب فى المناقب، عن يونس بن ظبيان، قال: «كنا عند أبى عبد الله عليه السلام أنا والمفضّل بن عُمر، وأبو سلمة السّراج، والحسن بن ثوير بن أبى فاختة، فسألنا أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبراهيم عليه السلام: رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى - إلى قوله - فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْکَ، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أتريدون أن أريكم ما أُرى إبراهيم عليه السلام؟ قلنا: نعم. فقال: يا طاووس يا باز، يا غراب، يا ديک. فإذا نحن بطاووس وباز وغراب وديک، فقطّعهنَّ، وفرَّقَ لحمَهُنَّ على الجبال، ثمّ دعاهنَّ فإذا العظام تتطاير بعضها إلى بعض، واللحم إلى اللحم، والعصب إلى العصب، حتى عادت كما كانت بإذن الله تعالى.

فقال أبو عبد الله عليه السلام:

قد أريتكم ما أرى إبراهيم قومَه، وقد أُعطينا من الكرامة ما أُعطى إبراهيم عليه السلام، وهذه كما علمت شاكلة لتلک، ومعادلة لها»(2).

ختام الآية

ثمَّ قالت الآية: « وَ اعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أى: عزيزٌ لا يفقد شيئاً بزواله عنه، حكيم لا يفعل شيئاً إلاّ من طريقهِ اللائق به، فيوجد الأجساد بإحضار الأرواح، وإيجادها دون العكس»(3).

1- (1) انظر: تفسير الأمثل: ج 2، ص 507.

2- (2) الثاقب فى المناقب: ص 139، ح 3. مدينة المعاجز: ج 5، ص 395، ح 166.

3- (3) تفسير الميزان: ج 2، ص 377.

وأهل البيت عليهم السلام حكمتهم من حكمة خالقهم جلّ وعلا فيفعلون ما فيه الصلاح ويتركون ما كان الصلاح فى تركه أيضاً؛ ولذا صار أوباش الناس يحسدونهم؛ لأنَّهم لم يحصلوا على عثرة فى حياتهم، ولا زلة فى أفعالهم.

ورَحِمَ الله الشيخ على الشفهينى حيث يقول فى قصيدته اللاميّة الرائعة مخطاباً بها أميرَ المؤمنين عليه السلام:

إن يحسدوک على عُلاک فإنَّما متسافلُ الدرجاتِ يحسُد مَن علا

إحياؤک الموتى ونُطقُکَ مخبِراً بالغائباتِ عذرتُ فيک لِمن غلا

وبردِّکَ الشمسَ المنيرةَ بعدما أفلتْ وقد شهدتْ برجعتِها الملا(1)

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

1- (1) الغدير: ج 6، ص 388.

المحاضرة الثالثة والعشرون: مقوِّمات الزعامة الإلهية

اشارة

ص:303

هيهاتَ أن تجفو السُهادَ جُفونى أو أنّ داعيةَ الأسى تجفونى

أنّى ويومُ الطَّفِ أضرمَ فى الحَشا جذواتِ وجدٍ من لظى سجّينِ

يومٌ أبو الفضل استفزّتْ بأسّه فتياةُ فاطمِ من بنى ياسينِ

فأغاثَ صبيتَه الضما بمزادةٍ من ماء مرصودِ الوشيج مَعينِ

حتّى إذا قطعوا عليه طريقَه بسدادِ جيشٍ بارزٍ وكمينِ

ودعته أسرارُ القضا لشهادةٍ رُسمتْ لهُ فى لوحِها المكنونِ

حسموا يديهِ وهامَهُ ضربوه فى عمدِ الحديدِ فخرَّ خير طعينِ

ومشى إليهِ السبطُ ينعاهُ كسرتَ الآن ظهرى يا أخى ومُعينى

عبّاسُ كبش كتيبتى وكنانتى وسرىّ قومى بل أعزُّ حُصونى

يا ساعدى فى كُلِّ معتركٍ بهِ أسطو وسيفُ حمايتى بيمينى

لِمَنِ اللُوى أُعطى ومَن هو جَامعُ شملى وفى ظنک الزُحام يَقِينى

عبّاسُ تسمعُ زينباً تدعوک مَن لى يا حماىَ إذ العدى نهرونى

أوَ لستَ تسمعُ ما تقولُ سُكينةٌ عَمّاهُ يومَ الأَسرِ مَن يحمينى(1)

***

(موشّح)

اجفوفه مگطوعات والراس انفطر وسال دمع احسين يشبه للمطر

اوصاح يا خويه الظهر منّى انكسر يا بدرنه اشلون غطّاک الخسوف

غبت عنّى وأنت لى سور حديد يا صواجع من سمه وذبها الرعيد

اشلون اظل عگبک يبو فاضل وحيد أو جمّعت كوفانها وصارت أُلوف

گله خلّينى ابمجانى وانتحى هذا أمر الله انكتب ما ينمحى

1- (1) القصيدة للشيخ حسين قفطان رحمه الله، وقد تقدّمت ترجمته فى المحاضرة الرابعة عشرة.

ولسان حال زينب عليها السلام:

المصايب من عگب عينک لونّی أوّن ونّت الوادم لونّی

أنا زينب يبو فاضل لونّی عميت أو لا أری شخصک رميّه

***

ألف وسفه علی العبّاس ينصاب أو مخ راسه علی الچتفين ينصاب

المآتم دوم إله ولحسين يناصب لمن تظهر رواية الهاشمية

***

قال تعالی: وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً قالُوا أَنّی يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِی الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللّهُ يُؤْتِی مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ ...(1).

الكثير من الناس يحكمون على الظواهر، ويتعاملون على طبق موازين قد يكون لا أساس لأكثرها، فقد يجعلون ما ليس بعلّةٍ علّة، وما هو علّة نتيجة، وهكذا، بل نرى للواحد منهم أكثر من قاعدة وضابطة فی موضوع واحد، وبالحقيقة هكذا واقع معناه إلغاء القواعد والضوابط من الأساس، ولكن من دون أیِّ إحساس.

وما هذه الآية المباركة إلاّ تعبير واضح عن هكذا مجتمعات، فهی جاءت لتبيّنَ لنا الضابطة فی الإختيار الإلهی، والزعامة الإلهية، وتردّ على القواعد والضوابط عند أكثر الناس الذين لا يتحلّون بالعقل المفكّر الواع.

1- (1) البقرة: آية 247.

نهضة الأمم بامتثال أوامر أنبيائها عليهم السلام

لقد مرّ زمان على بنى إسرائيل لم يتركوا نبيّاً من الأنبياء، ولا رسولاً من الرسل إلاّ وحاربوه وكذّبوه، بل قتلوه، قال تعالى: لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (1).

ومضت عليهم السنون، وهم على هذا التكذيب والقتل؛ لأنّه لم يأتِ نبيٌّ بما تهوى أنفسهم الشريرة، فأصابهم الذّل والخزى والعار، حتّى صاروا أذلةً خاسئينَ على أيدى الفراعنة، قال تعالى: وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (2).

فمرّوا بحالة الذل والإستعباد، والقتل والتشريد والتنكيل من قبل الفراعنة، ثمّ أنجاهم الله تبارك وتعالى عن طريق نبيِّ الله موسى بن عمران عليه السلام كما قالت الآية أعلاه، وظلّت فيهم هذه الروحية - روحية النصر - بعد رحيل موسى عليه السلام مُدةً من الزمن، إلاّ أنّهم أصبحوا مغرورين بذلك، وأخذوا يُخالفون القوانين إلى أن ضعفوا شيئاً فشيئاً حتّى لم يعودوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، حتّى أمام أتفه أعدائهم، فاستمرّتْ حالهم على هذا سنوات طوالاً، إلى أن أرسل الله إليهم نبياً اسمه (شموئيل) أو (يوشع) أو (شمعون) على إختلاف الأقوال فى اسمه الشريف؛ لإنقاذهم وهدايتهم فتجمّع حولَه اليهود الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالظلم، وكانوا يبحثون عن ملجأ يأوون إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم قائداً وأميراً؛ لكى يتوحّدوا تحت لوائه ويحاربوا متّحدين يداً ورأياً؛ لاستعادة عزتهم الضائعة، مع أن نبى الله كان يخشى الخذلان منهم، ولكنهم باصرارهم جعلوه يقبل

1- (1) المائدة: آية 70.

2- (2) الأعراف: آية 141.

عرضهم عليه وكأنّهم شخّصوا دائهم واتّجهوا لمعالجته(1).

مع أنّ الله عزّ وجلّ – كما تقدّم – أنعم عليهم نعماً كثيرة، ومنها التابوت الذى أنزله الله على موسى عليه السلام، فوضعته أُمّه فيه وألقته فى اليم، فكان عند بنى إسرائيل يتبرّكون به، فلمّا حضرت موسى عليه السلام الوفاة وضع فيه الألواح ودرعه وما كان عنده من آيات النبوّة، وأودعه يوشع وصيّه، فلم يزل التابوت بينهم حتّى استخفّوا به، وكان الصّبيان يلعبون به فى الطرقات، فلم يزل بنو إسرائيل فى عزّةٍ وشرفٍ ما دام التابوت عندهم، فلمّا عملوا بالمعاصى واستخفّوا بالتابوت رفعه الله عنهم(2).

إذن ذلهم وخذلانهم وخسرانهم إنّما كان بمخالفةِ أمر أنبيائهم عليهم السلام بعد أن كان العزّ بين أيديهم ارتفع عنهم بذنوبهم واستخفافهم بالمقدّسات.

الاعتراض على الاختيار الإلهى

«لمّا طلبوا من نبيهم أن يُعيّن لهم ملكاً منهم فعيّن لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لانَّ الملك كان فى سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط؛ فلهذا قالوا أَنّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا أى: كيف يكون ملكاً علينا عَلَيْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ أى: ثمّ هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك. وقد ذكر بعضهم أنّه كان سقّاءً. وقيل: دبّاغاً، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنّت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف»(3).

واعتراضهم على نبيِّهم فى تعيين طالوت ملكاً كان لسببين هما:

الحسب والنسب من جهة، والمال والثروة من جهة أُخرى، فجعلوا المقياس ما ليس

1- (1) انظر: تفسير الأمثل: ج 2، ص 216.

2- (2) انظر: بحار الأنوار: ج 13، ص 439 – ص 440.

3- (3) تفسير ابن كثير: ج 1، ص 308.

بمقياسٍ عند السّماء، وجعلوا ما ليس بعلّةٍ للإصطفاء علةً له، فتحقّق الخوف من الخذلان الذى كان يجول فى خاطر نبيهم (شموئيل) وسبب هذا الإعتراض واستبعاد أن يكون طالوت ملكاً عليهم أنَّ النبوّة كانت مخصوصة بسبط معيّن من أسباط بنى إسرائيل، وهو سبط لاوى بن يعقوب – على رأى – ومنه موسى وهارون، وسبط المملكة، سبط يهوذا ومنه داود وسُليمان، وأنَّ طالوت ما كان من أحد هذين السبطين، بل كان من ولد بنيامين؛ فلهذا السبب أنكروا كونه ملكاً لهم، وزعموا أنّهم أحق بالملك منه، ثمَّ إنّهم أكّدوا هذه الشبهة بشُبهةٍ أُخرى، وهى قولهم: وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ وذلک إشارة إلى أنّه فقير(1).

طالوت وكيفيّة اختياره

«كان طالوت رجُلاً طويل القامة، ضخماً، حسن التركيب، متين الأعصاب قويّاً، ذكيّاً، عالماً، مدبّراً. ولكنّه مع كلِّ ذلک لم يكن معروفاً، حيث كان يعيش مع أبيه فى قرية على أحد الأنهر، ويرعى ماشية أبيه، ويشتغل بالزراعة، أضاع يوماً بعض ماشيته فى الصحراء، فراح يبحث عنها مع صاحب له بضعة أيام حتّى اقتربا من مدينة صوف، قال له صاحبه: لقد اقتربنا من صوف مدينة النبيِّ إشموئيل، فتعال نزوره لعلّه يدلّنا بما لَه من إتصالٍ بالوحى، وحصانة فى الرأى على ضالتنا. والتقيا بإشموئيل عند دخولهما المدينة، فدلاّه على ماشيته، ثمَّ أخبره بأنّ الله قد أختارک لنجاة بنى إسرائيل، فقبل هذه المَهمّة بعد التردّد، فأخبر نبى الله إشموئيل بنى إسرائيل بأنّ الله قد اختار طالوت لقيادتكم فعليكم جميعاً أن تطيعوه، وأن تتهيأوا للجهاد ومحاربة الأعداء. فاعترضوا بالإعتراض المتقدّم بأنّه ليس صاحب حسب ونسب، ولا من أصحاب الأموال، فنحن أحقّ بالقيادة منه؛ لكوننا من أصحاب الثروة والمال، وأصحاب النسب والحسب»(2).

1- (1) انظر: تفسير الرازى: ج 6، ص 184 – ص 185.

2- (2) تفسير الأمثل: ج 2، ص 217 – ص 218.

الإصطفاء الإلهی لطالوت

بعـد إعتراض بنی إسـرائیل المتقـدّم علی نبیّهم فی اختیار طالوت ملکاً علیهم أجابهم نبیُّ الله بأنّ هـذا الإختیار لیس من عنـدی، وإنّما هو إصطفاءٌ من الله عزّ وجلّ. والإصطفاء معناه الاختیار(1). وأصله الصفو.

فلو تأمّلنـا نعرف کیف ردّ علیهم نبیُّ الله تعلّلهم: بـأنّه لاـ ملـک إلاّـ الرجال ولا رجال إلاّ بالمال، وهو فقیر لا سـعة له ولا مال، وذلک: بأنّ الرکن الأعظم الشدید الحاجة إلیه فی الملک والرئاسة هو اصـطفاء الله واختیاره؛ لعلمه بقبول المحل لا ما ذکروه من الثروة والمال والسـعة فی الحال، فلمّا أذنوا بذلک انقطعوا ورضوا برضا الله ورسوله، فانحسمت مادة نزاعهم وتألّفت قلوبهم(2).

مضافاً إلی الإصـطفاء الإلهی أنّ الله عزّ وجلّ زاده بسـطة فی العلم والجسم «فهـذه الآیـة موافقة لدلائل العقول التی لا ینکرها إلاّ مَن ینکر الضـروریات فی أنّ الأعلم أولی وأحقّ وأوجب بالتقدیم فی الإمامة ممّن لا یساویه فی العلم... فلو اسـتوزر المَلِکُ رجُلاً لا بصـیرةَ له بعلمِ السیاسةِ وتدبیر الأحوال لقبح عند العقلاء فعله»(3).

من هنا صارت الحُجّـة لأمیر المؤمنین علیه السـلام فی أن یحتجَّ علی القوم الذین انقلبوا علی أعقابهم بعد أن سـمعوا رسول الله صـلی الله علیه و آله یقول:

«مـا ولّت أُمّـةٌ قـطّ أمرَهـا رجُلاً وفیهم مَن هو أعلم منه إلاّ لم یزل یـذهب أمرهم سـفالاً، حتّی یرجعوا إلی ما ترکوا»(4)، فهـذه دلّت علی وجوب تقدّم أمیر المؤمنین علیه السلام علی کافّة المسلمین لخلافة الرسول صلی الله علیه و آله وإمامةِ الأُمّة؛ لتقدّمه

1- (1) انظر: مجمع البیان: ج 2، ص 141.

2- (2) انظر: جامع الشتات: ص 14.

3- (3) نهج الإیمان: ص 289.

4- (4) الاحتجاج: ج 1، ص 219.

عليهم فى العلم والحكمة، وقصورهم عن منزلته فى ذلک(1).

والخلاصة: إنّ اعتراض بنى إسرائيل كان فى أمرين - كما قدّمنا - الحسب والنسب من جهة، والمال والثروة من جهة أُخرى، وهذان الأمران بحسب اعتقادهم أنّهما من مقوّمات الزعامة والمُلک، ولكن جاء الجواب الإلهى عن هذا الاعتراض بأمرين كذلک، وهما: الإصطفاء الإلهى، والبسطة فى العلم والجسم، مع أنّ أوّل الأمرين يكفى لردّ اعتراضهم بأنّ الله عزّ وجلّ اختاره وكفى، قال تعالى: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (2).

ولكن مع ذلک أجاب نبىُّ الله - زيادة على الإصطفاء - بأنّه مُستحقٌّ لهذا المنصب، وهو جدير بالملک؛ لأنّ الملک يتقوّم بأمرين غير ما تظنون، وهما: العلم والقوّة.

قال صاحب الميزان: «وبالجملة الغرض من الملک أن يدبّر صاحبُه المجتمع تدبيراً يوصل كلَّ فردٍ من أفراده إلى كماله اللائق به، ويدفع كلَّ ما يمانع ذلک، والذى يلزم وجوده فى نيل هذا المطلوب أمران: أحدهما: العلم بجميع مصالح حياة الناس ومفاسدها، وثانيهما: القدرة الجسمية على إجراء ما يراه من مصالح المملكة، وهما اللذان يشير إليهما قوله تعالى: وَ زادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ ، وأمّا سعة المال فعدّه من مقومات الملک من الجهل.

ثمَّ جمع الجميع تحت حُجّة واحدةٍ ذكرها بقوله تعالى: وَ اللّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ ، وهو أنّ الملک لله وحده ليس لأحد فيه نصيب إلاّ ما آتاه الله سبحانه منه، وهو مع ذلک لله كما يفيده الإضافة فى قوله تعالى (يؤتى ملكه)، وإذا كان كذلک فله تعالى التصرّف فى ملكه كيف شاء وأراد، ليس لأحدٍ أن يقول: لماذا أو بماذا (أى: أن يسئل عن علّة التصرّف، لأنّ الله تعالى هو السبب المطلق، ولا عن متمّم العليّة وأداة الفعل؛ لأنّ الله

1- (1) انظر: الإرشاد: ج 1، ص 194.

2- (2) الأحزاب: آية 36.

تعـالى تـام لاـ يحتـاج إلى متمّم) فلاـ ينبغى السؤال عن نقل المُلك من بيتٍ إلى بيت، أو تقليـده أحـداً ليس له أسـبابه الظاهرة من الجمع والمال»(1).

علامة ملك طالوت

بعـد أن تبيّن أنّ الله تبـارک وتعـالى هو الـذى اصـطفى طالوت واختاره أن يكون ملكاً على بنى إسـرائيل، لصـفات يراها عزّ وجلّ أنّها هى الصـفات التى يجب أن تكون فى القائـد والمَلِـک وهى العلم والقوّة، لاـ الحسب والثروة، كمـا يظن جهّال بنى إسـرائيل، وبيّن ذلک نبيُّهم إشـموئيل على أحسن وجه، ولكنَّ الكثيرَ منهم لم يقبل اختيار السّـماء، وتصوّروا أنّ هـذا من عنـد نفسه، لا من الربِّ المتعال؛ لذا طمأنهم نبيُّهم بإتيان الحُجّـة على أنّ هذا الاختيار اختيار إلهى، وهو إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التّابُوتُ فِيهِ سَـكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمّا تَرَکَ آلُ مُوسـى وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ (2) إنّ علامة بركة ملک طالوت عليكم أن يردَّ الله عليكم التابوت الذى أُخذ منكم(3).

وقـد ذكرنا فيما تقـدّم ما هو المحتوى لهذا التابوت، وأنّ عزّةَ بنى إسـرائيل إنّما زالت باسـتخفافهم بهذا التابوت، والآن يعود إليهم مرةً أُخرى كدليل على إصـطفاء طالوت للمُلک إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ ، فهو يحتوى على أشياء من شأنها أن تبعث السكينة فى قلوب بنى إسـرائيل، فهـذا الصـندوق بطـابعه المعنوى والتـأريخى كان أكثر من مجرّد لواء لبنى إسـرائيل وشـعار لهم، كان يُمثّل رمز إسـتقلالهم ووجودهم، وبرؤيته كانوا يسترجعون عظمتَهم السابقة؛ لذلک كان الوعد بعودته بشارة عظيمة(4).

1- (1) تفسير الميزان: ج 2، ص 287.

2- (2) البقرة: آية 248.

3- (3) انظر: تفسير ابن كثير: ج 1، ص 247 - ص 248.

4- (4) انظر: تفسير الأمثل: ج 2، ص 224.

فإصطفاء طالوت كان لعلمه وشجاعته وقدرته الروحية فى إدارة الحرب وفنون القتال، وصار هو المَلک على بنى إسرائيل، وآية مُلكه السكينة التى يبعثها فى قلوب بنى إسرائيل عامّةً والمقاتلين خاصّةً؛ لأنَّهم متى ما رأوه ورأوا ذلک اللواء الذى كان يحمله اطمأنت نفوسُهم.

وهكذا كان أبو الفضل العبّاس عليه السلام سكينة فى قلب سٌكينة والرباب وزينب (عليهنَّ السلام)، كان عليه السلام سَكينة وبشارة للأطفال العُطاشى، بل اصطفاه الإمامُ الحُسينُ عليه السلام واختاره من بين كلِّ أهل بيته عليهم السلام ليكون كبش الكتيبة وحامل اللواء؛ لأنّه يشتمل على صفات الإختيار الإلهى، وهى: العلم والبسطة فى الجسم.

أمّا العلم فكما يقول إمامنا الصّادق عليه السلام:

«كان عمُّنا العبّاس بن على نافذَ البصيرة، صلب الإيمان»(1).

وأمّا القوّة والبسطة فى الجسم، فقال عنه أبو الفرج الأصفهانى: «وكان العباس رجلاً وسيماً جميلاً، يركب الفرس المطهّم ورجلاه تخطّان فى الأرض، وكان يقال له: قمر بنى هاشم، وكان لواء الحسين بن على عليه السلام معه يوم قُتل»(2).

والفرس المطهّم: هو الفرس السمين والتام من كُلِّ شىء(3).

ولذا يقول الشاعر فيه:

بطلٌ إذا ركِبَ المطهّم خلته جَبلاً أشم يخف فيه مُطهّمُ

بطلٌ تورّثَ من أبيهِ شجاعةً فبها أُنوف بنى الضلالة تُرغمُ (4)

1- (1) عمدة الطالب: ص 356.

2- (2) مقاتل الطالبيين: ص 56.

3- (3) انظر: القاموس المحيط: ج 4، ص 145.

4- (4) من قصيدةٍ رائعةٍ للسيّد جعفر الحلّى رحمه الله مطلعُها: وجه الصباح علىَّ ليلٌ مُظلِمُ وربيعُ أيامى علىَّ مُحرّمُ انظر: رياض المدح والرثاء: ص 239.

ولذا يصف لنا بعض الشعراء ما نُقل لهم عن حالة أبی عبد الله علیه السلام عندما شاهد أخاه أبا الفضل علیه السلام بوصفٍ یستنزف الدموع من العیون، وکلّ ظنّی أنّ الشاعر لم یتجاوز الحقیقة، ولم یتعدّ الحالة التی کان علیها الحُسین علیه السلام حینما قال فی وصفه:

بس شاف أخیّه علی الثره طریح امن بعید ظل ایگوم ویطیح

اویمّه وگف حزنان ویصیح ظهری انکسر ودموعی اتسیح

والفرگتک دلالی اجریح(1)

وأمّا زینب فحالها بعد کافلها لا یوصف، وکأنّی بها تقول:

کلمن شافنی فوگ الجمل گال اضنچ یحرّه مالچ ارجال

گتله بله سبعین خیّال گظینه عزاهم فوگ الجمال

زینب أنه بت خیر الأعمال راحوا هلی اویبّه الدهر مال(2)

***

إنّا لله وإنّا إلیه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلیّ العظیم،

وسیعلم الذین ظلموا آل مُحَمّد أیَّ مُنقلبٍ ینقلبون

والعاقبة للمتّقین.

1- (1) میراث المنبر: ص 205.

2- (2) الأبیات لابن فایز. انظر: میراث المنبر: ص 159.

المحاضرة الرابعة والعشرون: ناقة الله

اشارة

ص:315

الواثبينَ لِظُلمِ آلِ مُحمّدٍ ومُحمّدٌ مُلقىً بِلا تكفينِ

والقائلينَ لفاطمٍ آذيتِنا فى طُولِ نَوحٍ دائمٍ وحنينِ

والقاطعينَ أراكةً كيما تقيل بظلِ أوراقٍ لها وغصونِ

ومجمّعى حَطبٍ على البيتِ الذى لم يجتمع لولاهُ شملُ الدينِ

والهاجمينَ على البتولةِ ببيتَها والمُسقطينَ لها أعزَّ جنينِ

والقائدينَ إمامَهم بنجادهِ والطُهرُ تدعو خلفَهم برنينِ

خلّوا ابنَ عمّى أو لأكشفَ للدعا رأسى وأشكو للإلهِ شُجونى

ما كانَ ناقةُ صالحٍ وفصيلُها بالفضلِ عندَ اللهِ إلاّ دونى

ورنتْ إلى القبرِ الشَّريفِ بمُقلةٍ عبرى وقلبٍ مُكمَدٍ محزونِ

قالتْ وأظفارُ المُصابِ بقلبِها غوثاه قلَّ على العداةِ مُعينى

أبتاهُ هذا السامرىُّ وعجلُه تُبِعا ومالَ النَّاسُ عن هارونِ

أىّ الرزايا أتّقى بتجلُدى هو فى النوائبِ مُذ حييت قرينى

فقدى أبى أم غصبَ بعلى حقَّه أم كسرَ ضلعى أم سقوطَ جنينى

أم أخذهم إرثى وفاضلَ نحلتى أم جهلَهم حقِّى وقد عرفونى

قهروا يتيميکَ الحُسينَ وصنوَه وسألتُهم حقّى وقد نهرونى(1)

1- (1) القصيدة لشاعر أهل البيت عليهم السلام الشيخ صالح الكوّاز الحلّى رحمه الله، قال عنه السيد داخل حسن فى كتابه مَن لا يحضره الخطيب (ج 1، ص 183): «الشيخ صالح الكوّاز، عملاق الشعر، ونابغة العصر، هكذا نعته عملاق المنبر الأستاذ السيد جواد شبر. ولد الكوّاز سنة 1233 ه -، وتوفى 1290 ه -، لقّب بالكوّاز؛ لأنَّه كان يبيع الكيزان والجرار والأوانى الخزفية، وكان معروفاً بالورع والتقى وعزّة النفس. وشعره من معلَّقات المحافل الحسينيّة، تهتز له النفوس إعجاباً، وينتزع الدموعَ حزناً على مصائب أهل البيت عليهم السلام». مَن لا يحضره الخطيب: ج 1، ص 183.

قال تعالى: وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (1).

لقد أخذت القصّة فى القرآن الكريم مجالاً واسعاً ومهمّاً فى هداية البشر، وقد تميّزت هذه القصّة عن غيرها من القصص بأنّها قصص واقعية صادقة لا يتطرّق إليها أدنى شک.

قال تعالى: إِنَّ هـذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ 2 ، فهو قصصٌ لا ـ لأجل اللهو والمؤانسة، كما يكتب ذلک الكثير ممَّن ليس له هدف سامى فى الحياة، بل القصّة فى القرآن الكريم لها أهداف سامية رفيعة، لعلَّ أهمّها التفكّر، حيث يقول عزّ وجلّ: فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (2) ، وإذا كانت القصّة فى القرآن لها هذا التميّز فلا شک أنّها ستكون كما قال تبارک وتعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ (3).

ومن أهم أغراض القصّة فى القرآن الكريم – مضافاً لمّا تقدَّم – هو بيان أنَّ دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام واحدة، وطرق مجابهة قومهم لهم واستقبالهم متشابهة، وأنَّ القوانين والسنن الاجتماعية التى تتحكّم فى تطوّر الدعوة واحدة، فالأنبياء يدعون إلى الأدلة الواحدة، ويأمرون بالعدل والإصلاح، والناس يتمسّكون بالعادات والتقاليد البالية والحجج الواهية. ويصرّ على ذلک أصحاب المنافع الشخصيّة والأهواء الخاصّة بشكل خاص، والطواغيت والجبابرة بشكل أخص(4).

وقد يسأل سائل ويقول: إذا كان الأمر كذلک، وأنّ الدعوة واحدة والأساليب

1- (1) الأعراف: آية 73.

2- (3) الأعراف: آية 176.

3- (4) يوسف: آية 3.

4- (5) انظر: علوم القرآن: ص 359.

متشابهة، فما هو السبب فی اختلاف الشرائع؟

والجواب: «سبب اختلاف الشرائع اختلاف الأُمم فی الإستعداد والقابلية. والدليل على أنّ الأنبياء متّفقون على الإيمان والتوحيد ما جاء أنّه صلى الله عليه [وآله] وسلم، قال:

الأنبياء أولاد علات، أی: أصلُ دِينِهم واحد، وهو التوحيد، وإن اختلفت فروع شرائعهم؛ لأنَّ العلات الضرائر فأولادهم إخوة من الأب وأُمّهاتهم مختلفة»(1).

ومن القصص الحقّ، والتی جاء هدفها بالتفكّر فی أحوال مَن تقدّمنا، قصّة نبیّ ظلمه قومُه، فانتقم الله منهم، كما هو الحال فی جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وهو نبیُّ الله صالح عليه السلام مع قومه.

قالت الآية وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، وهنا أُمور:

الأمر الأول: مَن هو ثمود؟

اختلفوا فی ثمود، فنُقل عن الجوهری: ثمود قبيلة من العرب الأُولى، وهم قوم صالح. وكذلك قال الفرّاء: سُمّيت بذلك لِقلّةِ مائهمز وقال الزجّاج: الثمد الماء القليل الذی لا مادّة له. وقيل: ثمود اسم رجل. وقال عِكرِمة: هو ثمود بن جابر بن إرم بن سام بن نوح. وقال الكلبی: وكانت هذه القبيلة تنزل فی وادی القری إلى البحر والسواحل وأطراف الشام، وكانت أعمارهم طويلة وكانوا يبنون البنيان والمساكن، فتنهدم، فلمّا طال ذلك عليهم اتّخذوا من الجبال بيوتاً ينحتونها وعملوها على هيئة الدور. ويُقال: كانت منازلهم أوّلاً بأرض كوش من بلاد عالج، ثمّ انتقلوا إلى الحجر بين الحجاز والشام إلى وادی القری، وخالفوا أمر الله وعبدوا غيره، وأفسدوا فی الأرض، فبعث الله إليهم صالحاً

1- (1) السيرة الحلبية: ج 1، ص 176. ونسبه إلى (قال بعضهم).

نبيّاً فدعاهم إلى الله تعالى ولم يتبعه منهم إلاّ قليلٌ يستضعفون(1).

وقد تميّز هؤلاء القوم بطول أعمارهم - كما ذكرنا آنفاً - حتّى أنّ بيوت الطين ما كانت تبقى مدّة أعمارهم؛ فلذا كانوا ينقبون فى الجبال البيت، ففى الصيف يسكنون بيوت الطين، ولعله لبرودتها وفى الشتاء يسكنون بيوت الجبل لدفئها(2).

وقد مرّ رسول الله صلى الله عليه و آله على ديارهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوک فى سنة تسع، ولمّا نزل رسول الله صلى الله عليه و آله بالناس على تبوک نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبىُّ صلى الله عليه و آله فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثُمَّ ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»(3).

الأمر الثانى: ما هو سرّ التعبير ب - (أخاهم صالحاً)؟

من المعلوم بداهةً أنّ نبى الله صالح كان فى الجهة الأُخرى المقابلة إلى قومه، فهم قوم عتاة مردة كذّبوه وآذوه، وهو نبى الله وكفى، فكيف عبّر ب - (أخاهم)(4)، ومن المعلوم أنّ الأُخوّة شىء رفيع لا يدانيه شىء آخر، حيث قال البارى عزّ وجلّ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ 5 ؟

1- (1) انظر: عمدة القارى: ج 15، ص 271.

2- (2) انظر: تفسير البغوى: ج 2، ص 73.

3- (3) انظر: تفسير ابن كثير: ج 2، ص 236 - ص 237.

4- (4) المنصوبة على تقدير (وأرسلنا) مع أنّه لم يذكرها، ولكن ذِكرَ النبىّ والمرسل إليهم يدلّ على ذلک، كما نبّه عليه ابن هشام فى المغنى: ج 2، ص 436، واستشهد بنفس الآية المباركة.

والجواب: إمّا لأنّه بشرٌ مثلهم من بنی آدم یفهمون منه، فهو آکد علیهم فی الحجة(1).

ولکن ربیب القرآن أمیر المؤمنین علیه السلام عبّر عن ذلک بالنظیر، حیث یقول: «فإنّهم صفنان، إمّا أخٌ لک فی الدین، وإمّا نظیر لک فی الخلق»(2).

ولا أظنّ أنّ هذا هو سرّ التعبیر عنهم بأنّه أخوهم، وحلیف القرآن یخالف ذلک.

وإمّا لأنّه من عشیرتهم(3)، أو لأنّه من حیّهم وقبیلتهم(4).

ولعلّ الوجهین الأخیرین أظهر وأقوی، کما یؤیّد التاریخ أنّ نبی الله صالح کان من نفس قبیلة ثمود وحیّهم، ویؤید ذلک، بل یدلّ علیه بالصراحة ما رواه العیّاشی فی تفسیره من أنّ رجلاً من أهل الشام جاء إلی الإمام علیّ بن الحسین زین العابدین علیه السلام فقال: «أنت علیُّ بن الحسین؟ قال: نعم. قال أبوک الذی قتل المؤمنین؟

فبکی علیُّ بن الحسین، ثمَّ مسح عینیه، فقال: ویلک! کیف قطعت علی أبی أنّه قتل المؤمنین؟ قال: قوله: إخواننا قد بغوا علینا فقاتلناهم علی بغیهم.

فقال: ویلک أما تقرأ القرآن؟ قال: بلی. قال: فقد قال الله: وَ إِلی مَدْیَنَ أَخاهُمْ شُعَیْباً ، وَ إِلی ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً ، فکانوا إخوانهم فی دینهم، أو فی عشیرتهم؟ قال له الرجل: لا بل فی عشیرتهم. قال: فهؤلاء إخوانهم فی عشیرتهم ولیسوا إخوانهم فی دینهم. قال: فرّجت عنّی فرَّجَ الله عنک»(5).

وبهذا یتّضح أنَّ هذا التعبیر (أخاهم) لأجل أنّه من عشیرتهم وحیّهم الذی عاش فیه أکثر من مئة سنة، حیث إنّهُ بعث إلیهم وهو ابن ستّة عشر سنة، فلبث فیهم حتّی بلغ مئة

1- (1) معانی القرآن: ج 3، ص 47.

2- (2) نهج البلاغة: ج 3، ص 84.

3- (3) انظر: معانی القرآن: ج 3، ص 47.

4- (4) انظر: بحار الأنوار: ج 25، ص 236.

5- (5) تفسیر العیّاشی: ج 2، ص 20.

وعشـرين سـنة، يدعوهم فلا يجيبونه إلى خير، فحاجَّهم فى آلهتهم وهم سبعون صنماً، وقال: إن شئتم فاسألونى حتّى أسأل إلهى فيجيبكم، وإن شئتم سألت آلهتكم فإن أجابتنى خرجت عنكم.

فاستدعوه أن يسأل آلهتهم فسأل إتماماً للحجّة وتوضيحاً لبطلانهم، فلمّا رأوا أنّهم لا يجيبونه.

قـال: فاسـألونى حتّى أدعو إلهى فيجيبكم، فانتـدب سـبعون رجلاً من كبرائهم وعظمائهم، فقالوا: يا صالـح نحن نسألك، فقال: فكلُّ هؤلاء يرضون بكم؟

قالوا: نعم، فإن أجابوك أجبناك. قالوا: يا صالح، فإن أجابك إلهك آمنا بك جميعاً، فسألوا خروج الناقة من الجبل(1).

الأمر الثالث: الدعوة إلى التوحيد

ذكرنا فيما تقـدَّم أنّ الهدف الأسـمى والمهمة العليا عند جميع الأنبياء والمرسـلين هو رفع كلمة التوحيد، والملاحظ هنا هو اعتماد المنهج الذى يدعو جميع الأنبياء والمرسلين إليه، فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ نُوحِی إِلَیْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (2) ، وقال: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِی کُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ (3) ، فالذى يدعون إليه واحد لا شريک له، ولأجل هذه الدعوة يبذلون كلَّ غالٍ ونفيس، ولو كان لِلهِ شريک – تعالى عن ذلک علوّاً كبيراً – لأتانا مَن يدعو إليه.

وكما قال إمامُ الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام فى وصيته لإبنه الإمام الحسن عليه السلام ومَن يبلغه

1- (1) انظر: مستدرک سفينة البحار: ج 6، ص 314.

2- (2) الأنبياء: آية 25.

3- (3) انظر: تفسير ابن كثير: ج 2، ص 236 – ص 240. والآية 36 من سورة النحل.

كتابه، قال:

«واعلم يـا بُنىّ، أنّه لو كـان لربّک شـريکٌ لأتتک رُسُـلُه، ولرأيتَ آثارَ مُلکِه وسـلطانه، ولعرفتَ أفعالَه وصـفاتِه، ولکنّه إلهٌ واحـد کما وصـف نفسه...»(1).

ثم قالت الآية قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.

ما لكم تعبـدون الأصـنام وقد جاءتكم بيّنة ظاهرة جليّة، وشاهد على صـحة نبوّتى، وكانت هذه الجملة جواب لقولهم: (ائتنا بِبينةٍ) - كما مرّ عليک فى الروايات - تدلّ على صدقک، وأنّک مُرسَلٌ إلينا، وقوله: (هذِهِ ناقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً تفسير لما أُبهم فى قوله: بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فكأنّه قيل له: ما الآية؟

قال: هذه ناقة الله.

وقد يقول قائل: ما هو السرُّ فى إضافتها إلى الله عزّ وجلّ؟

والجواب: قد تكون إضافتها إليه عزّ وجلّ تشريفاً وتخصيصاً، نحو (بيت الله) و (روح الله).

أو لكونه خلقها بغير توسط ذكر وأنثى، أو لكونها لا مالک لها إلاّ الله تعالى(2).

فالإشارة هذِهِ ناقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً إشارة إلى ناقة بعينها، والسـبب فى كونها آية وحجّة من الله على صدق دعوة نبى الله صالح عليه السـلام أنّهم هم الذين سألوا صالحاً عليه السـلام أن يأتيهم بآيةٍ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صـخرة صـمّاء عيّنوها بأنفسهم، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحِجر، يُقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشـراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمننَّ به وليتبعنه، فلمّا أعطوه على ذلک عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته

1- (1) نهج البلاغة: ج 3، ص 44.

2- (2) انظر: تفسير البحر المحيط: ج 4، ص 331 - ص 332. مجمع البيان: ج 4، ص 291.

ودعا الله عزّ وجلّ، فتحرّكت تلك الصخرة، ثمّ انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء، يتحرّك جنينُها بين جنبيها، كما سألوا.

فعنـد ذلک آمن رئيسـهم ومَن كان معه على أمره، وأراد بقيـة أشـراف ثمود أن يؤمنوا فصـدّهم رجل يُـدعى ذؤاب بن عمرو... وأقامت الناقة وفصـيلُها بعد ما وضـعته بين أظهرهم مدةً تشرب من بئرها يوماً وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملأون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال تعالى: وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْـمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِـرْبٍ مُحْتَضَرٌ (1) ، وقال قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِـرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ 2.

ثمّ قـالت الآيـة فَـذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ «لمّا أضاف الناقـة إلى الله أضاف محل رعيها إلى الله؛ إذ الأرض وما أنبتت فيها ملكه تعالى لا ملككم ولا ـ إنبـاتكم، فى هـذا الكلام إشارة إلى أنّ هـذه الناقـة نعمـة من الله يُنال خيرُها من غير مشـقّة تكلف علف ولا طعمـة، وهو شأن الإبل... كانت الناقة مع ولدها ترعى الشّـجر وتشـرب الماء، ترد غباً، وإذا كان يومها وضـعت رأسـها فى البئر فما ترفعه حتّى تشـربَ كلَّ ما فيها، ثمّ تفجّج فيحلبون ما شاؤوا حتّى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدّرخون»(2).

وفى هذا المقطع «تلويح إلى أن تخليتهم الناقة وشأنها فى الأكل والسير فى الأرض كانت ممّا يشقّ عليهم، فكانوا يتحرّجون من ذلک، وفى قوله: فِي أَرْضِ اللّهِ إيمـاء إليه، فوصّـاهم وحـذّرهم أن يمنعوهـا من إطلاقهـا ويمسوهـا بسوء، كـالعقر والنحر؛ فـإنَّ وبالَ ذلک عـذابٌ أليمٌ يأخذهم»(3).

1- (1) القمر: آية 28.

2- (3) تفسير البحر المحيط: ج 4، ص 332.

3- (4) تفسير الميزان: ج 8، ص 181.

واللطيف فی الآیـة أنّها نهت عن المسّ بالسوء «وهذا تنبیه بالأدنی علی الأعلی، إذا کان قد نهاهم عن مسّـ ها بسوء إکراماً لآیة الله، فنهیهُ عن نحرها وعقرها ومنعها عن الماء والکلأ أولی وأحری، والمسّ والأخذ هنا اسـتعارة، وهذا وعیدٌ شدیدٌ لمَن مسّها بسوء. والعذاب الألیم هو ما حصل إذا عقروها، وما أعدّ لهم فی الآخرة»(1).

لکن حسدهم لها وهم یرونها تسرح فی بعض تلک الأودیة، ترد من فجٍّ وتصدر من غیره لیسعها؛ لأنّها کانت تتضلّع من الماء، وکانت علی ما ذُکر خلقاً هائلاً، ومنظراً رائعاً، إذا مرّت بأنعامهم نفرت منها، فلمّا طال علیهم واشتدّ تکذیبهم لصالح النبیِّ علیه السلام عزموا علی قتلها؛ لیسـتأثروا بالماء کُلَّ یوم، فیقال إنّهم اتّفقوا علی قتلها، وأنّ الـذی قتلها طاف علیهم کُلَّهم أنّهم راضون بقتلها حتی علی النساء فی خدورهن، وعلی الصبیـان، وهو الظاهر من قوله تعالی: فَکَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَیْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّاها (2) ، وقوله سـبحانه: وَ آتَیْنـا ثَمُودَ النّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها (3) ، وقوله عزّ وجل: فَعَقَرُوا النّاقَةَ (4) ، فأسند ذلک الی مجموع القبیلة، فدلَّ علی رضاهم جمیعاً بذلک(5).

ویُقـال: إنّ امرأةً منهم یُقـال لها عَنیزة ابنـة غنم بن مجلز، وتُکنّی أُمّ عثمان، کانت عجوزاً کافرة، وکانت من أشـدِّ الناس عـداوةً لصالـح علیه السـلام، وکانت لها بنات حسان ومال جزیل، وکان زوجها ذؤاب بن عمرو أحـد رؤساء ثمود، ومعها امرأة أُخری ذات حُسن ومال وجمال، کانت تحت رجل مُسـلم من ثمود ففارقته، فکانتا تجعلان لمَن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت إحداهما رجلاً یقال له الحبّاب، فعرضت علیه نفسها إن هو عقر الناقة فأبی علیها،

1- (1) علوم القرآن: ص 359.

2- (2) الشمس: آیة 14.

3- (3) الإسراء: آیة 59.

4- (4) الأعراف: آیة 77.

5- (5) انظر: تفسیر ابن کثیر: ج 2، ص 238.

فـدعت ابن عمّ لها يقال له مصدع بن مهرج فأجابها إلى ذلک، ودعت الأخرى (قدار بن سالف) وكان رجلاً أحمر أزرق قصـيراً، يزعمون أنّه كان ولد زنية، وأنّه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه، وقالت له: أُعطيک أىَّ بناتى شـئت على أن تعقر الناقة، فعند ذلک انطلق (قدار ومصدع) فاسـتغويا غواة من ثمود، فاتبعهما سـبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (1) ، وكانوا رؤساء فى قومهم، فاسـتمالوا القبيلـة الكافرة بكاملها فطاوعتهم على ذلک، فانطلقوا فرصـدوا الناقة حين صـدرت من الماء، وقـد كَمُن لها قـدار فى أصل صـخرة على طريقها، وكَمُن لها مصـدع فى أصل أُخرى، فمرّت على مصدع فرماها بسـهم فانتظم به عضلة ساقها.

وخرجت بنت غنم عنيزة وأمرت ابنتها، وكانت من أحسن الناس وجهاً، فسـفرت عن وجهها لقدار وزمرته، وشدّ عليها قدار بالسـيف فكشف عن عرقوبها، فخرجت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاةً واحدةً تُحذّر سقبها، ثمَّ طعن فى لبتها فنحرها، وانطلق سقبها، وهو فصيلها حتى أتى جبلاً منيعاً فصـعد أعلى صـخرة فيه، ورغا ثلاث مرات، وأنّه دخل فى صـخرة فغاب فيها، ويقال: إنّهم اتبعوه فعقروه مع أُمّه. فلمّا فعلوا ذلک وفرغوا من عقر الناقة، وبلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلمّا رأى الناقة بكى، وقال: تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيّامٍ 2.

وقال العلاّمـة الجزائرى: «وقـد ذكر الله سـبحانه قصَّتَهم فى كتابه المجيـد، تعظيماً لمواقعتهم الشـنيعة، وتخويفاً لهـذه الأمة من أن يرتكبوا مثلها، وقد ارتكبوا ما هو أشنع وأفضع منها.

1- (1) النمل: آية 48.

ولهذا صحَّ عنه صلى الله عليه و آله أنَّه قال لعلى عليه السلام:

«أشقى الأولين والآخرين من عقر ناقة صالح، ومَن ضربک يا على على قرنِک حتى تخضب من دم رأسک لحيتک... ومَن أمعن النظر فيه يظهر له شدَة انطباقه عليه؛ وذلک أنَّ علياً عليه السلام كان آية لله تعالى أظهرها على يدى رسول الله صلى الله عليه و آله.

كما قال عليه السلام: وأى آية أعظم منى... أمّا ولادته فكانت فى الكعبة التى هى صخرة بيت الله، كما خرجت الناقة من الصخرة، ولم يتّفق ذلک لنبىّ أو وصىّ نبىّ، وكان عليه السلام يمير الناس العلوم والحكم، كما كانت الناقة تميرهم السقيا.

وأمّا سبب شهادته عليه السلام فكانت قطامة (لعنة الله عليها)، كما كان السبب فى عقر الناقة الملعونة الزرقاء، وبعد أن استشهد عليه السلام عمدوا إلى ولده الحسين عليه السلام وقتلوه، كما قتل أولئک فصيل الناقة... فلمّا عقروا الناقة قالوا لصالح: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ.

قال صالح: تَمَتَّعُوا فِى دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيّامٍ وعلامةُ هلاكِكم: أنّه تصفرُّ وجوهكم غداً، وتحمرُّ بعد غدٍ، وتسوّدُ فى اليوم الثالث، فلمّا كان من الغد نظروا إلى وجوههم قد اصفرت، فلمّا كان اليوم الثانى احمرّت مثل الدم، فلمّا كان الثالث اسودّت وجوههم، فبعث الله عليهم صيحة جبرئيل عليه السلام صاح بهم صيحة تقطّعت بها قلوبهم، وخرقت منها أسماعهم، فماتوا أجمعين فى طرفة عين، ثمَّ أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقتهم»(1).

وليلة ضربة الأمام أمير المؤمنين عليه السلام صاح جبرئيل صيحةً سمعها كلّ مستيقظ: هُدّمت والله أركان الهدى، وانطمست والله نجوم السماء وأعلام التقى، وانفصمت والله العروة الوثقى، قُتل ابنُ عمّ المصطفى، قُتل الوصىّ المجتبى، قُتل علىُّ المرتضى، قتل - والله - سيّدُ الأوصياء قتله أشقى الأشقياء، فلمّا سمعت أُمّ كلثوم نعى جبرئيل لطمت وجهها وخدّها وشقّت جيبها وصاحت: وا أبتاه، وا علياه، وا محمداه، وا سيداه، ثمَّ أقبلت على

1- (1) قصص الأنبياء: ص 104 - ص 108.

أخويها الحسن والحسين(1) ، وكأنّي بالحوراء زينب عليها السلام تندبه:

بالمحراب اويلى طاح أبو حسين اودم راسه يتفايض على العين

يوم طاح أبو الحسنين مجروح ثار اصياح لهل العرش بالنوح

تشوف السم اودم الراس لونين طبره اشلون طبره تشعب الروح(2)

***

إنّا لله و إنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أيَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

1- (1) انظر: بحار الأنوار: ج 42، ص 282.

2- (2) مجمع مصائب أهل البيت عليهم السلام: ج 4، ص 114.

المحاضرة الخامسة والعشرون: أوهن البيوت

اشارة

ص:329

تأوّه قلبی والفؤادُ کئیبُ وأرّقَ نومی فالسُهادُ عَجیبُ

وممّا نفی نومی وشیّبَ لاَمتی تصاریفُ أیّامٍ لَهُنَّ خُطوبُ

فمن مُبلغٌ عنّی الحُسینَ رسالةً وإن کرهتها أنفسٌ وقلوبُ

ذبیحٌ بلا جُرمٍ کأنَّ قمیصَهُ صبیغٌ بماء الأُرجوانِ خضیبُ

فللسیفِ أعوالٌ وللرُمحِ رنّةٌ وللخیلِ من بعد الصهیلِ نحیبُ

تزلزلتِ الدنیا لآلِ مُحمّدٍ وکادت لهم صُمُّ الجبالِ تذوبُ

فإن کان ذنبی حُبّ آل محمّدٍ فذلک ذنبٌ لستُ عنهُ أتوبُ

هُم شُفعائی یومَ حَشری وموقفی إذا ما بدت للناظرینَ خُطوبُ (1)

***

قال تعالی: مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُیُوتِ لَبَیْتُ الْعَنْکَبُوتِ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللّهَ یَعْلَمُ ما یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْ ءٍ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (42) وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ

1- (1) القصیدة للإمام الشافعی، کما فی مناقب آل أبی طالب: ج 3، ص 269، جاء فی ترجمته أنّه ولد فی شهر رجب من سنة 150 ه 767 م، أُمّه فاطمة أُمّ حبیبة الأزدیة. أمّا والده فکان رجلاً حجازیاً فقیراً، خرج مهاجراً من مکة إلی الشام، وأقام ب (غزّة) و (عسقلان) ببلاد فلسطین، ثمّ مات بعد ولادة الشافعی بقلیل فکفلته أُمّه. کبر الغلام وبلغ من العمر سنتین، وأصبح قرّة عین والدته، فرأت أُمّه أن تحمله إلی مکة المکرَّمة صوناً لنسبه من الضیاع إذا بقی فی (غزة)، ونزلت بجوار الحرم بحیّ یقال له (شعب الخیف)، ولمّا ترعرع أرسلته أُمّه إلی الکُتّاب، ولمّا لم یکن فی طاقة أهله القیام بنفقات تعلیمه أهمله المعلم وانصرف عنه. توفی فی لیلة الجمعة الأخیرة من شهر رجب سنة 204 ه بعد العشاء الأخیرة، من أشهر کُتبه کتاب الأُمّ الذی استفدنا هذه الترجمة من مقدمته.

نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاّ الْعالِمُونَ (1).

لقد احتلَّ المَثل فی القرآن الکریم منزلةً کبیرة لا تقل عن مستوی القصّة، حتّی ألّفَ البعض من العلماء کتاباً فی ذلک(2).

والغاية من هذه الأمثال كالغاية من القصّة تماماً، كما هو صريح القرآن الكريم، حيث يقول: وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (3) ، وقال تعالی فی القصص: فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (4) ، إذن الغاية هی التفکّر، وهذه الأمثال القرآنية تختلف من زمان إلی آخر، فمثلاً الأمثلة التی ضربها القرآن الکریم فی مکّة تختلف عن الأمثلة المدنيّة، وهذا أمر طبيعی، كالإختلاف بين نفس الآيات المكّية والآيات المدنيّة، فكُلُّ واحدٍ منهما له طبيعته الخاصّة ومحتواه الخاصّ، ومعالجته لداءٍ معيّن يختلف عن الآخر، فالآيات المكّية كالأمثال المكّية غالباً ما تتحدّث عن أُصول الدين، بخلاف الآيات المدنيّة والأمثال المدنيّة، فهی فی الغالب تتحدّث عن فروع الدين وآدابه وما شاكل ذلک؛ لتحقق أُسس الإسلام والدعوة إلی التوحيد ونبذ عبادة الأصنام، فيأتی الدور عن تكميل النفوس وتطهيرها من شوائب الجاهلية. وبما أنَّ سورة العنكبوت سورة مكية بكلِّ آياتها – بما فيها الآيات محل البحث – نجد أنّها جاءت لتعالج ما ذكرناه من الداء المتمثّل بالشرک وعبادة الأصنام واتّخاذها أولياء من دون الله.

قال الشّيخ السبحانی: «أمّا الأمثال المكّية، فكانت دائرة مدار معالجة الأدواء التی

1- (1) العنكبوت: آية 41 – آية 43.

2- (2) مثل كتاب: الأمثال فی القرآن لابن قيّم الجوّزية (ت 751 ه –)، والأمثال فی القرآن الكريم للشيخ جعفر السبحانی (دام ظلهُ الشّريف)، وقد ذكر فی مقدّمةِ كتابه المذكور (14) كتاباً حول ذلک، حسب التسلسل الزمنی.

3- (3) الحشر: آية 21.

4- (4) الأعراف: آية 176.

ابتُلیَ بهـا المجتمع المکّی، لا سـیّما وأنَّ النبیَّ صـلی الله علیه و آله کان یجادل المشـرکین ویسـفّه أحلامَهم، ویـدعوهم إلی الإیمان بالله وحـده، وترک عبـادة غیره، والإیمان بالیوم الآخر، ففی خضمِّ هـذا الصـراع یأتی القرآن بأروع مثل، ویشـبّه آلهتهم المزعومـة التی تمسّکوا بأهدابها ببیت العنکبوت، الذی لا یُظهر أدنی مقاومة أمام النسـیم الهادی، وقطرات المطر، وهبوب الریاح... وقال: یا أَیُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَنْ یَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ یَسْلُبْهُمُ الـذُّبابُ شَیْئاً لا یَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ»1.

أولیاءُ من دون الله

لیس من القبیح ولا من المذموم فی الإسـلام أن یتّخذَ الرّجلُ ولیاً، شریطة أن لا یکون ولیّاً من دون الله؛ ولذا صار من الفرائض موالاة أولیاء الله والبراءة من أعداء الله، فأولیاء الله أولئک الذین بشّرهم القرآن الکریم، حیث یقول: (أَلا إِنَّ أَوْلِیاءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ 2 ، وهم الـذین بـذلوا کُلَّ غالٍ ونفیس فی سبیل الله، حتّی قـدَّموا أنفسَهم جهاداً فی سبیله، ولم یکن الموت عنـدهم إلاّ أُمنیة فی سبیل الحقّ وإحقـاقه، وإبطال الباطل وإزهاقه، بخلاف الـذین یـدّعون الولایـة لِلّهِ عزّ وجلّ من دون دلیلٍ وبرهان، قال تعالی: (قُلْ یا أَیُّهَا الَّذِینَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّکُمْ أَوْلِیاءُ لِلّهِ مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (6) وَ لا یَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ وَ اللّهُ عَلِیمٌ بِالظّالِمِینَ 3.

وإنّمـا القبیـح والمـذموم فی منطق القرآن الکریم والإسـلام هو اتّخـاذ أولیـاء من دون الله تبـارک وتعـالی، وهو هنـا محـلّ الکلاـم، وهم المقصودون فی الآیات المبارکة التی افتتحنا بها کلامنا.

وقد «شبّه الله سبحانه حال مَن اتّخذ من دونه أولياء ينصرونه عند الحاجة فى الوهن والضعف بحال العنكبوت الذى يتّخذ بيتاً ليأوى إليه، فكما أنّ بيت العنكبوت فى غاية الوهن والضعف، فكذلک حال مَن اتّخذ من دون الله أولياء مثله فى الضعف والوهن.

والمثلُ قولٌ سائر يُشبّه به حال الثانى بالأول. و (الاتخاذ) أخذ الشىء على إعداده لنائبة... فلمّا أخذوا عبادة غير الله إعداداً لنائبة كانوا اتّخذوا الأولياء من دون الله، وذلک فاسد؛ لأنّ عبادة الله هى العاصمة من المكاره دون عبادة الأوثان»(1).

ولا ينفعهم أن يعتذروا بعد ذلک بأنّهم اتّخذوا هؤلاء ليقربوهم إلى الله؛ ما داموا قد عبدوهم من دون الله، أو اتّخذوهم أولياء من دون الله، فالأمر واحدٌ، قال تعالى: أَلا لِلّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللّهِ زُلْفى إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ2.

والخلاصة: هذا مثلٌ ضربه الله عزّ وجلّ لكلِّ مَن يتَّخذ من دون الله أولياء لا ينفعونه لضعفهم، كما أنّ بيت العنكبوت لا ينفع ولا يقى(2)؛ لكونه فى غاية الوهن والضعف ولا يجدى نفعاً(3).

الإعجاز فى هذا التشبيه

«إنَّ الإعجاز العلمى كلّ الإعجاز فى هذه الآية الكريمة يتجلّى بأجلى معانيه فى لفظة (اتّخذت) بصيغة الفعل المؤنّث، وهى إشارة علميّة فى غاية الروعة والدقّة، للدلالة على أنّ ما يقوم ببناء بيوت العناكب هى الأنثى منه، وأنّ الذكر من العناكب لا شأن له بذلک، وهذه

1- (1) التبيان: ج 8، ص 211.

2- (3) انظر: تفسير ابن أبى حاتم الرازى: ج 9، ص 3063. معانى القرآن: ج 5، ص 227.

3- (4) انظر: مجمع البيان: ج 8، ص 27.

حقيقة ما كان أحد مطلقاً يفطن إليها وقت نزول القرآن، ولكن لمّا اشتغل علماء الأحياء حديثاً بدراسة الحشرات ووضعوا فى دراستها علماً قائماً بذاته، تبيّنت لهم حقائق مذهلة عن حياة الحشرات، التى تبلغ مئات الآلاف فى أنواعها، وأنَّ كُلَّ نوعٍ منها يتميّز بأشكاله وأحجامه، وألوانه، وطبائعه، وغرائزه المميّزة لكلِّ نوعٍ منها عمّا سواه... ومن دراسة حياة العناكب لاحظ العلماء أنّ بيت العنكبوت له شكل هندسى خاص، دقيق الصنع، ومقام فى مكان مختار له فى الزوايا، أو بين غصون الأشجار، وأنَّ كلَّ خيطٍ من الخيوط المبنى منها البيت مكوّن من أربعة خيوط أدقّ منه، ويخرج كلُّ خيطٍ من الخيوط الأربعة من قناة خاصّة فى جسم العنكبوت، ولا يقتصر بيت العنكبوت على أنّه مأوى يسكن فيه، بل هو فى نفس الوقت مصيدة تقع فى بعض حبائلها اللزجة الحشرات الطائرة، مثل الذباب وغيره؛ لتكون فريسة يتغذّى عليها، وإنه لمنظر يثير الدهشة حقّاً عندما يرى الإنسان هذه الحشرة الرقيقة تتحرّك بأرجلها الدقيقة بسرعة بين خيوط بيتها الواهى لتمسك بفرائسها»(1).

قال الدميرى: «العنكبوت: دويبة تنسج فى الهواء، وجمعُها عناكب، والذكر عنكب، وكنيته أبو خيثمة وأبو قشعم، والأُنثى أم قشعم، ووزنه فعللوت، وهى قصار الأرجُل، كبار العيون، للواحد ثمانية أرجل وست عيون، فإذا أراد صيد الذباب لطأ بالأرض، وسكن أطرافه، وجمع نفسه، ثُمَّ وثب على الذباب فلا يخطئه..

قال افلاطون: أحرص الأشياء الذباب، وأقنع الأشياء العنكبوت، فجعل الله رزق أقنع الأشياء فى أحرص الأشياء.

قال الجاحظ: وَلَدُ العنكبوت أعجب من الفرّوج الذى يخرج إلى الدنيا كاسباً كاسياً؛ لأنَّ ولد العنكبوت يقوى على النسج ساعة يولد من غير تلقين ولا تعليم، ويبيض ويحضن، وأوّل ما يولد دوداً صغاراً، ثمَّ يتغيّر ويصير عنكبوتاً، وتكمل صورته عند ثلاثة

1- (1) القرآن وإعجازه العلمى: ص 157 - ص 158.

أيّام... إذا وضع نسج العنكبوت على الجراحات الطّرية فى ظاهر البدن حفظها بلا ورم، ويقطع سيلان الدم إذا وضع عليه، وإذا دُلكت الفضّة المتغيرّة بنسجه جلاها...»(1).

وممّا يلفت النظر فى هذه الآيات الشريفة هو أن العنكبوت هى التى اتّخذت بيتاً لم يأمرها الله عزّ وجلّ باتّخاذها، ولم يوحِ إليها كما فى النحل؛ إذ يقول تبارك اسمه: وَ أَوْحى رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِی مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمّا يَعْرِشُونَ (2) ، ولكنّه تبارك وتعالى لم يصف بيتها بالوهن، بخلاف العنكبوت، ولعلَّ ذلک راجع إلى أنّ النحل لم يتّخذ بيتاً من عند نفسه، بخلاف العنكبوت، فهى التى اتّخذت بيتاً من الجبال والأشجار وممّا يعرشرون، كلّها أُمور قد تتّخذ العناكب فيها البيوت لكنّه وصف بيتها بالوهن، ولم يصف بيوت النحل بذلک، وهكذا الذى يتّخذ وليّاً من نفسه، حاله كحال العنكبوت، بخلاف الذى يتّخذ وليّاً بأمر الله ووحيه، يكون حاله حال النحل التى أمرها الله عزّ وجلّ باتّخاذها البيوت، فاتَّضح الفرق إذن، وتبيَّنَ لنا الإعجاز القرآنى الرائع فى هذه الآيات المباركة.

قال الشيخ السبحانى: «إنَّ التشبيه يترک تأثيراً بالغاً فى النفوس مثل تأثير الدليل والبرهان، فتارةً ينهى عن الغيبة، ويقول: لا تغتب؛ فإنّه يوجب العذاب ويورث العقاب، وأُخرى يُمثّل عمله بالمثل التالى: وهو أنَّ مثل مَن يغتاب مثل مَن يأكل لحم الميت؛ لأنّک نلت من هذا الرجل وهو غائب لا ـ يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب، فكان نيلک منه كعمل مَن يأكل لحم الميت، وهو لا يعلم ما يُفعل به ولا يقدر على الدفع.

ثمَّ إنّ الغرض من تشبيه الآلهة المزيّفة بهوام وحشرات الأرض كالبعوض(3) والذباب والعنكبوت هو الحطّ من شأنها، والإستهزاء بها»(4).

1- (1) حياة الحيوان الكبرى: ج 3، ص 288 - ص 292.

2- (2) النحل: آية 68.

3- (3) البقرة: آية 26.

4- (4) الأمثال فى القرآن الكريم: ص 217 - ص 218.

مواصفات هذا البيت

كلّ مَن يعرف اللغة العربية يتبادر إلى ذهنه عند سماع كلمة (بيت) البيت المعروف، حتّى أنّ الجوهرى فى الصحاح، قال: «بيتٌ: البيت معروف، والجمع بيوت»(1) ، ولكونه معروفاً لم يشرحه، ولم يوضّحه.

أمّا بيت العنكبوت فيختلف حاله تماماً عن البيوت المعروفة.

قال الرازى: «إنّ البيت ينبغى أن يكون له أُمور: حائط حائل، وسقف مظل، وباب يغلق، وأُمور ينتفع بها ويرتفق، وإن لم يكن كذلك فلا بدّ من أحد أمرين: إمّا حائط حائل يمنع من البرد، وإمّا سقف مظل يدفع عنه الحرّ، فإن لم يحصل منهما شىء فهو كالبيداء ليس ببيت... فإن لم تجتمع هذه الأُمور فلا أقل من دفع ضرّ أو جرّ نفع، فإنّ مَن لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء، فإذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معانى البيت شىء، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معانى الأولياء شىء»(2).

هذه هى مواصفات ما يسمى ببيت العنكبوت «فإنّ بيتها يفتقد لأدنى مقاومة أمام الظواهر الجوية والطبيعية، فلو هبَّ عليه نسيمٌ هادى لمزّق النسيج، ولو سقطت عليه قطرة من ماء لتلاشى، ولو وقع على مقربة من نار لاحترق، ولو تراكم عليه الغبار لمُزّق. هذا هو حال المشبّه به، والقرآن يُمثّل حال الآلهة المزيَّفة بهذا المثل الرائع، وهو أنّها لا تنفع ولا تضر، لا تخلق ولا ترزق، ولا تقدر على استجابة أى طلب، بل حال الآلهة المزيّفة الكاذبة أسوأ حالاً من بيت العنكبوت، وهو أنَّ العنكبوت تنسج بيتها لتصطاد به الحشرات ولولاه لماتت جوعاً، ولكن الأصنام والأوثان لا توفّر شيئاً للكافر»(3).

1- (1) الصحاح: ج 1، ص 244.

2- (2) تفسير الرازى: ج 25، ص 67 - ص 68.

3- (3) الأمثال فى القرآن الكريم: ص 218.

ثمَّ تختم الآية هذا التشبيه بقوله عزّ وجلّ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ «يعنى لو علموا صحّة ما أخبرناهم به ويتحققونه، لكنّهم كفّار بذلک، فلا يعلمونه ف - (لو) متعلّقة بقوله (اتّخذوا) أى: لو علموا أنَّ اتّخاذهم الأولياء كاتّخاذ العنكبوت بيتاً سخيفاً لم يتَّخذوهم أولياء، ولا يجوز أن تكون متعلّقة بقوله: وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ؛ لأنّهم كانوا عالمين بأنَّ بيت العنكبوت واهٍ ضعيف»(1) «ولكنّهم يجهلون ذلک فيحسبون أنّهم ينفعونهم ويقربونهم إلى الله زلفى»(2).

الله يعلم بمَن يتوّلى غيره عزّ وجلّ

وبعد هذا المشهد التمثيلى الرائع، والتشبيه القرآنى البديع بمَن اتّخذ من دونه أولياء، يؤكّد الله عزّ وجلّ أنّ مَن عبد غيره وأشرک به أنّه تعالى يعلم ما هو عليه من الأعمال، ويعلم ما يُشركون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم إنّه حكيم عليم(3) ، فيقول تعالى: إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَىْ ءٍ فهذا وعيدٌ منه سبحانه، ومعناه أنّه يعلم ما يعبد هؤلاء الكفّار وما يتّخذونه من دونه أرباباً، وهو العزيز الذى لا يُغالب فيما يريده، الحكيم فى جميع أفعاله(4).

«وإذا أمهلهم فليس بسبب العجز والضعف، أو عدم العلم، أو أنّ قدرته محدودة، بل كلّ ذلک من حكمته التى توجب أن يُمنحوا الفرصة الكافية؛ لتتم الحُجّة البالغة عليهم، فيهتدى مَن هو جديرٌ بالهدى»(5).

1- (1) التبيان: ج 8، ص 211 - ص 212.

2- (2) جامع البيان: ج 20، ص 187.

3- (3) انظر: تفسير ابن كثير: ج 3، ص 424.

4- (4) انظر: تفسير مجمع البيان: ج 8، ص 28.

5- (5) تفسير الأمثل: ج 12، ص 396.

إشكال البعض على التشبيهات القرآنية

ثمَّ يأتى الدور إلى الآية الثالثة، وهى قوله تعالى: وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ وهذا جواب لإشكال مقدّر أشكله ويشكله أعداء الإسلام على التشبيهات القرآنية، وكانوا يقولون: الله الذى خلق السماوات والأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت والذباب والحشرات وما شاكلها؟ فيردّ القرآن: وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ .

«إنّ أهميّة المثال وظرافته لا تكمن فى كبره وصغره، بل تظهر أهمّيته فى انطباق المثال على المقصود، فقد يكون صغر الشىء الممثَّل به أكبر نقطة فى قوّته.

قالوا فى ضرب الأمثال: ينبغى عند الكلام عن الأشياء الضعيفة، والتى فيها وهن أن يُمثّل لها فى ما لو اعتمد عليها ببيت العنكبوت، فهو أحسن شىء يُنتخب لهذا الوهن وعدم الثبات، فهذا المثال هو الفصاحة بعينها والبلاغة ذاتها؛ ولذا قيل: إنّه لا يعلم دقائق أمثلة القرآن ولا يدركها إلاّ العلماء.

فإذن التشبيه بالعنكبوت وبيته الخاوى هو أمرٌ محسوبٌ بدقّة، وإذا ما اختار موجوداً صغيراً للتمثيل به فهو لبيان الحقّ، وإلاّ فهو خالق أعظم المجرّات والمنظومات الشمسية وغيرها»(1).

وهذا يعنى أنّه ضرب للناس أمثالاً، وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها لا يدركها إلاّ العلماء(2).

وفى تفسير القمّى: «العالمون يعنى آل محمّدٍ عليهم السلام»(3) وبعض العامّة فسّر الْعالِمُونَ ب - «الراسخون فى العلم، المدبرّون فى الأشياء على ما ينبغى، وعنه (صلّى الله عليه [وآله] وسلم)

1- (1) تفسير الأمثل: ج 12، ص 397 - ص 398.

2- (2) انظر: تفسير الرازى: ج 25، ص 70.

3- (3) تفسير القمى: ج 2، ص 150.

أنّه تلا هذه الآية فقال: «العَالِم مَن عقل عن الله تعالى، وعمل بطاعته واجتنب سخطه»(1).

لكن من أعظم المصائب أن يكون العالم بين يدى الجهّال يشكو إلى الله تعالى، فقد روى عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ثلاثة يشكون إلى الله تعالى يوم القيامة: عالمٌ بين ظهرانى قوم لا يسألونه عن علمه، ومسجد قوم لا يعمرونه بذكر الله والصلاة فيه، ومصحف فى منزل شخص وهو لا ينظره ولا يقرء فيه»(2) ، وهذا الذى حصل مع أبى عبد الله الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، يعظهم فلم ينفع، يسألهم ماذا يريدون منه ليس عندهم جواب إلاّ الأسنّة والسهام، ورحم الله السيد رضا الهندى، حيث يصف ذلك المشهد، إذ يقول:

لم أنسه إذ قام فيهم خاطباً فإذا هُمُ لا يملكونَ خطابا

يدعو ألستُ أنا ابن بنتِ نبيِّكم وملاذكَم إن صرف دهرٍ نابا

هل جئتُ فى دينِ النبىّ ببدعةٍ أم كُنتُ فى أحكامِه مُرتابا

أم لم يوصِّ بنا النبىّ وأودعَ ال - - ثقلينَ فيكم عترةً وكتابا

إن لم تدينوا بالمعاد فراجعوا أحسابَكم إن كُنتُم أعرابا

فغدوا حيارى لا يرونَ لوعظِهِ إلاّ الأسنةَّ والسهام جوابا(3)

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

1- (1) تفسير أبى السعود: ج 7، ص 41.

2- (2) عوالى اللئالى: ج 4، ص 65.

3- (3) ديوان السيد رضا الهندى رحمه الله: ص 42.

المحاضرة السادسة والعشرون: استدراج العُصاة

اشارة

ص:341

ولزينبٍ نَوحٌ لفقدِ شَقيقِها تدعوه يابنَ الزّاكياتِ الرُكّعِ

أحُسينُ يا خيرَ الخلائقِ كلّها وقتيلَ أولادِ اللئامِ اللُكّعِ

اليوم أصبغُ فى عزاک مَلابسى سُوداً واسكبُ هاطلاتِ الأدمُعِ

اليوم ساقونى بقيدٍ يا أخى والضربُ ألّمنى وأطفالى معى

اليوم شبّوا فى المُخيّم نارَهم وتناهبوا ما فيهِ حتّى بُرقعى

أنعم جواباً يا حُسينُ أما ترى شمرَ الخنا بالسّوط ألّم أضلُعى

فأجابها من فوقِ شاهقةِ القَنا قُضىَ القضاءُ بما جرى فاسترجعى

وتكفَّلى حالَ اليتامى وانظرى ما كنتُ صنعُ فى حِماهُم فاصنعى(1)

1- (1) الأبيات من قصيدةٍ رائعةٍ للشيخ مُحمّد بن شريف بن فلاح الكاظمى، قال عنه السيد جواد شبّر رحمه الله فى أدب الطف (ج 6، ص 124 - ص 126): «الشيخ محمد شريف بن فلاح الكاظمى نزيل الغرىّ، ولد فى الكاظمية ونشأ فيها، ثمّ هاجر إلى النجف وقرأ العلوم فيها فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر للهجرة، وكان من المشاهير فى العلم والأدب، واللامعين من بين أقرانه، له إطّلاع بجملة من العلوم ومن أهل الكرامات الباهرة، معاصراً للشيخ مهدى الفتونى العاملى النجفى المتوفى سنة 1183 ه -، وللسيد محمد مهدى الطباطبائى المعروف ببحر العلوم، وللشيخ الأكبر الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء، وللشيخ أحمد النحوى، وكان على جانب عظيم من التقى والورع والصلاح، تنسب إليه كرامات الصلحاء الأبرار... وله القصيدة الدالية فى مدح أمير المؤمنين عليه السلام، وإنّه ألقاها فى الحرم أمام القبر الشريف، وسقط عليه القنديل الذهبى المعلّق، فأُخذ من يده وعُلّق، فوقع عليه مرّة ثانية فأخذه، والقصيدة أولها: أبا حسن ومثلک مَن ينادى لكشف الضرّ والهول الشديد توفى رحمه الله سنة 1220 ه -».

نادها من فوگ الرُمح الله يرعاج اصبرى يخويه وسلّمى أمرچ إلمولاچ

راسى على راس الرمح هلرايح وياچ وياچ يبره العايله ويرعه اليطيحون

يختى استعدى للهظم والهظم جدّام لازم يودّوكم يساره الطّاغى الشّام

ولهلچ تسمعين المسبّة ابمجلس العام واهناک تلگين المرار أنواع وافنون

***

قال تعالى: فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْ ءٍ حَتّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (1).

يبعث الله تبارک وتعالى الأنبياءَ والرُسُلَ لإجل هداية الناس إلى الخير والسعادة والقسط، وينزّل معهم الكتب السماوية التى لا تختلف فى هذه المفاهيم، فالعدالة والقسط وهداية الناس من أهم هموم الأنبياء منذ أن خلق الله البشر، وبعث إليهم الرُسُل.

قال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ 2.

«يبعث اللهُ تعالى الأنبياء والرسل ليُذكّروا الناس بالمخزون الفطرى الذى وضعه الله فى النفس البشرية عند بدأ الخلق، وهذا المخزون هو توحيده تعالى، ويقوم الأنبياء والرسل على امتداد عهد البعثة بسوق الناس إلى طريق الهُدى ببيانهم للناس، ما أنزل إليهم من ربِّهم، وبعد أن يقيم رُسُلُ الله الحجّة على الناس ينسى بعض الناس ما ذُكّروا به، ويقومون

1- (1) الأنعام: آية 44 - آية 45.

بأعمال تعارض الفطرة ووصايا الله»(1).

«تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضّالين والمشركين، ويتّخذ القرآن فيها طريقاً آخر لإيقاظهم، وذلک بأن ينقلهم إلى القرون السالفة والأزمان الماضية، يشرح لهم حال الأُمم الضالة والظالمة والمشركة، ويبيّن لهم كيف أُتيح لها جميع عوامل التربية والتهذيب والوعى، غير أنّ جمعاً منهم لم يُلقوا بالاً إلى أىّ من تلک العوامل، ولم يعتبروا بما حاقّ بهم من (بأساء) و (ضراء) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِکَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ أما كان من الأجدر بهؤلاء أن يستيقظوا عندما جاءهم البأس وأحاطت بهم الشدائد؟!»(2).

أسبابُ الغفلة والنسيان

تبدأ الآيتان ببيان هذا الشرط وهو فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ ثُمّ ترتّب عليه الجزاء، وذكرنا بأنّ المقصود ممّا ذُكّروا به هو جميع ما جاء به الأنبياء والمرسلون؛ تنبيهاً لما فى فطرتهم من توحيد الله تبارک وتعالى «وتركوا ما وعظوا وأمروا به»(3) «وتركوا العمل بما أمرناهم به على ألسن رسلنا»(4)، ويشمل ذلک كلّ ما أتى على ألسن الأنبياء والرسل.

ولا ريب أنَّ ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ممّا جاء على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه و آله لتواتر الأحاديث فى ذلک، وقد روى عن الإمام أبى جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ : لمّا تركوا ولاية علىٍّ عليه السلام، وقد أُمروا بها، أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ 5.

ويعود السبب فى غفلة الناس ونسيانهم لِما أمروا به إلى أمرين:

1- (1) إبتلاءات الأُمم: ص 364.

2- (2) تفسير الأمثل: ج 4، ص 285 - ص 286.

3- (3) تفسير البغوى: ج 2، ص 97. تفسير السمرقندى: ج 1، ص 469.

4- (4) تفسير جامع البيان: ج 7، ص 253.

«الأول: إنّهم لكثرة آثامهم وعنادهم فی الشرک زایلت الرحمة قلوبهم، واللیونة أرواحهم... وقست قلوبهم.

والثانی: إنّ الشیطان قد استغلَّ عبادتهم وأهواءهم فزین فی نظرهم أعمالهم، فکُلُّ قبیح ارتکبوه أظهره لهم جمیلاً، ولکلّ خطأ فعلوه جعله فی عیونهم صواباً. وزین لهم الشیطان ما کانوا یعملون»(1).

وبهذا التزیین أصبحوا معجبین بأعمالهم، لا یرون أحداً یصل إلی عبادتهم وکمالهم، فنسوا ما ذُکّروا به، فجاء الجواب الإلهی الغریب أنّه فتح علیهم أبوابَ کُلِّ شیءٍ عقوبةً، لا کرامةً لهم.

جزاء الغفلة والنسیان

من الطبیعی جدّاً أن یتوقَّع إنسانٌ من آخرَ عقوبةً فیما لو صدرت منه إساءةٌ بحقّه، ومن الطبیعی جدّاً أن یخاف صاحب الذنب من ذنبه الذی ارتکبه بحقّ سیده ومولاه، وفطرة الإنسان تحکم بذلک.

لکن لیس من المألوف ولا من المتوقّع فی العادة أن تُقابل الإساءة بالإحسان، وترک الأوامر بزیادة النعم، والعصیان بفتح الأبواب کلّها!!

ولکن یرتفع هذا الإستغراب عندما نسمع آیات القرآن الکریم تجازی الغفلة وترک جمیع ما ذکّروا به وأُمروا أن یأتوا به، تجازیهم بتواتر النعم، وفتح الأبواب، وتجدید کلّ نعمةٍ علیهم، فیصیر الجزاء غیر ما یتوقع من هکذا فعل، فالفعل هو الإساءة، والجزاء هو الإحسان بحسب الظاهر فَلَمّا نَسُوا ما ذُکِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَیْهِمْ أَبْوابَ کُلِّ شَیْ ءٍ.

1- (1) تفسیر الأمثل: ج 4، ص 286.

الاستدراج عقوبة أم تنبيه ؟

«نقرأ فى هـذه الآيات أنّه عنـدما لم يكن لإبتلائهم بالشدائـد تأثيرٌ فى توعيتهم، فإنّ الله يفتح أبواب الخيرات على أمثال هؤلاء الآثمين، فهل هذا ترغيبٌ بعد المعاقبة، أم هو مقدّمة لعقابٍ أليم؟ أى: هل هذه النعم نعم إسـتدراجية، تغمر المتمرّدَ تدريجيّاً بالرفاهية والتنعم والسـرور، تغمره بنوع من الغفلة، ثمَّ يُنتزع منه كلُّ شىء دُفعةً واحدةً؟

ثمَّة قرائن فى الآيـة تؤيّـد الإحتمال الثانى، ولكن ليس هناك ما يمنع من قبول الإحتمالين، أى أنّه ترغيبٌ وتحريضٌ على الإستيقاظ، فإن لم يؤثّر، فمقدّمة لسلب النعمة، ومن ثَمَّ إنزال العذاب الأليم»(1).

وهذه القرائن واضـحةٌ من أُسلوب الخطاب، والأخذ بغتةً دليل صارف عن الإحتمال الأول. نعم، هو ممكن بحدِّ ذاته، لكن ثبوتاً لا معيّن له، بل القرائن صارفة عنه، والمهم هنا: هو بيان قوله تعالى: فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَىْ ءٍ، ومن الواضح أنّ التعبير ب - كُلِّ شَىْ ءٍ لا يكون من الشرّ، وإنّما كلّ شىء من الخير والرزق، يعنى أرسلنا عليهم كُلَّ خيرٍ، أو من الرزق(2) ، ونقلوا من البأساء والضراء إلى الراحة والرخاء وأنواع الآلاء والنعماء. والمقصود أنّه تعالى عاملهم بتسـليط المكاره والشدائـد عليهم تارة، فلم ينتفعوا به، فنقلهم من تلك الحالة إلى ضدها، وهو فتح أبواب الخيرات عليهم، وتسهيل موجبات المسرّات والسعادات لديهم، فلم ينتفعوا به أيضاً.

«وهـذا كما يفعله الأب المشـفق بولده، يُخاشـنه تارةً، ويُلاطفه أُخرى؛ طلباً لصـلاحه: حَتّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا من الخير والنعم، لم يزيدوا على الفرح والبطر من غير إنتدابٍ لشكرٍ، ولا إقدامٍ على إعتذارٍ وتوبةٍ... معناه: فتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شىءٍ كان مغلقاً

1- (1) تفسير الأمثل: ج 4، ص 288.

2- (2) انظر: تفسير السمرقندى: ج 1، ص 469.

عنهم من الخير»(1) ، «وهذا إستدراجٌ منه تعالى وإملاء لهم»(2).

حقيقة الإستدراج

وردت لفظة الإستدراج فى القرآن الكريم؛ فى سورتى الأعراف والقلم بنفس النصّ، وهو قوله تعالى: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ 3 ، ولم ترد فى موضعٍ آخر بهذا اللفظ. نعم، مضمون الإستدراج ورد فى آيات عديدة، مثل الآيات محل البحث، ومثل قوله تعالى: أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ (55) نُسارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (3).

وأمّا فى الروايات الشريفة فقد ورد الإستدراج بلفظه ومعناه كثيراً.

فعن أبى عبد الله عليه السلام قال:

«إنّ الله إذا أراد بعبدٍ خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكّره الاستغفار، وإذا أراد بعبدٍ شرّاً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة؛ لينسيه الاستغفار ويتمادى بها، وهو قول الله عزّ وجلّ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ

بالنعم عند المعاصى»(4).

وسُئل أبو عبد الله عليه السلام عن الإستدراج، فقال:

«هو العبد يذنب الذنب فيملى له، ويجدّد له عندها النعم، فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مُستَدرَجٌ من حيث لا يعلم»(5).

وسُئل عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ قال:

«هو العبد يذنب الذنب فتُجدّد له النعمة معه، تُلهيه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذنب»(6).

1- (1) تفسير الرازى: ج 12، ص 226.
2- (2) تفسير ابن كثير: ج 1، ص 55.
3- (4) المؤمنون: آية 55 - آية 56.
4- (5) الكافى: ج 2، ص 452، ح 1.
5- (6) الكافى: ج 2، ص 452، ح 2.
6- (7) المصدر نفسه: ح 3.

والإستدراج هو الإملاء والإنظار والإمهال، ويطلق على إمهال الله المجرم بعدم الأخذ الحالى عليه... واستدراج الله للعباد: هو إغفال العُصاة بالإحسان، وتجديد النعم عليهم عقيب الإساءة(1) ، كما بيَّنت الآيات والروايات.

ومن هنا نعرف أنَّ الإستدراج لا يكون مع الطاعة لله عزّ وجلّ، وإنّما مع العصيان والتمرّد، كما اتّضح بما تقدَّم، مضافاً إلى الروايات الشريفة الواردة فى المقام، مثل ما رواه عمر بن يزيد، قال: «قلت لأبى عبدالله عليه السلام: «إنّى سألت الله عزّ وجلّ أن يرزقنى مالاً فرزقنى، وإنى سألت الله أن يرزقنى ولداً فرزقنى ولداً، وسألته أن يرزقنى داراً فرزقنى، وقد خفت أن يكون ذلک إستدراجاً! فقال: أما والله مع الحمد فلا»(2).

قال العلاّمة المجلسى رحمه الله: «وقوله عليه السلام: (إنّ الله لا يفعل بالمؤمن)... فإنّه تعالى لو أعطى جميع الدنيا المؤمن لم يكن ذلک على سبيل الإستدراج، بل؛ لأنّه عَلِمَ أنّه يشكره ويصرفه فى مصارف الخير، ولا يصير ذلک سبباً لنقص قدره عند الله، كما فعل ذلک بسليمان عليه السلام، بخلاف ما إذا فعل ذلک بغير المؤمن، فإنه لإتمام الحُجّة عليه، واستدراجه، فيصير سبباً لشدّة عذابه...»(3).

الأخذ بغتةً ونتيجته

ثمّ تنتقلُ الآية لبيان حال هؤلاء العصاة بعد اغداقه النعم عليهم، حيث تقول: حَتّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ «لمّا فتح الله عليهم أبواب الخيرات ظنّوا أنّ ذلک بإستحقاقهم، فعند ذلک ظهر أنّ قلوبهم قست وماتت، وأنّه لا يُرجى لها إنتباه

1- (1) انظر: التحفة السنية (مخطوط): ص 27.

2- (2) الكافى: ج 2، ص 97، ح 18.

3- (3) بحار الأنوار: ج 64، ص 152.

بطريق من الطُرق، فأجابهم الله بالعذاب من حيث لا يشعرون»(1).

«وكان فرحهم فرح بطر، وهو منهيّ عنه، وذلک مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا»(2).

والأخذ بغتةً يعنى «على غفلةٍ فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ أى: آيسون من كلّ خير»(3).

وقال البعض: «المُبلِس: النادم الحزين، أو الساكت المنقطع عن الحجّة»(4).

وقال الشَّيخ الطوسى رحمه الله: «قال الزجَّاج: (المُبلِس) الشديد الحسرة (والبائس) الحزين، وقال البلخى: معنى مبلسون يعنى: أذلّة خاضعين، وقال الجبائى: معنى (مبلسون) آيسون، وقال الفراء: (المبلس) المنقطع الحجّة... وقال مجاهد: (الإبلاس) السكوت مع اكتئاب»(5).

والجامع لهذهِ المعانى وغيرها هو الخسران والإفلاس، وأصله: «الإطراق لحلول نقمةٍ أو زوال نعمةٍ»(6).

وقال القرطبى: «المبلس: الباهت الحزين، الآيس من الخير، الذى لا يحير جواباً لشدّة ما نزل به من سوء الحال»(7).

وتفسير القرطبى ما هو إلاّ جمع وترتيب للأقوال فى المقام من دون ترجيح ولا بيان جامع لها، وهو كافٍ فى المقام؛ لتقارب المعانى، كما هو واضح.

1- (1) تفسير الرازى: ج 12، ص 226.

2- (2) تفسير السمعانى: ج 2، ص 104.

3- (3) تفسير ابن كثير: ج 2، ص 137.

4- (4) تفسير السمعانى: ج 2، ص 104.

5- (5) التبيان: ج 4، ص 137 - ص 138.

6- (6) تفسير البحر المحيط: ج 4، ص 134.

7- (7) تفسير القرطبى: ج 6، ص 426.

ثمَّ يختتم هذا المشهد بقوله تعالى: فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ.

تقول الآية: وهكذا استؤصلت جذور أولئک الظلمة وانقطع نسلهم(1) ، ولم يبقَ منهم باقية(2).

وينبّه البارى عزّ وجلّ عن سبب الإستئصال بذكر الوصف الذى هو الظلم، وهو هنا الكفر... ودابر القوم آخرهم الذى يدبرّهم(3).

ثمَّ يقول تبارک وتعالى: وَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، فما هو الداعى والسبب لهذا الحمد؟

فيه وجوه:

«الوجه الأول: معناه أنّه تعالى حمد نفسه على أن قطع دابرهم، واستأصل شأفتهم؛ لأنَّ ذلک كان جارياً مجرى النعمة العظيمة على أولئک الرسل؛ فى إزالة شرّهم عن أولئک الأنبياء.

الوجه الثانى: أنّه تعالى لمّا علم قسوة قلوبهم لزم أن يُقال: إنّه كلمّا ازدادت مدّة حياتهم ازدادت أنواع كفرهم ومعاصيهم، فكانوا يستوجبون به مزيد العقاب والعذاب. فكان إفناؤهم وإماتتهم فى تلک الحالة موجباً أن لا يصيروا مستوجبين»(4).

الوجه الثالث: «أنّه إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاک الظلمة، وأنّه مِنْ أجلِّ النعم وأجزلِ القسم»(5).

1- (1) انظر: تفسير الأمثل: ج 4، ص 286 - ص 287.

2- (2) انظر: تفسير البغوى: ج 2، ص 97.

3- (3) انظر: تفسير البحر المحيط: ج 4، ص 134.

4- (4) تفسير الرازى: ج 12، ص 226 - ص 227.

5- (5) تفسير البحر المحيط: ج 4، ص 135، نقله عن الزمخشرى.

وفی تفسیر القرطبی قال: «قیل: علم إهلاکهم. وقیل: تعلیم للمؤمنین کیف یحمدونه، وتضمّنت هذه الآیة الحُجّة علی وجوب ترک الظلم لما یعقب من قطع الدابر، إلی العذاب الدائم مع استحقاق القاطع الحمد من کلّ حامد»(1).

وکان أمیر المؤمنین علیه السلام یکثر من تلاوة هاتین الآتین عند الفراغ من وضوءه، کما روی عن الإمام الهادی علیه السلام أنّه قال:

«إنّ قنبراً مولی أمیر المؤمنین علیه السلام دخل علی الحجّاج بن یوسف، فقال له: ما الذی کنت تلی من علیٍّ بن أبی طالب؟ فقال: کنت أوضئه، فقال له: ما کان یقول إذا فرغ من وضوئه؟ فقال: کان یتلو هذه الآیة : فَلَمّا نَسُوا ما ذُکِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَیْهِمْ أَبْوابَ کُلِّ شَیْ ءٍ حَتّی إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ

فقال الحجّاج: أظنّه کان یتأوّلها علینا. قال: نعم. فقال: ما أنت صانع إذا ضربتُ علاوتک؟ قال: إذاً أسعد وتشقی، فأمر به»(2).

وعن الإمام الصّادق علیه السلام فی تفسیرها قال:

«أُخذ بنی أُمیّة بغتةً، ویؤخذ بنی العباس جهرة»(3).

وکانت بنت أمیر المؤمنین علیه السلام زینب الکبری علیها السلام تحذّر یزید من مغبّة طُغیانه وظلمه وسوقه بنات رسول الله صلی الله علیه و آله حیث قالت:

«... أظننت یا یزید حیث أخذت علینا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق کما تُساق الأُسراء، إنّ بنا هواناً علی الله، وبک علیه کرامة، وإنَّ ذلک لعظم خطرک عنده، فشمخت بأنفک، ونظرت فی عطفک، جذلان مسروراً حین رأیت الدنیا لک مستوثقة والأُمور متَّسقة، وحین صفا لک مُلکُنا وسُلطانُنا، فمهلاً مهلاً، أنسیت قول الله تعالی : وَ لا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّما نُمْلِی لَهُمْ خَیْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما

1- (1) تفسیر القرطبی: ج 6، ص 427.
2- (2) اختیار معرفة الرجال: ج 1، ص 289 - ص 90، ح 130.
3- (3) تفسیر العیّاشی: ج 1، 360، ح 24.

نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِینٌ.

أمِنَ العدل یا ابن الطُلقاء تخدیرک حرائرک و إمائک، وسوقک بنات رسول لله صلی الله علیه و آله سبایا قد هتکتَ ستورَهُنَّ، وأبدیتَ وجوهَهُنَّ...»(1).

بلی والله، لیس ذلک من العدل، ورحم الله شاعر أهل البیت علیهم السلام حیث یقول فی تائیته الرائعة التی قرأها أمام أبی الحسن الرضا علیه السلام:

دیارُ رسول الله أصبحْنَ بلقعاً وآلُ زیادٍ تسکُنُ الحجراتِ

وآلُ زیادٍ فی القُصورِ مَصونةً وآلُ رسولِ اللهِ فی الفَلواتِ(2)

وعلی هذا الحال کانت الحوراء زینب علیها السلام تشکو لأُمّها ما لاقاها أثناء السبی:

تعالی یم حسن یُمّه تعالی وشوفی کربلا شسوت بحالی

إخوتی مذبحة وکلّها إگبالی

وکأنّی بالزهراء علیها السلام تردّ علی زینب علیها السلام:

أنه یمچ ییمّه مو بعیده من طاح الحسین علی الصعیده

ومن راد الشمر یگطع وریده ثلث تیام أنه ساچنه البیده

نوبه انهض وادوّر اصبع ایده ونوب انهض وادور چف عضیده

تشکو زینب مرةً أُخری:

بگیت امحیّره واصفچ بالیدین لا عبّاس یبرالی ولا حسین

یضربونی امن أبچی وتدمع العین وتبگه عبرتی ابصدری اتّکسّر

1- (1) اللهوف: ص 105.

2- (2) من قصیدة رائعة لشاعر أهل البیت علیهم السلام دعبل الخزاعی، کما فی دیوانه: ص 56 - ص 65 ومطلعها: تجاوبن بالأرنان والزَّفراتنوائحُ عُجمُ اللّفظِ والنُطُقاتِ

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:354

المحاضرة السابعة والعشرون: الحياة الدنيا متاع الغرور

ص:355

لِلهِ ما صنعت فينا يدُ البينِ كم من حشىً أقرحتْ منّا ومن عينِ

ما لى وللبينِ لا أهلاً بطلعتِهِ كم فرّق البينُ قِدماً بين إلفينِ

لا تأمن الدهرَ إنَّ الدهرَ ذو غيرٍ وذو لسانينِ فى الدُنيا ووجهينِ

أخنى على عترةِ الهادى فشتّتهم فما ترى جامعاً منهم بشخصينِ

كأنّما الدهرُ ألا أن يبدّدهم كعاتبٍ ذى عنادٍ أو كذى دَينِ

بعضٌ بطيبةَ مدفونٌ وبعضُهمُ بكربلاءَ وبعضٌ بالغريّينِ

وأرضُ طُوسٍ وسامراء وقد ضمنتْ بغدادُ بدرينِ حلاّ وسطَ قبرينِ

يا سادتى ألمن أبكى أسىً ولمن أبكى بجفنينِ من عينى قريحينِ

أبكى على الحسنِ المسموم مُضطَهَداً أم الحُسين لقىً بين الخميسينِ

أبكى عليه خضيبَ الشّيب من دمه معفّر الخدّ محزوز الوريدينِ

وزينب فى بناتِ الطُهر لاطمة والدمعُ فى خدّها قدْ خدَّ خدّينِ

تدعوه يا واحداً قد كنتُ آملُه حتّى استبدّت به دونى يدُ البينِ (1)

1- (1) القصيدة لشاعر أهل البيت عليهم السلام ابن حمّاد العبدى، قال عنه العلاّمة الأمينى فى الغدير (ج 4، ص 188 - ص 155): «أبو الحسن، على بن حمّاد، بن عبيد الله، بن حماد العدوى، العبدى، البصرى. كان حماد والد المترجم أحد شعراء أهل البيت عليهم السلام، كما ذكره ولده شاعرنا فى شعره بقوله من قصيدة: وإن العبد عبدكم علياًكذا حماد عبدكم الأديب رثاكم والدى بالشعر قبليوأوصانى به أن لا أغيب والمترجم له علم من أعلام الشيعة، وفذّ من علمائها، ومن صدور شعرائها، ومن حفظة الحديث المعاصرين للشيخ الصدوق ونظرائه، وقد أدركه النجاشى، وقال فى رجاله: قد رأيته. غير أنّه يروى عنه كتب أبى أحمد الجلودى البصرى المتوفى سنة 332 بواسطة الشيخ أبى عبد الله بن الحسين بن عبيد الله الغضايرى المتوفى سنة 411، فهو من مشايخ هذا الشيخ المعظّم الواقعين فى سلسلة الإجازات، والمعدودين من مشايخ الرواة، وأساتذة حملة الحديث، وحسبه ذلک دلالة على ثقته وجلالته وتضلّعه فى العلم والحديث.

على الجثث مرّوا بالنساوين أويلاه اوشافنهم مطاعين

منهم شمال ومنهم ايمين اوعلى الوجه مطروح الحسين

رادت عليه فخر الخواتين من على الناگه اطيح بالحين

ناده الولى اوضنوة الطّيبين يعمّه عليهم من تطيحين

اشلون يا عمّه تركبين وآنه عليل وبيه تدرين

ونّت ونين المرمر يلين ودعتّک الله يا ضوة العين

زجر يحسين من عگبک محنّه إسفر واعداک ما بيهم محنّه

على راس الرمح راسک محنّه ابدماه وبس يدير العين لىَّ

***

ص:358

قال تعالى: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الـدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَـةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ (1).

قـد يكرّر القرآن الكريم فى بعض الأحيان آيـةً كاملـةً، أو جزءَ آيـةٍ، أو قصّـةً بنحوٍ وآخرَ، لكن الغرض هو الهداية، قال تعالى: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (2)، فالقرآن الكريم يستعمل الأُسلوب الأنفع فى التوصل إلى هداية البشر.

ومن الآيات التى جاءت بنحو آخر هذه الآية المباركة، فقد وردت فى سورة النبيِّ الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله بالنحو التالى:

قال تعالى: إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (3)، إلاّ أنّها اقتصرت على اللعب واللهو، ويمكن أن يكون سبب الإقتصار عليها فى الآية الشّريفة؛ كثرة ممارستهما من قبل الأغلب، فمن النادر جداً أن يمرّ الإنسان فى زمن الطفولة والصـبا من دون لعبٍ ولهو، بل قـد يكون ذلك ممّا يشـعر بنقص فى طفولته وصـباه، أمّا بقية الأدوار أعنى: دور الزينة والتفاخر والتكاثر فى الأموال والأولاد فليس من اللازم ذلك، فالكثير من الناس ممّن لعب فى طفولته، ثُمَّ مرَّ بـدور اللهو وبشـكل واضح، إلاّ أنّه لـم يمرّ عليه دور الزينة والتفاخر والتكاثر.

والمهم فى المقام تسليط الضوء على الآية التى افتتحنا بها الكلام فالآية الشريفة تتضمّن أمرين:

الأمر الأول: ترسيم الحياة الدنيا والمراحل المختلفة التى تمرّ على الإنسان، وهى

1- (1) الحديد: آية 20.

2- (2) الإسراء: آية 9.

3- (3) محمّد: آية 36.

خمسة: (اللعب، اللهو، الزينة، التفاخر، التكاثر فى الأموال والأولاد).

والأمر الثانى: تشبيه الدنيا - بدايةً ونهايةً - بالنبات الذى يعجب الزُرّاعَ طراوته ونضارته، ثمَّ سرعان ما يتحوّل إلى عشب يابس تذروه الرياح، ثمَّ استنتج من هذا التمثيل: أنّ الحياة الدنيا متاع الغرور، أى: وسيلة للغرور والمتعة، يغترّ بها الذين أخلدوا إلى الأرض، يتصورونها غاية قصوى للحياة، ولكنّها فى نظر المؤمنين قنطرة للحياة الأُخرى، لا يغترون بها، بل يتزوّدون منها إلى حياتهم الأخروية.

إنَّ حياة الإنسان من لدن ولادته إلى نهاية حياته تتشكّل من مراحل خمس:

المرحلة الأولى: اللعب، واللعب هو عمل منظوم لغرض خيالى، كلعب الأطفال، وهو مُقارن لحياة الإنسان منذ نعومة أظفاره وطفولته، ويتّخذ ألواناً مختلفة حسب تقدّم عمره، وهو أمر محسوس عند الأطفال.

المرحلة الثانية: اللهو، واللهو ما يشغل الإنسان عمّا يهمّه، وهذه المرحلة تبتدء حينما يبلغ ويشتدّ عظمه، فتجد فى نفسه ميلاً ونزوعاً إلى الملاهى وغيرها.

المرحلة الثالثة: حُبّ الزينة، والزينة نظير ارتداء الملابس الفاخرة، والمراكب البهيّة، والمنازل العالية، وجنوحه إلى كلِّ جمالٍ وحسن.

المرحلة الرابعة: التفاخر، إذا تهيئت للإنسان أسباب الزينة، يأخذ حينها بالمفاخرة بالأحساب والأنساب، وما تحت يديه من الزينة.

المرحلة الخامسة: التكاثر فى الأموال والأولاد، وهذه المرحلة هى المرحلة الخامسة التى يصل فيها الإنسان إلى مرحلةٍ من العُمر، يفكّر فى تكثير الأموال والأولاد، ويشبُّ على ذلك الإحساس.

ثمَّ إنَّ تقسيمَ المراحل التى تمرُّ على الإنسان إلى خمس لا يعنى - كما ذكرنا - أنّ كلَّ هذه المراحل تمرُّ على الإنسان بلا استثناء، بل يعنى أنها تمرّ عليه على وجه الإجمال، غير أنّ بعض

النـاس تتوقف شخصـيتهم عنـد المرحلتين الأـوليين إلى آخر عمره، فيكون اللعبُ واللهو أهمَّ مائزٍ فى سـلوكهم، كما أنّ بعضـهم تمرّ عليه المرحلة الثالثة والرابعة، فيحرص على ارتداء الملابس الفاخرة، والتفاخر بما لديه من أسباب(1).

قال الشـيخ الأنصارى رحمه الله: «وقـد ذكر غيرُ واحدٍ أنَّ قولَه تعالى إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا... بيانُ ملاذ الدنيا على ترتيب تدرّجه فى العمر، وقد جعلوا لكلِّ واحدٍ منها ثمان سنين»(2).

ولعلَّ الشَّيخ الأعظمَ رحمه الله يقصد ما رُوىَ عن الشَّيخ البهائى رحمه الله من «أنّ الخصال الخمس المذكورة فى الآية مرتبة بحسب سنى عمر الإنسـان ومراحـل حيـاته، فيتولَّع أولاـً باللعب، وهو طفل أو مراهق، ثمَّ إذا بلغ أشـدّه اشـتغل بالزينـة من الملابس الفاخرة، والمراكب البهيّـة، والمنـازل العاليـة، وتولّه للحُسن والجمـال، ثمَّ إذا اكتمل أخـذ بالمفاخرة بالأحساب والأنساب، ثمَّ إذا شاب سـعى فى تكثير المال والولد.

هذا ما يرجع إلى بيان حال الدنيا من حيث المراحل التى تمرّ بها.

والأمر الثانى، أى: التمثيل الذى يجسّد حال الدنيا ويشـبّهها بأرضٍ خصـبةٍ يُصيبها مطرٌ غزيرٌ، فتزدهر نباتها على وجه يُعجبُ الزُرَّاع، ولكن سرعان ما تذهب طراوتها ونقاوتها فيصـيبها الإصـفرار واليبس، وتذروها الرياح فى كلِّ الأطراف، وتصـبح كأنّها لم تكن شيئاً مذكوراً، وعند ذلک تتجلّى الحقيقة أمامَ الإنسان، وأنّه اغترَّ بطراوة هذه الروضة، وهكذا حال الدنيا، فيغترّ الإنسان بها ويخلد إليها، ولكن سرعان ما تسفر له عن وجهها، وتكشف عن لثامها.

وعلى أى حالٍ، فالآية تهدف إلى تحقير الدنيا وتعظيم الآخرة»(3).

1- (1) انظر: الأمثال فى القرآن الكريم: ص 257 - ص 259.

2- (2) كتاب المكاسب: ج 2، ص 48.

3- (3) الأمثال فى القرآن الكريم: ص 259 - ص 260.

وقد حقّرها رسولُ اللهِ صلى الله عليه و آله، حيث يقول:

«ما لى والدنيا، إنّما مثلى ومثل الدّنيا، كمثل راكبٍ قام من القيلولة فى ظلّ شجرة فى يوم صائفٍ، ثمَّ راح وتركها»(1).

وقال صلى الله عليه و آله:

«والله، ما الدنيا فى الآخرة إلاّ مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى أليم، فلينظر بِمَ ترجع؟!»(2).

وقال العلاّمة المجلسى رحمه الله: «واعلم أنّ مجامع الهوى خمسة أُمور، وهى ما جمعه الله عزّ وجلّ فى قوله: أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تكاثُرٌ فِى الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ.

والأعيان التى تحصل منها هذه الأُمور سبعة، يجمعها قولُه تعالى: زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِکَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ»3.

أحياناً يُحبُّ الإنسان الدنيا ولكن لا لذاتها، بل؛ لأنَّها مُقدّمة موصلة للآخرة، كما روى عن إمامنا الصَّادق عليه السلام أنَّ رجلاً قال له: «والله إنّا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فقال: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسى وعيالى، وأصل بها، وأتصدَّق بها، وأحجُّ وأعتمرُ. فقال عليه السلام: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»(3).

فلذا يوجد فى الآية الشريفة حالة من التقابل بين الحياة الدنيا والحياة الأُخرى، حيث ذكرت الآية (وفى الآخرةِ)، وأنَّها قسيم لقوله: (إنَّما الحياةُ الدُنيا)(4).

فليست الدنيا عبارة عن الجاه والمال فقط، بل هما حظّان من حظوظهما، وإنّما الدنيا

1- (1) روضة الواعظين: ص 440.

2- (2) مسند أحمد: ج 4، ص 229.

3- (4) الكافى: ج 5، ص 72، ح 10.

4- (5) انظر: فتح البارى: ج 11، ص 198.

عبارة عن حالتک قبل الموت، کما أنَّ الآخرة عبارة عن حالتک بعد الموت، وکلّما لک فیه حظّ قبل الموت فهو دنیاک.

ولیعلم الناظر إنّما الـدنیا خُلقت للمرور منها إلی الآخرة، وإنّها مزرعـة الآخرة فی حقِّ مَن عرفها، إذ یعرف أنَّها من منازل السائرین إلی الله، وهی کرباط بُنی علی طریق أُعدّ فیها العلف والزاد وأسـباب السـفر، فمَن تزوّد لآخرته فاقتصـر منها علی قدر الضرورة من المطعم والملبس والمنکح وسائر الضروریات، فقد حرث وبذر وسیحصد فی الآخرة ما زرع، ومَن عرّج علیها واشتغل بلذّاتها وحظوظها هلک(1).

وذکر شـیخ الطائفة الطوسی رحمه الله فی تفسیر الآیة المبارکة کلاماً جامعاً، حیث قال: «وإنّما زهّدهم فی الدنیا؛ لکونها فانیة، ورغبّهم فی الآـخرة؛ لکونها باقیـة، فمَن اختار الفانی علی الباقی کان جاهلاً ومنقوصاً. ومعنی الحیاة الـدنیا لعب ولهو، أی: ذات لعب ولهو؛ لأنَّ غالب أمر الناس فی الدنیا اللعب واللهو، وذلک عبث وغرور وانصراف عن الحد الذی یدوم به السرور والحبور.

وقیل: شُبّهت باللعب واللهو لانقطاعها عن صاحبها بسرعة، فالتقدیر علی هذا إنّما الحیاة الدنیا کاللعب واللهو فی سرعة الإنقضاء، والآخرة کالحقیقة فی اللزوم والإمتداد، فإحداهما کالحقیقة، والأُخری کالمخرقة».

ثمَّ قال رحمه الله: «اعلموا معاشـر العقلاء والمکلّفین أَنَّمَا الْحَیاةُ الـدُّنْیا یعنی فی هـذه الـدنیا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ؛ لأنّه لا بقاء لذلک ولا دوام، وإنّه یزول عن وشـیک، کما یزول اللعب واللهو، وَ زِینَـةٌ تتزینون بها فی الـدنیا، وَ تَفاخُرٌ بَیْنَکُمْ یفتخر بعضـکم علی بعض، وَ تکاثُرٌ فِی الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ أی: کلّ واحد یقول مالی أکثر وأولادی أکثر، ثمَّ شبّه ذلک بأن قال: مثله فی ذلک کَمَثَلِ غَیْثٍ یعنی مطراً أَعْجَبَ الْکُفّارَ نَباتُهُ أی:

1- (1) انظر: مجمع البحرین: ج 2، ص 61. ونسبه لبعض العارفین.

أعجب الزُرَّاع ما نبت بذلک الغیث، فالکفّار الزرّاع»(1).

ثمَّ تنتقل الآیـة لتختتم هـذا البیان الرائع بحقیقـة فیها البشارة والنذارة، البشارة للمؤمنین، والنذارة للکافرین، حیث تقول: وَ فِی الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِیـدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٌ ، عـذاب شدیـد لمَن اتّخـذ الحیـاة الـدنیا حیـاةً أبدیـة، ومغفرة من الله ورضوان لمّن اتّخـذها ممرّاً لا مقرّاً، وصارت الـدنیا عنده کظلّ یسـتظل تحته ثمَّ یرحل، أو عاشـها کما عاشـها الأنبیاء والأوصـیاء، ومن حذا حذوهم، فإذا صارت الدنیا عندهم کذلک فلا یبالون بها، بل ینتظرون الرحیل عنها؛ لأنّها متاع المغرور بها.

حینهـا نعرف قول ذلـک الرجـل لأبی ذرّ: یـا أبا ذر ما لنا نکره الموت؟ فقال: «لأنّکم عمّرتم الـدنیا وأخربتم الآخرة، فتکرهون أن تنقلوا من عمران إلی خراب»، فقال له: فکیف تری قدومنا علی الله؟ فقال: «أمّا المحسن منکم فکالغائب یقدم علی أهله، وأما المُسـئ منکم فکالآبق یرد علی مولاه»، قال: فکیف تری حالنا عنـد الله؟ قال: «اعرضوا أعمالکم علی الکتاب، إنّ الله یقول: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِی نَعِیمٍ * وَ إِنَّ الْفُجّارَ لَفِی جَحِیمٍ » قال: فقال الرجل: فأین رحمة الله؟

قال:

«رحمةُ اللهِ قریبٌ منَ المُحسنینَ».

قال: أبو عبد الله الصّادق علیه السلام:

«وکتب رجل إلی أبی ذر – رضـی الله عنه – یا أبا ذر أطرفنی بشـیء من العلم، فکتب إلیه: العلم کثیر، ولکن إن قـدرت أن لا تسـئ إلی مَن تحبّه فافعل. قال: فقال له الرجل: وهل رأیتَ أحداً یُسیء إلی مَن یحبّه؟ فقال له: نعم، نفسک أحبّ الأنفس إلیک، فإذا أنتَ عصیتَ اللهَ فقد أسأتَ إلیها»(2).

وهذا الخبر فیه دلالة صریحة علی أنَّ تارک الدنیا وطالب الآخرة لا یکره الموت ولا

1- (1) التبیان: ج 9، ص 309، وص 530.

2- (2) الکافی: ج 2، ص 458، ح 20.

يرضـى ببقـائه فى الـدنيا، بـل يريـد فراقها شوقاً إلى لقائه عزّ وجلّ، لولا الأجل مكتوب عليه، كما دلّ عليه أيضاً قوله تعالى: قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلّهِ مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (1)».

أو كما يصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المتّقين، حيث يقول:

«ولولا الأجل الـذى كتب لهم لم تسـتقرّ أرواحهم فى أجسادهم طرفـة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق فى أنفسـهم فصغر ما دونه فى أعينهم، فهم والجنة كمَن قد رآها فهم فيها مُنعّمون، وهم والنار كمَن قد رآها فهم فيها معذّبون»(2).

إذن المائز الحقيقى بين المتّقين وغيرهم هو شدّة علوقهم بالدنيا وعدمها، فالتناسب عكسى، أى: كلّما ازدادت رغبة الإنسان فى الدنيا وتعلّقه فيها ضعف رصيده الأُخروى، والعكس بالعكس، وهذا معنى قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنَّ الـدنيا والآخرة عـدوّان متفاوتان، وسبيلان مختلفان، فمَن أحبَّ الـدنيا وتولاّها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشـرق والمغرب وماش بينهما، كلّما قرب من واحد بعُدَ من الآخر، وهم بعدُ ضرتان»(3).

أما الذى يكون سبيله الحقيقى الذى يشخص ببصره إليه دائماً وأبداً هو الله عزّ وجلّ فلا يبالى حينئذٍ، بل يكون لسان حاله:

تركتُ الخلق طُراً فى هواكا وأيتمتُ العيال لكى أراكا

فلو قطّعتنى بالحُب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا

1- (1) انظر: شرح أصول الكافى: ج 10، ص 214، والآية 6 من سورة الجمعة.
2- (2) نهج البلاغة: ج 2، ص 161، خطبة المتقين رقم 193.
3- (3) نهج البلاغة: ج 4، ص 23، رقم 103.

وكيف لا تكون هـذه ترانيمُه العرفانيـةُ، وكلماتُه الإلهيـةُ، وهو صاحبُ أعظم دُعاءٍ فى يومِ عرفة، الذى قال فيه مخاطباً ربَّ العالمين: «عميت عين لا تراک ولا تزال عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبّک نصيباً»(1).

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

1- (1) من أخلاق الإمام الحسين: ص 258. انظر: بحار الأنوار: ج 64، ص 142.

المحاضرة الثامنة والعشرون: حسن الظنّ وسُوء الظنّ

ص:367

أيطيبُ عيشى بعدَ وقعةِ كربلاء وأكونُ فيما أرتديهِ أنيقا

وأذوقُ طعمَ الماءِ وابنُ مُحمّدٍ ما ذاقَه حتّى الحمامَ أُذيقا

لا عذرَ للشيعيِّ يرقأ دمعُه ودمُ الحُسينِ بكربلاءَ أريقا

يا يومَ عاشوراء لقد خلّفتنى ما عشتُ فى بحر الهموم غريقا

فيک أستُبيح حريمُ آلِ محمدٍ وتمزّقتْ أسبابُهم تمزيقا

قتلوا الحسينَ وروّعوا قلبَ الهُدى ظُلماً وفُرّقَ شملُه تفريقا

تركوهُ عارٍ بالفلاةِ وأقبلوا نحو المُخَيّمِ ألهبوه حريقا

لهفى لزينبَ بعدَ فقدِ حُماتِها قطعتْ معَ الخصمِ المشومِ طريقا(1)

وكأنّى بها تخاطب حماتها، وهم مجزرون كالأضاحى:

أنا امشيت درب الما مشيته وچتّال أخيىّ رافگيته

من جِلَّت الوالى نخيته شتم والدى وانكر وصيته

1- (1) الأبيات الأربعة الأُولى للشاعر محمّد السوسى ذكرها العلامة المجلسى رحمه الله فى البحار (ج 45، ص 245) مع تغيير فى بعض الكلمات، وما بعدها فهى لأستاذنا الشيخ محمّد سعيد المنصورى رحمه الله، ذكرها فى ميراث المنبر: ص 67 الطبعة الحديثة. قال السيد جواد شبّر رحمه الله فى أدب الطف (ج 2، ص 119) مترجماً للشاعر السوسى: «الأمير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن محمد السوسى، توفى فى حدود سنة 370 ه - ودفن بحلب، كان فاضلاً أديباً كاتباً بحلب، وسافر إلى فارس، ثمَّ عاد إلى محله، ذكره ابن شهر آشوب فى معالم العلماء فى شعراء أهل البيت المجاهرين... والسوسى نسبة إلى السوس كورة بأهواز، فيها قبر دانيال عليه السلام، معرّب شوش، وبلد بالمغرب، وبلد آخر بالروم». وأمّا شيخنا الأستاذ المنصورى رحمه الله فقد تقدّمت ترجمته فى المحاضرة السادسة.

ولسان حالها:

بس ما غبت وگفیت یحسین عن کربله صرنه مضعنین

خذونی یسیره وتدمع العین ومدری وجوه الگوم لا وین

للکوفة یو للشام ناوین والدرب تدری یرید له اثنین

أنصار یو أخوه المبینین ولویّای ما غیر النساوین

أباری الضعن مالیش تمکین عاد أرضه والله یریحنی البین

***

قال تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ (1).

ینقسم الظنّ إلی قسمین، هما:

الظنّ الحسن، و الظنّ السیِّ ء، ولا شکّ فی أنّ الأول منهما راجح شرعاً وعقلاً، ولا غبار علیه، بل هو من صفات المؤمنین المخلصین، وحُسن الظنّ لا یختصّ بحُسن ظنّ الإنسان بإنسانٍ آخر، بل هو یشمل حتّی حُسن الظنّ بالله تبارک وتعالی، حیث روی أنّ الله سبحانه وتعالی یقول:

«أنا عند حُسن ظنِّ عبدی المؤمن، إن خیراً فخیر، وإنْ شراً فشر»(2).

فمن هنا کان ینبغی لکلّ مؤمنٍ أن لا ییأس من رحمة الله، ولا یظنّ أنَّ الله سبحانه لا یرحمه، وأنّه یعذبه، وأنَّ ما یُصیبه فی الدنیا من المصائب والأمراض والفقر هو شرّ له وعقوبة، بل ینبغی أن یعلم أنَّ الله أرحم به من والدیه، وما یُصیبه من المصائب هو خیر وصلاح وذخیرة له فی یوم المعاد. ورأی بعضهم فی المنام صاحباً له علی أحسن حال، فقال: بأی شیءٍ نلتَ هذا؟ فقال: بحسنِ ظنّی بربّی، وما ینال أحدٌ خیر الدنیا والآخرة إلاّ بحسن الظنّ بالله تعالی.

1- (1) الحجرات: آیة 12.

2- (2) بحار الأنوار: ج 67، ص 385 - ص 386، ح 44.

وكذلک لا يظنُّ السوء بالمسـلمين، ويفسّر كلّ عمل منهم تفسيراً غير صحيح، بل يجب عليه أن يُفسّر تصرّف الناس على أحسن الوجوه، إلاّ إذا كان متيّقناً ومتأكّداً من فعل يتطلب منه أن يفسّره بتفسير واقعى حفاظاً على حقوق الناس(1).

فعن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«اطلُب لأخيک عذراً، فإن لم تجد له عُذراً فالتمس له عُذراً»(2).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«ضع أمر أخيک على أحسنه حتّى يأتيک منه ما يغلبک، ولا تظنّنَّ بكلمةٍ خرجت من أخيک سوءاً وأنت تجد لها فى الخير محملاً»(3).

ويجب على الإنسـان أن لا يضع نفسه فى موضع التهمـة، ثُمَّ يعترض على الناس حيث يظنون به سوءاً، فمَن صـدّق المُفسـدين وجالسـهم سوف يُظنّ به سوءاً، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«ومَن عرَّض نفسه للتهمة، فلا يلومنَّ مَن أساء به الظنّ»(4).

فى أوّل الأـمر نلفت الانتبـاه إلى التفريق بين الشـكّ والظنّ والعلم، فنحن تـارةً نصف إنساناً ما بأنّه شاكٌّ، وأُخرى بأنّه ظانٌّ، وثالثـة بأنّه عالم بالأمر الكذائى، فما هو الفرق وما هو المناط والمبرر لإمكانية وصف الإنسان بأحد هذه الصفات؟

والجواب: إنّ الشكّ هو اسـتواء كفّتى الاحتمالين إثباتاً ونفياً، والظنّ بترجيـح كفّـة أحـدهما على الآخر مع بقاء الطريق مفتوحاً للذى خفَّ ميزانه، والعلم تعيين أحدهما مع سدِّ الطريق على الآخر من الأساس.

وقد تظنّ بإنسان خيراً أو شـراً، وقد تكون مُصـيباً فى ظنّک أو مخطئاً، ولا بأس عليک إطلاقاً فى حسن الظنّ بأخيک أصـبت أو أخطأت، ظهر أثر ذلک فى أقوالک أو أفعالک، أو لم يظهر.

1- (1) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص 469.

2- (2) الخصال: ص 622.

3- (3) الكافى: ج 2، ص 362، باب التهمة وسُوء الظنّ، ح 3.

4- (4) نهج البلاغة: ج 4، ص 41، ح 159.

فإذا صـدر من الإنسان عمل من الأعمال أو قول من الأقوال يمكن حمله على وجه صـحيح، وعلى وجه فاسد، فهل يحمل على الصـحّة، أو على الفساد، أو يجب التوقف وعدم الحكم بشيءٍ إلاّ بدليل قاطع؟

ومثال ذلک: أن ترى رجلاً مع امرأة لا تدرى هل هى زوجته، أو أجنبية عنه، أو تسـمع كلاماً وأنت لا تدرى هل أراد به المتكلم النيل منک، أو لـم يرد ذلک، فما هو الحكم حينئذٍ؟

لقد اتّفق الفقهاء على وجوب الحمل على الصحّة فى ذلک وأمثاله.

وهـذا مبـدأ إنسانى بحت؛ لأنّه يُكرّس كرامـة الإنسان، ويؤكّـد علاقـة التعاون والتعاطف بين الناس، ويبتعـد بهم عمّا يثير الكراهية والنفور، وبهذا يتبيّن أنّ الإسـلام لا يقتصـر على العقيدة والعبادة، بل إنّه يهتمّ بالإنسانية وخيرها، ويرسم لها الطرق التى تؤدى بها إلى الحياة المثمرة الناجحة.

ثمَّ إنّ الآية قالت: (كثيراً من الظنّ) ولـم تقل كلّ الظنّ، فما هو السبب فى ذلک؟

السبب يرجع إلى أنّ (كلّ) من صيغ العموم، تشمل حسن الظنّ وسوء الظنّ، بخلاف كلمة كثير، فقد تستعمل بمعنى بعض وبمعنى معظم، وهذا هو المراد بكلمة كثير فى الآية، والقصد: هو حصر موضوع الآية ودلالتها بسوء الظنّ.

وسـوء الظنّ من حيث هـو ودون أن يظهر أثره فى قـول أو فعـلٍ ليس بجرم، وصـاحبه غير مسؤول عنه؛ لأـنّ الإنسـان لاـ حريـة له فى ظنونه وتصـوراته، ولكن عليه أن لاـ يُعوّل على ظنّ السوء، ويعتـبره وكـأنّه لـم يكن، وإذا عوّل عليه وظهر أثر ذلـک فى قول، أو فعـل، كـان مسؤولاً ومستحقّاً للذمّ والعقاب، وهذا هو الظنّ الذى أراده سبحانه بقوله: (إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ .

قال الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله:

«ثلاثة لا يسلم منها أحدّ: الطّيرة والحسد والظنّ، فإذا تطيّرت فأمضِ، وإذا حسدت فلا تبغِ، وإذا ظننت فلا تحقق»(1).

1- (1) ميزان الحكمة: ج 3، ص 2354، ونسبه إلى العامة.

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ : لا تعولّوا عليه ولا تعملوا به(1).

ولـذا تجـد بعض النـاس يرتّب الأـثر على أدنى احتمـال، والبعض الآخر يتوقّف ولا يقول شـيئاً إلى أن يتّضـح الأمر، وهناک مَن يترک ظنّه ويحمل عمل الإنسان الآخر على الصحّة.

جاء رجلان إلى أحـد المراجع، أحـدهما يحمل أموالاً إلى هـذا المرجع، والآخر جاء ليطلب المساعدة، وبينما هما ينتظران المرجع، سأل الفقير الرجل الآخرعن سبب مجيئه؟ فقال الرجل الآخر: جئت لأعطى هذه الحقوق الشرعية إلى المرجع الدينى.

قال الرجل الفقير فى نفسه: نعم، أتركه يدخل فإذا دخل هذا الرجل وأعطى الأموال لهذا المرجع أدخل بعده وأشكو حالى له، وأقول إنّى فقير ومحتاج.

دخل الرجل صاحب الأموال على المرجع، وبقى الآخر ينتظر خارج الغرفة ولم يعرف ماذا حصل فى الداخل.

بعـد فترة دخـل الرجـل الفقير على ذلـک المرجع الرَّبانى، وقال له: مولانا أنا رجل محتاج وفقير، وجئت طالباً للمساعـدة من الحقوق التى عندكم.

قال المرجع: عَلِمَ الله أنه ليس عندى من الحقوق لا قليل ولا كثير منها.

تعجّب هذا الرجل وقال فى نفسه: عجباً، قبل قليل دخل هذا الرجل وهو يحمل حقوقاً شـرعية إليه، والآن يقول لى: ليس عندى من الأموال لا قليل ولا كثير!!

بقى هـذا الرجل فى حيرةٍ من أمره، أيكـذّب الرجل، أم يكـذّب المرجع، أم نفسه، أم ينتظر إلى أن يتأكّد من الأمر لعلَّ الله يُحدثُ بعد ذلک أمراً، مضت فترة من الزمن على تلک الحادثـة، وذات يوم صادف ذلک الرجل الـذى كان قد جاء لإعطاء الحقوق، وسأله عن القصّة قائلاً له: ألم تقل فى اليوم الذى التقينا فيه: بأنّک جئت بحقوق شرعية إلى ذلک المرجع؟

1- (1) آيات منتخبة من القرآن الكريم: ص 243 - ص 245.

قال: بلى، قلتُ ذلک، وکنتُ صادقاً.

قال الرجل الفقیر: ولکنّی دخلت بعـدک بفترةٍ وجیزة وطلبت من المرجع شـیئاً یساعـدنی به، فقال لی: لیس عنـدی من الأموال والحقوق لا قلیل ولا کثیر.

قال صاحب الحقوق: صدق المرجع.

قال الفقیر: وکیف ذلک؟

قال: لأنّی فی ذلک الوقت ما أعطیته الأموال؛ لأنّنی وجـدت عنـده مجموعـة من الضـیوف، وما أحببت أن أزاحمه فی هذا الوقت، فخرجت ورجعت فی یوم آخر وأعطیتُه الأموال.

فلو لاحظنا هـذه القصّـة وتأمّلنا فیها قلیلاً لعرفنا مدی أهمیة التحقق، ومع کلّ هذا، فإنَّ الرجل الفقیر لم یُرتّب الأثر ولعلّه لتقواه، ولکن تری البعض یشهّر بالأمر إلی درجة تصل إلی السبّ والشتم والنیل حتّی من العرض، وهذه مشکلة الإنسان قدیماً وحدیثاً، وهناک قصص عدیدة لو أردنا استعراضها لطال بنا المقام لکن العاقل المتدیِّن والحرّ تکفیهما الإشارة.

ولاـ شکّ أنّ الظنّ بمثل هؤلاء المتـدینین یکون أکثر إشـکالاً من غیرهم؛ لأنّنا نعتبرهم قادةً لنا ونرجع إلیهم ونجعلهم الأُمناء علی الـدین، والإنسان الذی نجعله أمیناً علی دیننا من الأولی أن لا نتهّمه فی دنیانا، فما قیمة الأموال حتّی نتهم فیها مَن نأخذ منه الأحکام الشرعیة.

ولکن بعض الناس من الفسقة الفجرة لا تشملهم هذه الآیة، فلنا أن نظنّ بهم مثل ما ظهر منهم.

فهؤلاء الـذین باعوا دینهم للشـیطان اسـتغلّوا هذا المبدأ الإنسانی الذی ذکرناه، وهو الحمل علی الصـحّة، وجاءوا به لیبرروا عمل الظالمین والقراصنة.

فـإنّ مبـدأ الحمـل على الصـحّة لاـ ينطبق على أعمـال السـلب والنهب والاحتيـال والتضـليل، ومـا إلى ذلک ممَّا نعلم عِلمَ اليقين أنّه من المحرّمات والموبقات، وإنّما ينطبق على ما يُحتمل فيه الصدق والكذب، والصحّة والفساد(1).

فهل يُمكن لأى إنسان عاقل أن يتوّقف بظنّه تجاه بنى أُمية وبنى العباس فيما صنعوه بآل البيت.

تبّاً لهم من أُمّةٍ لم يحفظوا عهدَ النبيِّ بآلهِ الأمجادِ

قد شتّتوهم بين مأسورٍ ومقهورٍ ومنحورٍ بسيف عنادِ

فلم يتركوا منهم أحـداً لا كبيراً ولا صـغيراً، حتّى الطفل الرضـيع، فقد جاءت الحوراء زينب عليها السـلام إلى أخيها الحسـين عليه السـلام تحمل عبـد الله الرضـيع عليه السـلام، ودفعته إليه وهى باكيـة، قالت: أخى، خُذ طفلک. قيل: فأجلسه فى حجره يُقبّله، ويقول: بعداً لهؤلاء القوم إذا كان جـدُّک المصـطفى خصـمهم. ثُمَّ أتى به نحو القوم يطلب له الماء قائلاً: «يا قوم قـد قتلتم إخوتى، وأولادى، وأنصارى، وما بقى غير هذا الطفل، وهو يتلظّى عطشاً من غير ذنب أتاه إليكم، فاسقوه شربة من الماء»، فاختلف العسكر فيما بينهم، منهم مَن قال: إذا كان ذنب للكبار فما ذنب هذا الطفل؟ ومنهم مَن قال: اقتلوه ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية.

فلمّا رأى ابن سعد ذلک صاح بحرملة: ويلک يا حرملة، اقطع نزاع القوم. قال حرملة: فما أصنع؟ قال: إرمِ الطفلَ بسهمٍ.

قال حرملة (لعنه الله): فرأيت رقبته تلمع على عضد أبيه الحسـين عليه السـلام، فرميت الطفل بسـهمى، فذبحته من الوريد إلى الوريد، فلمّا أحسَّ الطفل الرضيع بحرارة السهم، أخرج يديه من القماط واعتنق أباه، وجعل يرفرف كالطير المذبوح.

فملأ الحسين عليه السلام كفَّه من دمه، ورمى به نحو السماء، قائلاً:

«اللَّهُمَ لا يكن أهون

1- (1) انظر: آيات منتخبة من القرآن الكريم: ص 244.

علیک من فصیل ناقة صالح»(1).

تلگه إحسین دم الطفل بیده إشحال الیچتل إبحظنه ولیده

سال اوترس جفه من وریده أوذبّه للسمه وللگاع ما خر

أویلی من لفت سکنه تنادی یبویه العطش هالفتت افّادی

صدت لن أخوها الطفل غادی یلوّح رگبته اودمّه یفوّر

یبویه ذاب چبدی اوچبدة أُمّه دخلینی أودعنه وشمّه

یبویه لیش ما تسجیه دمّه بلچن چبدته تبرد من الحرّ

یخویه عون من حبّک اوشمّک یخویه عون من راواک لأُمّک

لغسلنّک یخویه ابفیض دمک اوگبرک بالگلب یا خویه لحفر

وأمّا حال أُمَّه الرباب:

ردوک یبنی ابسهم مفطوم یالرحت عن المای محروم

بعدک لحرّم لذّة النوم واصبغ یعگلی سود الهدوم

وابچی علیک ابگلب مألوم

***

ورُبَّ رضیعٍ أرضعته قِسیُّهم منَ النبلِ ثدیّاً درُّه الثرُّ فاطمُه

***

إنّا لله و إنّا إلیه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلیّ العظیم،

وسیعلم الذین ظلموا آل مُحَمّد أیَّ مُنقلبٍ ینقلبون

والعاقبة للمتّقین.

1- (1) مجمع مصائب أهل البيت عليهم السلام: ج 1، ص 205 - ص 206.

المحاضرة التاسعة والعشرون: الحَسَد

ص:377

ولّى الشبابُ وأيامُ الصبا دُرست وشعلةُ الشيبِ منها مفرقى التهبا

والدهرُ شنَّ علىَّ اليومَ غارتَه كأنّما تِرَةً عندى له طَلَبا

ولا ملاذَ ولا ملجأ ألوذُ بهِ من الزمانِ إذا طرف الزمانِ كبا

سوى إمامِ الهدى المهدى مُعتمى وجنةٍ أتقى عنى بها النُوبا

مَن يملأ الأرضَ عدلاً بعد ما مُلئت جوراً ويوردنا تيّارَه العذبا

متى نراه وقد حفّت به زُمَرٌ من آلِ هاشم والأملاكِ والنُّقَبا

ياثائراً غصَّ جفنيه على مَضَضٍ هلاّ أتاك بأخبارِ الطفوفِ نبا

غداة حلّ أبو السجادِ ساحتَها وأُسدَ هاشم للهيجا قد انتدبا

يأبى الدنيةَ سبطُ المصطفى فلذا عن ذلّةِ العيشِ فى عزِّ الوغى رَغِبا

وبعد ما لفَّ أُولاهم بآخرِهم وساقهم فسقاهم أكؤساً عطبا

أصابه حجرٌ قد شجّ جبهَتَه وشَيبُهُ من مُحيّاه قد اختضبا(1)

1- (1) القصيدة للسيد مهدى السيد هادى القزوينى رحمه الله، قال عنه فى أدب الطف (ج 9، ص 311 - ص 312): «السيد مهدى ابن السيد هادى ابن الميرزا صالح ابن العلامة الكبير السيد مهدى الحسينى القزوينى الحلى. علم من الأعلام، وفذٌّ من أفذاذ الأسرة القزوينية، ويطلق عليه لقب الصغير تمييزاً له عن جده الأعلى. ولد فى بلدة طويريج (الهندية) عام 1307 ه -، ونشأ فيها منشأ العزّ والفخار... وبعد ذلك أخذ يتملى من دروس إخوته الأعلام، فحضر عند أخويه: الباقر والجواد، واستفاد منهما كثيراً، وهاجر إلى بلد جده أمير المؤمنين، فأتمّ علومه اللسانية والبيانية، كما حضر على السيد كاظم اليزدى فى الفقه والأصول، كما حضر عند الحجّة الشيخ هادى كاشف الغطاء، وغيرهما من الأساطين، ثمَّ هاجر إلى مسقط رأسه؛ ليسدّ الثغرة ويرشد الضال ويهدى المجتمع، وكان على جانب من دماثة الخلق والتواضع، رحب الصدر، يودّ جليسه أن يطيل معه الجلوس، وأن لا ينتهى المجلس مهما امتدت ساعاته الطوال، حيث كان لطيف المعشر خصب المعلومات، هذا وكانت وفاة المترجم له عشية الأربعاء 13 ربيع الأول من سنة 1366 ه -، وقد شيّع إلى مرقده الأخير فى مقبرة الأسرة بالنجف الأشرف، ولم يعقب من الذكور ذرّية».

(نصاری)

هوت فوگه أوگلبها علیه طایر هذا حسین إخوی إشلون صایر

بیت الچان مگصد للعشایر طاح الواسطة اوللگاع هوّد

(موشح)

إعله الترب طایح وهو نایم جریح أوظلّت إجروحه یویلی دم تسیح

وهو ابهذا الحال لن زینب تصیح گوم یابن الفحل واحمی العایله

هجمت إعلینه تره إخیول العده اوصارت إخیامک یخویه امفرهده

هذا بینه الصار واعلینه السده وابنک السجاد یا خویه إنوله

(أبوذیة)

روحی مازهت ساعة وصاحت المثلی منسبت حرّه وصاحت

عله التل أوچبت زینب وصاحت انهبوا یحسین خدر الفاطمیة

***

قال تعالی: أَمْ یَحْسُدُونَ النّاسَ عَلی ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَیْنا آلَ إِبْراهِیمَ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ آتَیْناهُمْ مُلْکاً عَظِیماً (1).

الحسد: هو تمنّی زوال النعمة عن الآخرین، سواء وصلت تلک النعمة إلی الحسود أم لم تصل إلیه، وعلی هذا الأساس تنصب جهودُ الحَسودِ علی فناء ما لدی الآخرین وزواله عنهم، أو تمنّی ذلک.

والحسد مذموم، ویدعو الإنسان إلی الحقد والبغض والکره، وهو من الأمراض

1- (1) النساء: آیة 54.

العظيمـة للقلوب، ولا تـداوى أمراض القلب إلاّ بالعلم والعمل، وذلک بأن تعلم حقيقة الحسد وضـرره على الإنسان فى دار الدنيا والآخرة، وإنَّ المحسود لا ضرر عليه، بل يحصل على الثواب نتيجةً لذلک.

ويجب أن يعرف الحاسـد أنَّ ما عنـده وعنـد غيره هو من قضاء الله وقدره، وأنَّ الحسد لا يورّث إلاّ التألم والعذاب، والهمّ والغمّ بلا مقابل، وبلا فائدة.

ومن هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد؛ نفس دائم، وقلبٌ هائم، وحزنٌ لازم»(1).

وقال الشاعر:

اصبر على حَسدِ الحَسودِ فإنَّ صبرَکَ قاتِلُهْ

كالنارِ تأكلُ نفسها إنْ لم تجدْ ما تأكلُهْ

والواقع هو هـذا؛ إذ إنّک تجـد الحاسد دائماً متألّماً، يتتبّع أحوال الناس، مراقباً لهم، وقد قيل: «مَن راقب الناس مات همّاً»(2)، فتجده دائماً مهموماً مغموماً، هائم القلب، ملازماً للحزن، كما تقدّم فى تعبير أمير المؤمنين عليه السلام.

وهـذه الخصـلة الخبيثـة أورثت الحزن الـدائم لكثير من الناس، فهذا هو القرآن الكريم يُصـرّح بأنّ أوّل جريمة قتل أُرتكبت فى الأرض كان منشؤها الحسد، قال تعالى: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّکَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (3).

ومناشئ هذه الخصلة الذميمة – من الناحية المعنوية – الضعف فى الشخصية، وعقدة

1- (1) بحار الأنوار: ج 70، ص 256.

2- (2) شرح نهج البلاغة: ج 20، ص 240.

3- (3) المائدة: آية 27.

الحقارة والجهل، وقصر النظر، وقلّة الإيمان؛ لأنَّ الحاسد – فى الحقيقة – يرى نفسه أعجز وأقل من أن يبلغ ما بلغه المحسود.

هـذا، مضافـاً إلى أنَّه بعمله هـذا يعترض على حكمـة الله سـبحانه وتعـالى واهب جميع النّعم، وجميع المواهب، فى إعطائه سـبحانه لمَن تفضّل بها عليه من الناس، ولهذا جاء فى الحديث الشريف عن الإمام الصّادق عليه السلام:

«الحسد: أصله من عمى القلب، والجحود لفضل الله تعالى، وهما جناحان للكفر، وبالحسد وقع ابن آدم فى حسرة الأبد، وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً»(1).

وقد حصر بعضهم – كالعلامة المجلسى رحمه الله – أسباب الحسد فى سبعة أُمور:

الأوّل: العداوة.

الثانى: التعزُّز، أن يكون من حيث لا يعلم أنّه يستكبر بالنعمة عليه، وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزَّة نفسه.

الثالث: الكبر، أن يكون فى طبع الحاسد أن يتكبّر على المحسود، ولا ترضى نفسه المتعالية أن يحصل أحدٌ على نعمة غيره هو!

الرابع: التعجّب، أن تكون النعمة والمنصب كبيراً، فيعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة، كما أخبر الله تعالى عن الأُمم الماضـية، إذ قالوا: قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا (2) ، وأمثال ذلک كثير، فتعجّبوا من أن يفوزوا برتبة الرسالة والوحى والقرب مع أنّهم بشـر مثلهم فحسدوهم، وهو المراد بالتعجّب.

الخامس: الخوف، بأن يخاف من فوات مقاصده بسـبب نعمة أنعمها الله عزّ وجلّ على المحسود، بأن يتوصّل المحسود بها إلى مزاحمته فى أغراضه.

1- (1) بحار الأنوار: ج 70: ص 255. تفسير الأمثل: ج 3، ص 275.

2- (2) يس: آية 15.

السادس: حبّ الرئاسة، أن يحب الرئاسة التى تبتنى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها.

السابع: خبث الطينة، أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب، بل لخبث النفس وشحّها بالخير على عباد الله(1).

هذه هى أهم مناشئ وأسباب حصول الحسد وصدوره.

فلو صدرت هذه الخصلة الخبيثة – لا سمح الله – فسوف تترتّب النتائج السلبية عليها، وهناك عدّة نتائج وخيمة تترتّب على الحسد سواء أكانت راجعة إلى نفس الحاسد من حقد وغير ذلک، أم راجعة إلى المحسود نفسه، أم للمجتمع الذى تقع فيه هذه الجريمة الوقحة، والخصلة المذمومة عند الله عزّ وجلّ وعند الناس.

ومن أهمّ هذه النتائج، أنّ الحسود يصرف كُلّ أو جُلّ طاقاتِه البدنية والفكرية – التى يجب أن تُصرف فى ترشيد الأهداف الاجتماعية – فى هدم وتحطيم ما هو قائم، ولهذا فهو يبدّد طاقاته الشخصية والطاقات الاجتماعية معاً.

ومن النتائج الخطيرة للحسد أيضاً، أنّه يُعدّ الدافع لكثير من الجرائم فى هذا العالم، فلو أنّنا درسنا العلل الأصلية التى تقف وراء جرائم القتل والسرقة والعدوان، وما شابه ذلک، لرأينا – بوضوح – أن أكثر هذه العلل تنشأ من الحسد، ولعله لأجل هذا شُبّه الحسد بشرارة من النار يمكنها أن تهدّد كيان الحاسد، أو المجتمع الذى يعيش فى وسطه بالخطر وتعرضّه للضرر.

يقول أحد العلماء: إنّ الحسد من أخطر الصفات، ويجب أن يُعتبر من أعدى أعداء السعادة، فيجب أن يجتهد الإنسان لدفعه والتخلص منه.

والملفت للنظر اليوم هو أنّ أكثر المجتمعات أصبحت مملوءة بالأمراض والآلام

1- (1) الأربعون حديثاً: ص 108 – ص 109، ضمن الحديث الخامس. وأُنظر: بحار الأنوار: ج 70، ص 240.

الجسدية من عصبية وغيرها. ومردُّ الأكثر من هذه الأمراض إلى خبث السريرة والحقدِ والحسدِ.

ومن هنا ورد عن طبيب النفوس أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«صحّة الجسد من قلّة الحسد» ، و

«العجب لغفلة الحسّاد عن سلامة الأجساد»(1).

بل وردت روايات تُصرّح بأن الحسد يضرّ بالحاسد قبل أن يَضُرَّ بالمحسود، بل ويؤدى إلى القتل والموت تدريجاً، وربما أدى إلى الموت دُفعةً، كما حكى ذلك فى التاريخ: أنّ رجلاً من أهل النعمة ببغداد فى أيام موسى الهادى حسد بعض جيرانه، وسعى عليه بكلّ ما يمكنه ممّا قدر عليه، فاشترى غلاماً صغيراً فربّاه، فلمّا شبّ واشتدّ أمْره أمَرَهُ بأن يقتله على سطح جاره المحسود؛ ليُؤخذ جاره به ويُقتل.

حيث إنّه عمد إلى سكين فشحذها ودفعها إليه، وأشهد على نفسه أنّه دبّره(2) ودفع إليه من صلب ماله ثلاثة آلاف درهم، وقال: إذا فعلت ذلك فخذ فى أى بلاد الله شئت، فعزم الغلام على طاعة المولى بعد التمنّع والالتواء، وقوله له: اللهَ اللهَ فى نفسك يا مولاى، وأنت تتلفها للأمر الذى لا يُدرى أيكون أم لا يكون؟! فإن كان لم ترَ مِنه ما أمّلت وأنت ميّت، فلمّا كان فى آخر ليلة من عمره قام فى وجه السحر، وأيقظ الغلام فقام مذعوراً وأعطاه المُدية(3) ، فجاء حتّى تسوّر حائط جاره برفق، فاضطجع على سطحه فاستقبل القبلة ببدنه، وقال للغلام: ها وعجّل، فترك السكين على حلقه، وفرى أوداجه ورجع إلى مضجعه، وخلاّه يتشحّط فى دمِه، فلمّا أصبحَ أهلُه خفى عليهم خبره، فلمّا كان فى آخر

1- (1) نهج البلاغة: ج 4، ص 50 - ص 55، عنه بحار الأنوار: ج 70، ص 256، ح 28. تفسير الأمثل: ج 3، ص 274.

2- (2) دبّره: بأن قال للعبد: أنت حُر دبر - أى بعد - حياتى.

3- (3) المُدية: السكين الكبير.

النهار أصابوه على سطح جاره مقتولاً، فأخذ جاره فحبس، فلمّا ظهر الحال أمر الهادى بإطلاقه(1).

ومن النتائج المُهمة أيضاً - بالإضافة إلى ما تقدّم من الحزن والهمّ والضـرر للنفس وغير ذلک - هو ذهاب حسـنات الحاسد إلى المحسود، وغضب الله عليه، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إيّاكم والحسد؛ فإنّ الحسدَ يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»(2).

وعن الإمام الباقر عليه السلام:

«إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»(3).

بل إنّ الحسد هو أصل الكفر، كما ورد ذلک عن الإمام الصّادق عليه السلام:

«إيّاكم أن يحسد بعضُكم بعضاً، فإنَّ الكفرَ أصلُه الحسد»(4).

ولو تأمّلنا فى معنى الآية التى افتتحنا بها المحاضـرة لرأينا أن الآية موجّهة خطابها إلى اليهود بحسب السياق فى الآيات التى قبلها، حيث إنّ الكلام فى الآيات التى قبلها موجّه إلى اليهود من حيث اتّصال الكلام لا من حيث حجية السياق دائماً.

فالآيات التى قبل هـذه الآيـة موجهّـة خطابها إلى النبىّ الأعظم صـلى الله عليه و آله أن ينظر إلى اليهود، قال تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا... أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ....

من هنا نجد أنَّ بعض المفسّرين فسّر (أم) هنا ب - (بل) بمعنى: بل اليهود يحسدون الناس على ما آتاهم الله!!

ومن هنا لا بدّ من معرفة هؤلاء الناس، فمَن هم الناس المحسودون؟ قلنا: إنّ الآية

1- (1) بحار الأنوار: ج 70، ص 260، عنه سفينة البحار: ج 2، ص 178.

2- (2) الدّر المنثور: ج 2، ص 173.

3- (3) الكافى: ج 2، ص 306، باب الحسد، ح 1.

4- (4) تحف العقول: ص 135.

موجهـة خطابها إلى النبىّ صـلى الله عليه و آله بأن ينظر إلى اليهود بأنّهم لماذا يتعجبون من إعطاء النبىّ صـلى الله عليه و آله وبنى هاشـم ذلـک المنصب الجليل، وذلک المقام الرفيع، وقـد أعطاكم الله سـبحانه وتعالى، وأعطى آل إبراهيم عليه السـلام الكتاب السـماوى والعلم والحكمـة والملـک العريض، مثل (ملک موسـى وسـليمان وداود)، ولكنكم - مع الأسف - أسأتُم خلافتهم، ففقـدتم تلكم النعم المادية والمعنوية القيّمة بسبب فسوقكم وشروركم: آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً .

والمراد من الناس فى قوله: أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ - كما أسـلفنا - هم رسول الله وأهل بيته عليهم السلام؛ لإطلاق لفظة الناس على جماعة من الناس، وأمّا إطلاقها على شخص واحد وهو النبىّ خاصّة، فلا يصح، ما لم تكن هناک قرينة على إرادة الواحد فقط. هذا، مضافاً إلى أن كلمة إبراهيم قرينة أُخرى على أنّ المراد من (الناس) هو النبىّ صـلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السـلام؛ لأنّه يستفاد من قرينة المقابلة أننا إذا أعطينا لبنى هاشم مثل هـذا المقام ومثل هـذه المكانـة - فلا داعى للعجب - فقد أعطينا آل إبراهيم أيضاً تلک المقامات المعنوية والمادية بسبب أهليتهم وقابليتهم(1).

أضف إلى ذلک كلّه ما ورد فى الروايات فى تفسير هذه الآية من طرق الخاصّة والعامّة(2) أنّ المقصود من الناس هم النبىّ وأهل بيته عليهم السلام.

والمقصود بالملک العظيم الذى أعطاه الله تبارک وتعالى لآل إبراهيم: هو الطاعة لهم ولآل المصطفى عليهم السلام بقرينة المقابلة.

وفى بعض الروايات فى قوله تعالى: أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ قال: «نحن الناس والله»(3).

1- (1) انظر: تفسير الأمثل: ج 3، ص 272 - ص 273. تفسير الميزان: ج 4، ص 376.

2- (2) نسبه فى الأمثل إلى الدرّ المنثور وروح المعانى، فلاحظ.

3- (3) تفسير البرهان: ج 2، ص 240 - ص 246.

ولكن، هلمَّ معى وأُنظر ماذا صنعوا بهم، يا ليتَهم اكتفوا بالحسد بالقلب واللسان، ولكن أبى القوم إلاّ أن يجزِّروهم على رمضاء كربلاء، ومن بعد ذلک سبوا العيال والأطفال، حتّى وصل بهم الأمر إلى سلب النساء.

قالت فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام: كُنتُ واقفةً بباب الخيمة، وأنا أنظر إلى أبى وأصحابه مجزَّرين كالأضاحى على الرمال، والخيول على أجسادهم تجول، وأنا أُفكّر فيما يقع علينا بعد أبى من بنى أُميّة، أيقتلوننا، أو يأسروننا؟! فإذا برجل على ظهر جواده، يسوق النساء بكعب رمحه، وهن يلذن بعضُهنَّ ببعضٍ، وقد أُخذ ما عليهنَّ من أخمرة وأسورة، وهن يصحن: وا جداه وا أبتاه، وا علياه، وا قلّة ناصراه، وا حسيناه، أما من مجير يجيرنا؟ أما من ذائد يذود عنّا؟(1)

(نصارى)

اشصاير بهلنه أولا لفونه أو بين الأعادى ضيعونه

ننخه اولاهم يسمعونه اويدرون بينه راح أخونه

***

يسلبها العدواويشتم وليها اوجاير بالضرب ويلى عليها

تهبّط راسها اوتشگف بديها أودمعها إيسيل عالوجنات محمر

(نعى مجاريد)

أنه شايطه ونده إبصوتى يسمعونى اويغضون إخوتى

يا ريت گبل احسين موتى ولا أشوف العده تنهب إبيوتى

1- (1) انظر: بحار الأنوار: ج 45، ص 60.

(أبوذية)

لا ترفع الشيعة بعد هامات اوبنات أهل الوحى امن الخيم هامات

ها حيٍّ تصيح احسين ها مات لون بيه روح محّد وصل ليَّه

***

أخى كيف أمشى فى البوادى مضامةً وأنت بأسياف الأعادى موزَّعُ

***

إنّا لله و إنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:388

المحاضرة الثلاثون: معجزات الإمام الحسين عليه السلام

ص:389

إمامٌ بكتْهُ الإنسُ والجنُّ والسّما ووحشُ الفلا والطَّيرُ والبرُّ والبَحرُ

وفيهِ رسولُ اللهِ قَالَ وقولُهُ صَحيحٌ صريحٌ ليس فى ذلِكُمْ نُكرُ

حُبى بثلاثٍ ما أحاطَ بمِثلها وليٌّ فَمَن زيدٌ هُناكَ ومَن عَمرو

له تربُةٌ فيها الشفاءُ وقبّةٌ يُجابُ بها الدّاعى إذا مسّهُ الضّرُّ

وذُريّةٌ دُريّة مِنهُ تسعةٌ أئمّةُ حقٍّ لا ثمانٍ ولا عَشرُ

هُمُ النورُ نورُ الله جلَّ جلالُه هُم التينُ والزيتونُ والشَّفع والوَترُ

ولولا هُمُ لَم يخلُقِ اللهُ آدماً ولا كانَ زيدٌ فى الوجودِ ولا عَمرو

أيُقتلُ ضَمآناً حسينٌ بكربلا وفى كُلِّ عُضو من أنامِله بحرُ

ووالدُه الساقى على الحوضِ فى غدٍ وفاطمةٌ ماءُ الفُراتِ لها مَهرُ

يَعزُّ علَيها أن تراهُ على الثّرى ذَبيحاً بِلا دفنٍ يُكفّنهُ العفَر(1)

1- (1) من الرائية الخالدة لابن العرندس الحلى قدس سرّه: قال عنه السيد الأمين قدس سرّه فى أعيان الشيعة: «الشيخ صالح بن الوهّاب بن العرندس الحلّى المعروف بابن العرندس، توفى فى حدود سنة 840 ه - فى الحلة ودُفن فيها، وله قبرٌ يُزار ويُتبرّک به، كان عالماً فاضلاً مشاركاً فى العلوم، تقيّاً ناسكاً أديباً شاعراً، ومن شعره قوله فى رثاء الحسين عليه السلام: طوايا نظامى فى الزمان لها نشرُيُعطّرها من طيب ذكركم نشرٌ أيقتل ظمآناً حسينٌ بكربلاوفى كلِّ عُضوٍ من أنامله بحرُ أعيان الشيعة: ج 7، ص 375. وقال العلاّمة الأمينى قدس سرّه فى الغدير: ج 7، ص 15: «... ومن شعر شيخنا الصالح رائية اشتُهر بين الأصحاب أنّها لم تُقرأ فى مجلس إلاّ وحضره الإمام الحجّة المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف...».

ولسان حال الزهراء عليها السلام لمّا نظرت إلى ولدها كما يصف الشاعر:

(فايزى)

شلتک إبطنى ستة أشهر يا جنينى وسهرت ليلى اووسديتک عن يمينى

تاليها مرمى عله الثرى تنظرک عينى عگب الدلال على التريبه إتنام يحسين

يحسين يبنى مصرعک گطّع گليبى ياريت دونک يذبحونى يا حبيبى

أبروحى فديتک وشربت صافى حليبى اوبرباک يوليدى إسهرت يا گرّة العين

(أبوذية)

الحراير من لهيب النار هاجن ولعد جسمک يبو السجاد هاجن

يگللک علينه الليل هاجن وانته إموسد الغبره رميه

وكأنّى بحرائر الرسالة:

يفترن خوات إحسين من خيمة لعد خيمه ينخن وين راحوا وين ما كو بالكفر شيمه

كل خيمه تشب ابنار ردن ضربن الهيمه والسجاد إجو سحبوه اودمعه على الوجن ساله

***

روى محمّد بن مسلم، عن الإمامين الباقر والصّادق عليهما السلام، قال: سمعتهما يقولان:

«إنَّ اللهَ تعالى عوّضَ الحُسينَ عليه السلام مِن قَتْلِه: أنْ جعلَ الإمامة فى ذُرّيتهِ، والشفاءَ فى تُربته، وإجابةَ الدُعاءِ عند قبرهِ، ولا تُعدُّ أيامُ زائرهِ جائياً وراجعاً من عمره».

قال محمّد بن مسلم: فقلت لأبی عبد الله علیه السلام: هذه الخلال تُنالُ بالحسین، فما له هو فی نفسه؟

قال: «إن الله تعالی ألحقه بالنبی صلی الله علیه و آله فکان معه فی درجته ومنزلته»، ثُمَّ تلا أبو عبد الله علیه السلام: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّیَّتُهُمْ بِإِیمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ 1.

الإمام الحسین علیه السلام مُدهشٌ للعقولِ، محیّرٌ للألباب؛ لکثرة ما صدر منه من معجزات ظاهرات، وکرامات باهرات، من حین الحمل به والولادة وحتّی الشهادة وما بعدها.

روی الأوزاعی عن عبد الله بن شداد عن أُمّ الفضل: «أنّها دخلت علی رسول الله صلی الله علیه و آله فقالت: یا رسول الله، رأیتُ اللیلة حُلماً منکراً.

قال: وما رأیت؟ فقالت: إنّه شدیدٌ، قال: وما هو؟

قالتْ: رأیتُ کأنَّ قطعةً من جسدک قُطعت، ووضعت فی حجری.

فقال رسول الله صلی الله علیه و آله: خیراً رأیتِ، تلد فاطمة غلاماً فیکون فی حجرک، فولدتْ الحُسین علیه السلام، وکان فی حجری کما قال صلوات الله علیه وآله.

قالت: دخلت به یوماً علی النبی صلی الله علیه و آله فوضعته فی حجره، ثُمَّ حانت منی إلتفاتة فإذا عینا رسول الله صلی الله علیه و آله تهرقان بالدموع، فقلت: بأبی أنت وأمی یا رسول الله، ما لَکَ؟

قال: أتانی جبرئیل، فأخبرنی: أنَّ أُمتی ستقتلُ ابنی هذا، وأتانی بتربةٍ من تربة حمراء»(1).

وعن أُمّ سلمة قالت: «إنَّ رسول الله صلی الله علیه و آله خرج من عندنا ذات لیلة، فغاب عنّا طویلاً، ثُمَّ جاءنا وهو أشعث أغبر ویده مضمومة، فقلت له: یا رسول الله، ما لی أراک شعثاً مغبرّاً؟

فقال: أُسِری بی فی هذه اللیلة إلی موضع من العراق یُقال له: کربلاء، فأُریتُ فیه

1- (2) إعلام الوری: ج 1، ص 427.

مصرع الحسين ابنى وجماعة من ولدى وأهل بيتى، فلم أزل ألقط من دمائهم، فها هى فى يدى. وبسطها، فقال: خذيه واحتفظى به.

فأخذته فإذا هو شبه تُراب أحمر، فوضعته فى قارورة وشددتُ رأسَها واحتفظت بها، فلمّا خرج الحُسين عليه السلام متوجّهاً نحو العراق، كنت أخرج تلك القارورة فى كلّ يوم وليلة، فأشمها وأنظر إليها. ثُمَّ أبكى لمصابه، فلمّا كان يوم العاشر من المحرّم - وهو اليوم الذى قُتل فيه - أخرجتها أول النهار وهى بحالها، ثُمَّ عدت إليها آخر النهار فإذا هى دم عبيط، فصحت فى بيتى، وكظمت غيظى مخافة أن يسمع أعداؤهم بالمدينة فيسرعوا بالشماتة، فلم أزل حافظة للوقت واليوم حتّى جاء الناعى ينعاه، فحقق ما رأيت»(1).

وأمّا معجزاته فى يوم عاشوراء، فهى عديدة نذكر بعضاً منها:

فمنها: دعاؤه عليه السلام على عدو الله (حويزة) الذى قال للإمام عليه السلام: تعجّلت بالنار قبل يوم القيامة، فقال عليه السلام:

اللَّهُمَ حُزهُ إلى النار. فوقع فى النار(2).

ودعا عليه السلام على ذاك الذى قال: يا حسين، لن تذوق الماء حتّى ترد الحامية فتشرب من حميمها، فقال عليه السلام: اللَّهُمَ اقتله عطشاً، فما زال يشرب حتّى فتقت بطنه(3).

ودعا عليه السلام على ذاك الذى اعترضه فى خطابه، فقال عليه السلام:

«اللَّهُمَ أرنا فيه ذلاً بارزاً. فمضى لقضاء حاجته، فلسعته عقرب فسقط، وهو يستغيث ويتقلّب على حدثه»(4).

وغيرها من المعجزات الباهرة والكرامات التى حيّرت العقول، وأذهلت البشر، وكيف لا وهو ابن رسول الله صلى الله عليه و آله؟!

1- (1) إعلام الورى: ج 1، ص 429.

2- (2) تاريخ الطبرى: ج 4، ص 327. مناقب آل أبى طالب: ج 3، ص 214.

3- (3) المصدر نفسه: ج 4، ص 312.

4- (4) مناقب آل أبى طالب: ج 3، ص 215. بحار الأنوار: ج 45، ص 302.

ويكفيه فخراً (صلوات الله عليه) ما ذكرناه فى الحديث الذّى افتتحنا به المحاضرة أن جعل الله الشفاء فى تربته؛ لكثير من الأمراض المستعصية وغيرها. حتّى روى عن العلامة السيد نعمة الله الجزائرى: أنّه كان يُطالع على ضوء القمر؛ لأنّه كان لا يمتلک ثمن زيتٍ للسراج لشدّة فقره، فكان يضعف بصره، فيكتحل بتربة سيد الشهداء عليه السلام فيتضاعف بصره أضعافاً مضاعفةً.

ومن هنا ينبغى الالتفات جيداً إلى الاهتمام بتربة الأئمّة، وبالخصوص تربة سيد الشهداء عليه السلام، فقد ظهرت من التربة الشريفة كرامات مشاهدة.

قال العلامة المجلسى رحمه الله فى البحار: «روى شيخنا الطوسى رحمه الله عن موسى بن عبد العزيز، قال: لقينى يوحنّا بن سراقيون النصرانى الطبيب فاستوقفنى، وقال لى: بحقّ نبيک ودينک، مَنْ هذا الذى يزور قبره قوم منكم بناحية قصر بن هبيرة؟ مَن هو من أصحاب نبيكم؟ قلت: هو ابن بنت نبيِّنا، فما دعاک إلى المسألة عنه؟

فقال: عندى حديث طريف.

قلت: حدِّثنى به، فقال: وجّه إلىَّ خادم الرشيد شابور الكبير فى الليل فصرت إليه، فقال: تعالَ معى، فمضى وأنا معه حتّى دخلنا على موسى بن عيسى الهاشمى، فوجدناه زائل العقل متكئاً على وسادة، وإذا بين يديه طشت فيها حشو جوفه، فأقبل شابور على خادم موسى، وسأله عن سبب تغيّر حاله وقال له: ويحک، فأخبره فقال له: أخبرک أنّه كان من ساعته جالساً، وحوله ندماؤه، وهو من أصح الناس جسماً، وأطيبهم نفساً، إذ جرى ذكر الحسين بن على عليه السلام، فقال موسى: إنَّ الرافضة ليغلون فيه حتّى أنّهم يجعلون تربته دواءً يتداوون به.

فقال لهم رجل من بنى هاشم كان حاضراً: قد كانت بى علَّة غليظة، فتعالجت لها بكلّ علاج، فما نفعنى حتّى وصف لى كاتب أن آخذ من هذه التربة فأخذتها، فنفعنى الله

بها، وزال ما كنت أجده، فسأله موسى: هل بقى منها عندک شىء؟ قال: نعم. فوجّه فجىء منها بقطعة، فناولها إياه فأخذها موسى، وأدخلها فى دبره استهزاءً بمَن تداوى بها، واحتقاراً وتصغيراً بالحسين عليه السلام، فما هو إلاّ أن استغلها دبره حتّى صاح النار النار، الطشت فجئناه بالطشت فأخرج فيها ما ترى فانصرف الندماء، فصار المجلس مأتماً.

فأقبل علىَّ شابور وقال: انظر هل لک فيه حيلة؟ فدعوت بشمعة، فنظرت فإذا كبده وطحاله وريته وفؤاده خرجت منه فى الطشت، فقلت: ما لأحدٍ فى هذا صنع إلاّ أن يكون لعيسى بن مريم الذى يحيى الموتى.

فقال شابور: صدقت، ولكن كن ها هنا فى الدار حتّى تتبيَّنَ ما يكون أمره، فبتُّ عندهم وهو بتلک الحالة ما رفع رأسه حتّى هلک فى وقت السحر، قال الراوى: كان يوحنّا يزور قبر الحسين عليه السلام وهو على دينه، ثُمَّ أسلم بعد هذا وحسن إسلامه»(1).

ومن كراماته ومعجزاته الباهرة عليه السلام إجابة الدعاء عند قبره، حتّى أنَّ المعصوم نفسه يرسل أصحابه ليدعوا له عند قبره عليه السلام.

قال أبو هاشم الجعفرى صاحب الإمام الهادى عليه السلام: دخلت على أبى الحسن الهادى وهو محموم عليل، فقال: يا أبا هاشم، ابعث رجلاً من موالينا إلى الحائر يدعو الله لى. فخرجت من عنده، فاستقبلنى على بن بلال فأعلمته ما قال الإمام عليه السلام، وسألته أن يكون هو الرجل الذى يخرج، فقال: السمع والطاعة، ولكنّى أقول: إنّه أفضل من الحائر إذا كان بمنزلة مَن فى الحائر، ودعاؤه لنفسه أفضل من دعائى له فى الحائر.

فأعلمته ما قال، فقال لى: قل له:

كان رسول الله صلى الله عليه و آله أفضل من البيت والحجر، وكان يطوف بالبيت ويستلم الحجر، وإنّ لله تبارک وتعالى بقاعاً يُحِبُّ أن يُدعى فيها فيجيب لمَن

1- (1) بحار الأنوار: ج 45، ص 399، (مع اختلاف يسير).

دعاه، والحائر منها(1).

ونفس زيارة الحسين معجزة بحدِّ ذاتها وخاصّةً زيارة عاشوراء، فإنَّ لها أثراً عجيباً فی حل المشكلات ودفع البليات.

يُذكر أنّه أصيبت مدينة سامراء بالطاعون، فكان يتساقط عشرات الموتى فی كلّ يوم، يقول الشيخ عبد الكريم الحائری: إنّی كنت عند أُستاذی محمّد فشاركی، فقَدِمَ الميرزا محمّد تقی الشيرازی، وقال: إذا حكمت بحكم تلتزمون به؟

فأجابوا: نعم، فقال: أحكم أن يقرأ الشيعة من اليوم وحتّی عشرة أيام زيارة عاشوراء، ويهدون ثوابها إلی نرجس والدة الإمام الحجّة عجل اللّه تعالی فرجه الشريف.

قام الشيعة بتنفيذ الحكم وبدأوا بزيارة عاشوراء فارتفع الوباء ولم يسقط شيعی واحد بعد ذلک.

فزيارته لا تعدّ من العمر، بل أكثر من ذلک، زيارته تهب العمر، ولا يستطيع إنسان أن يحصی معاجزه (صلوات الله عليه).

ومن أجل ذلک بقی مأتم سيد الشهداء، وشاء الله أن يبقی مجلسه عليه السلام خالداً، وينتشر يوماً بعد يوم بشكلٍ أوسع، رغم منع المانعين، وحقد الحاقدين؛ لأنَّ الحسين عليه السلام نور الله، ونور الله لا يُطفأ، ولأنَّ الحسين عليه السلام كلمة الله، وكلمة الله هی العليا، ولأنَّ الحسين عليه السلام يدُ الله، ويدُ الله فوق أيديهم، ولأنَّ الحسين عليه السلام، ذكر الله، وذكر الله باقٍ إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ (2) ، وهذا ما أكَّدته العقيلة زينب عليهما السلام فی مجلس يزيد (لعنه الله) حيث قالت: «كِد كيدک، واسعی سعيک، وناصب جهدک، فوالله، لا تميت وحينا ولا تمحو ذكرنا»(3).

1- (1) بحار الأنوار: ج 98، ص 114 - ص 115، ح 34.

2- (2) الحجر: آية 9.

3- (3) اللهوف فی قتلی الطفوف: ص 218. بحار الأنوار: ج 45، ص 135.

هـذه المآتم التى كانت وما زالت، لم ولن تنطفىء منذ أن انعقد أول مجلس على سـيد الشـهداء عليه السـلام إلى يومنا هذا، وأوّل مأتم أقيم على الحسـين عليه السلام بعد شهادته – روحى فداه – كان لجموع الأنبياء والأولياء عليهم السلام بحضور النبىّ الأعظم عليه السلام وأهل بيته عليهم السـلام، كما ذكر ذلک الجمّال (لعنه الله) الذى جاء لسـلب أبى عبد الله عليه السـلام، يقول: بينا أنا كذلک، وإذا سـحابتان نزلتا على مصرع أبى عبد الله عليه السلام.

السحابة الأُولى: مجموعة رجال يقدمهم شخص أزهرى قمرى، أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه و آله.

والسـحابة الثانيـة: مجموعة نساء تقدمهن امرأة عليها ثياب السواد تقوم وتقع، وهى تنادى: أى وا ولداه، وا حسـيناه، بُنى حسـين قتلوک، ومن شرب الماء منعوک، وما عرفوا مَن أمُّک ومَن أبوک.

أقبلت إلى مصـرع ولدها الحسـين عليه السـلام، عزّ عليها أن تراه مقطّع الأعضاء، الدماء تسـيل من نحره الشريف، وقعت عليه تضمُّه تشمُّه تُقبّله، قالت: أبه يا رسول الله، دعنى اخضّب وجهى بدم ولدى، فقال لها: بُنية، اخضبى ونحن نخضب، فالسـيدة الزهراء عليها السلام أقامت المأتم على عزيزها الحسين عليه السلام، ولكن مَن الذى قرأ التعزية فى ذلک المجلس.

أقول: التى قرأت التعزيـة ابنتُها العقيلـةُ زينب عليها السـلام، يقول بعض العلماء: لمّا خرجت زينب عليها السـلام من الخيمة يوم عاشوراء، تمثّل لهـا رسول الله صـلى الله عليه و آله واقفاً على مصـرع أبى عبـد الله، قابضاً على كريمته المباركـة، ودموعه تتحادر على لحيته، ولـذا وجّهت الخطاب مباشـرةً إلى جـدِّها: يا جـدّاه يا رسول الله، صـلّى عليک ملائكـة السـماء، هذا حسـينک بالعراء، محزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والرداء، مرفوع الرأس على القنا، وبناتک سبايا، وإلى الله المشتكى، ثُمَّ إليک يا رسول الله(1).

1- (1) انظر: الطريق إلى منبر الحسين عليه السلام: ص 116 – ص 121.

يهلنا احسينكم رضوا اضلوعه وضا الموت روعه بعد روعه

يجدى گوم شوف احسين مذبوح عله الشاطى وعله التربان مطروح

يجدى ما بگتله امن الطعن روح يجدى گلب أخوى احسين فطّر

يجدى مات محد وگف دونه ولا نغّار غمضله اعيونه

يعالج بالشمس منخطف لونه ولا واحد ابحلگه مای گطر

يجدى مات محّد مدّد إيديه ولا واحد يجدى عدل رجليه

يعالج بالشمس محد وصل ليه يحطله إظلال ياجدى مِن الحرّ

يجدى الرمح بفّاده تثنّه يجدى بالوجه للسيف رنّه

يجدى الخيل صدره رضرضنه ويجدى بالترب شيبه تعفّر

ثمَّ وجهّت التعزية إلى أبيها أمير المؤمنين عليه السلام:

تعالوا لبنكم غسلوه والچفن وياكم دجيبوه

وجيبوا گطن للجرح نشفوه وعله إجتافكم لحسين شيلوه

يبويه گوم شوف إعزيزک احسين عله التربان محزوز الوريدين

وعباس النفل مگطوع اليدين وباگى أقمارنه فوگ الوطيّة

يبويه گوم شوف اشلون وليای كلها امذبّحه وما ضاگت المای

يبويه لوتشوف اشماته اعدای وتشوف ابناتک مسلّبه بهلبر

يبويه شلسبب ما جيت للساع تشوف إعزيزكم عارى عله الگاع

أريدنک تجى لحسين فزّاع ونشوف أغبار ميمونک امن ايثور

***

يا ليتَ فى الأحياءِ شخصَک حاضرٌ وحسينُ مطروحٌ بعرصةِ كربلا

***

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل مُحَمّد أىَّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتّقين.

ص:400

فهرست أهم المصادر

القرآن الكريم

- حرف الألف -

1. إبتلاءات الأُمم: سعيد أيوب، معاصر، الطبعة الأُولى 1416 ه -- 1995 م، منشورات دار الهادى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

2. الاحتجاج: أبو منصور، أحمد بن على بن أبى طالب الطبرسى، (ت 548 ه -)، تعليقات وملاحظات السيد محمد باقر الخرسان، منشورات مطابع النعمان النجف الأشرف 1386 ه -- 1966 م.

3. الإختصاص: الشيخ المفيد، محمد بن النعمان البغدادى (ت 413 ه -) تحقيق: علىّ أكبر الغفارى، انتشارات جماعة المدرّسين فى الحوزة العلمية فى قم المقدّسة.

4. الأخلاق والآداب الإسلامية: هيئة محمد الأمين، مطبعة سيد الشهداء، الطبعة الثانية، قم المقدسة، 1421 ه -.

5. أدب الطَّف: السيد جواد شبّر، الطبعة الأولى 1398 ه - 1978 م، دار المرتضى، بيروت - لبنان.

6. الأربعون حديثاً: السيد روح الله الموسوى الخمينى رحمه الله (ت 1409 ه -)، ترجمة: السيد محمد الغروى، مؤسسة دار الكتاب الإسلامى - قم المقدسة.

7. الإرشاد: الشيخ المفيد محمد بن النعمان البغدادى (ت 413 ه -)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم المقدسة، الطبعة الأُولى 1417 ه -.

8. أسباب النزول (الواحدى): أبو الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى، (ت 468 ه -)، مؤسسة الحلبى للنشر والتوزيع - القاهرة.

9. أضواء البيان: الشنقيطى (ت 1393 ه -)، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر 1415 ه -- 1995 م، بيروت - لبنان.

10. إعانة الطالبين: السيد الكبرى الدمياطى (ت 1310 ه -)، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأُولى 1418 ه -.

11. الأعلام: خير الدين الزركلى (ت 1410 ه -)، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة 1980 م.

12. إعلام الورى: الشيخ الفاضل الفضل بن الحسن الطبرسى (ت 458 ه -)، طبع ونشر وتحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الأُولى 1417 ه -.

13. إقبال الأعمال: السيد ابن طاووس (ت 664 ه -) تحقيق محمّد جواد القيومى، الطبعة الأُولى 1414 ه -، منشورات مكتب الإعلام الإسلامى

14. الأقسام فى القرآن الكريم: الشيخ جعفر السبحانى، معاصر، الطبعة الأولى 1420 ه -، منشورات مؤسسة الإمام الصَّادق عليه السلام، قم المقدّسة.

15. الإلهيات: الشيخ جعفر السبحانى، تلخيص: على الربانى الكلبايكانى، مؤسسة الإمام الصّادق عليه السلام، قم المقدّسة، طبعة عام 1418 ه -.

16. الأمالى: شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسى (ت 460 ه -)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم، نشر: دار الثقافة، الطبعة الأُولى 1414 ه -.

17. أمالى السيد المرتضى: الشريف أبو القاسم على بن الطاهر أبى أحمد الحسين (ت 436 ه -)، صححه وضبط ألفاظه وعلّق حواشيه: السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى، الطبعة الأُولى 1325 ه -- 1907 م، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشى النجفى قم - إيران 1403 ه.

18. الأمالى، الشيخ الصدوق (ت 381 ه -)، تحقيق: مؤسسة البعثة - قم المقدّسة، الطبعة الأَولى 1417 ه -.

19. الإمامة تلك الحقيقة القرآنية: الدكتور زهير بيطار، معاصر، منشورات دار السيرة بيروت - لبنان 1422 ه. - 2001 م.

20. الإنصاف فيما تضمّنه الكشاف: ابن المنير الاسكندرى (ت 683 ه -)، منشورات مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر.

21. آيات منتخبة من القرآن الكريم: السيد مهدى الخطيب الهنداوى (ت 1427 ه -)، مطبعة ستارة - قم المقدّسة، الناشر المؤلف رحمه الله.

- حرف الباء -

22. الباب الحاى عشر: العلامة الحلى الحسن بن يوسف بن المطهّر (ت 726 ه -)، انتشارات المصطفوى - قم المقدّسة.

23. بحار الأنوار: العلاّمة محمد باقر المجلسى (ت 1111 ه -)، مطبعة مؤسسة الوفاء - بيروت، الطبعة الثانية 1403 ه -.

- حرف التاء -

24. تأويل الآيات: السيد شرف الدين على الحسينى الاسترآبادى النجفى (ت 965 ه -)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدى عجل اللّه تعالى فرجه الشريف بالحوزة العلمية - قم المقدّسة، الطبعة الأُولى 1407 ه - 1366 ه ش.

25. تاج العروس: محمد مرتضى الزبيدى (ت 1205 ه -)، الناشر مكتبة الحياة، بيروت - لبنان.

26. تاريخ الطبرى: محمد بن جرير الطبرى (ت 310 ه -)، تحقيق: نخبة من العلماء، انتشارات مؤسسة الأعلمى، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

27. تبصرة المتعلّمين: جمال الدين الحسن بن يوسف المطهر، المعروف بالعلاّمة الحلى (ت 726 ه -)، تحقيق: السيد أحمد الحسينى والشيخ هادى اليوسفى، الطبعة الأولى 1368 ش، منشورات فقيه، طهران - إيران.

28. التبيان: الشيخ الطوسى، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى، (ت 460 ه -) تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملى، الطبعة الأُولى 1409 ه -، مكتب الإعلام الإسلامى.

29. تحف العقول: ابن شعبة الحرّانى (ت القرن الرابع الهجرى)، تحقيق: على أكبر الغفارى، نشر جماعة المدرّسين بقم المقدّسة، الطبعة الثانية 1404 ه -.

30. التحفة السنية (مخطوط): السيد عبد الله الجزائرى (ت 1180 ه -).

31. تفسير ابن أبى حاتم: ابن أبى حاتم الرازى (ت 327 ه -) تحقيق: أسعد محمد الطيب، منشورات المكتبة العصرية.

32. تفسير ابن العربى: ابن العربى، (ت 638 ه -)، ضبطه وصححه وقدّم له: الشيخ عبد الوارث محمد على، الطبعة الأُولى 1422 ه -، منشورات دار الكتب العلمية.

33. تفسير ابن زمنين: أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن أبى زمنين، (ت 399 ه -)، تحقيق: حسين عكاشة - محمد الكنز، الطبعة الأُولى 1423 ه -- 2002 م، منشورات الفاروق الحديثة.

34. تفسير ابن كثير: الحافظ عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (ت 774 ه -)، قدَّم له: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلى، دار المعرفة، بيروت - لبنان 1412 ه -- 1992 م.

35. تفسير أبى السعود: أبو السعود، (ت 951 ه -)، طباعة ونشر: دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان.

36. التفسير الأصفى: المولى محمد محسن الفيض الكاشانى (ت 1091 ه -)، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، المحققان: محمد حسين درايتى ومحمد رضا نعمتى، الطبعة الأُولى 1418 ه - ق، 1376 ش، منشورات مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامى.

37. تفسير الآلوسى: الآلوسى (ت 1270 ه -)، مجهولة.

38. تفسير الأمثل: الشيخ ناصر مكارم الشيرازى، مطبعة أمير المؤمنين عليه السلام، قم المقدّسة، الطبعة الأولى 1421 ه -.

39. تفسير البحر المحيط: أبو حيّان الأندلسى (ت 745 ه -)، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، الطبعة الأُولى 1422 ه -- 2001 م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

40. تفسير البرهان: السيد هاشم البحرانى، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين، نشر مؤسسة الأعلمى - بيروت، الطبعة الأُولى 1419 ه -.

41. تفسير البغوى: البغوى (ت 510 ه -)، تحقيق خالد عبد الرحمن العک، مطبعة ونشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.

42. تفسير الثعلبى: الثعلبى (ت 427 ه -) تحقيق: الإمام أبى محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدى، الطبعة الأُولى 1422 ه -- 2002 م، دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان.

43. تفسير السلمى: السلمى، (ت 412 ه -)، تحقيق: سيد عمران، الطبعة الأُولى 1421 ه -- 2001، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

44. تفسير السمرقندى: أبو الليث السمرقندى، (ت 383 ه -) تحقيق: الدكتور محمود مطرجى، منشورات دار الفكر.

45. تفسير السمعانى: السمعانى، (ت 489 ه -)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الطبعة الأُولى 1418-1997، منشورات دارالوطن، الرياض - السعودية.

46. التفسير الصافى: محسن الفيض الكاشانى، (ت 1091 ه -) تحقيق: الشيخ حسين الأعلمى الطبعة الثالثة 1416 ه -، مطبعة مؤسسة الهادى، قم المقدّسة، منشورات مكتبه الصدر، طهران - إيران.

47. تفسير العيّاشى: أبو النضر، محمّد بن مسعود بن عيّاش السّلمى، السمرقندى (ت 320 ه -) تحقيق: الحاج هاشم الرسولى المحلاتى، المكتبة العلمية الإسلامية طهران.

48. تفسير القرطبى: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى (ت 671 ه -) تحقيق: أحمد بن العليم البردونى، منشورات دار إحياء التُّراث العربى، بيروت - لبنان.

49. تفسير القمى: على بن إبراهيم القمّى، (ت 329 ه -) تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيّب الموسوى الجزائرى، مطبعة النجف الأشرف 1387 ه -، منشورات مكتبه الهدى.

50. تفسير النسفى: النسفى (ت 537 ه -)، مجهولة.

51. تفسير جامع البيان: ابن جرير الطبرى، (ت 310 ه -)، تحقيق وتقديم: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقى جميل العطّار، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

52. تفسير مجمع البيان: أمين الإسلام الطبرسى (ت 560 ه -) تحقيق لجنة، الطبعة الأُولى 1415 ه -،

مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت – لبنان.

53. تفسير مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): الفخر الرازى (ت 606 ه –)، الطبعة الثالثة بدون تاريخ.

54. تفسير مقاتل: مقاتل بن سليمان، (ت 150 ه –)، تحقيق: أحمد فريد، الطبعة الأُولى 1424 ه –– 2003 م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

55. تفسير نور الثقلين: الشيخ عبد على العروسى الحويزى (ت 1112 ه –) تحقيق السيد هاشم الرسولى المحلاتى، الطبعة الرابعة 1412 ه – مؤسسة إسماعيليان، قم المقدّسة.

56. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام): الأمير الزاهد أبو الحسن ورّام بن أبى الفراس الأشترى (ت 605 ه –)، مكتبة الفقيه، قم – إيران.

57. تنزيه الأنبياء: السيد المرتضى علم الهدى (ت 436 ه –)، الطبعة الثانية 1409 ه –– 1989 م، منشورات دار الأضواء، بيروت – لبنان.

58. توحيد الإمامية: محمد باقر الملكى، معاصر، تنظيم: محمد البيابانى الأسكوئى، اهتمام على الملكى الميانجى، الطبعة الأُولى 1415 ه، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامى – مؤسسة الطباعة والنشر.

59. التوحيد الشيخ الصدوق رحمه الله: الشيخ الصدوق، محمد بن على بن بابويه القمى (381 ه –)، تحقيق: السيد هاشم الحسينى الطهرانى، سنة الطبع 1387 ه – من منشورات جماعة المدرسين، قم المقدّسة.

– حرف الثاء –

60. الثاقب فى المناقب: عماد الدين أبو جعفر محمد بن على الطوسى، المعروف بابن حمزة، (ت 560 ه –) تحقيق: نبيل رضا علوان، الطبعة الثانية 1412 ه –، منشورات مؤسسة أنصاريان، قم المقدّسة.

61. ثمرات الأعواد: السيد على الحسينى الهاشمى النجفى، انتشارات المكتبة الحيدرية – النجف الأشرف، الطبعة الأُولى 1420 ه –.

– حرف الجيم –

62. جامع السعادات: محمد مهدى النراقى، (ت 1209 ه –) تحقيق وتعليق: السيّد محمد كلانتر، تقديم: الشيخ محّمد رضا المظفّر، الطبعة الرابعة، مطبعة النعمان، النجف الأشرف.

63. جامع الشتات: محمد إسماعيل بن الحسين المازندرانى الخواجوئى، (ت 1173 ه)، تحقيق: السيد مهدى الرجائى، الطبعة الأُولى 1418 ه –، منشورات سلسلة آثار المحقق الخواجوئى.

64. الجامع الصغير: جلال الدين السيوطى (ت 911 ه –) الطبعة الأُولى 1401 ه –– 1981 م، منشورات دار الفكر، بيروت – لبنان.

65. جوامع الجامع: الفضل بن الحسن الطبرسى (ت 548 ه –)، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الاسلامى

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة، الطبعة الأولى 1418 ه.

66. جواهر الكلام: الشيخ محمد حسن النجفى (ت 1266 ه -)، تحقيق وتعليق: الشيخ عباس القوچانى، الطبعة الثانية 1365 ش، منشورات دار الكتب الإسلامية - طهران.

67. جواهر المطالب:، محمد بن أحمد الدمشقى الشافعى (ت 871 ه -) تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودى، الطبعة الأُولى 1415 ه -، منشورات مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم المقدّسة.

- حرف الحاء -

68. حاشية رد المختار: ابن عابدين (ت 1252)، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، سنة الطبع: 1415 ه -- 1995 م منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

69. حاشية رفيع الدين النائينى على أصول الكافى: رفيع الدين محمد بن حيدر النائينى (ت 1082 ه -) تحقيق: محمد حسين الدرايتى، الطبعة الأُولى 1424 ه -- 1382 ه - ش، منشورات دار الحديث للطباعة والنشر.

70. الحدائق الناضرة: الشيخ يوسف البحرانى (ت 1186 ه -)، منشورات مؤسسة النشر الإسلامى التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة

71. الحديقة الهلالية: محمد بن الحسين العاملى المعروف بالشيخ البهائى، (ت 1030 ه)، تحقيق: السيد على الخراسانى، الطبعة الأُولى 1410 ه -، منشورات مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم المشرّفة.

72. حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين، محمد بن موسى الدميرى، (ت 1405 م) الطبعة الأُولى 2007 م، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان.

- حرف الخاء -

73. الخرائج والجرائح: قُطب الدين الراوندى، (ت 573 ه -) تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدى عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، قم المقدّسة.

74. خصائص الأئمّة: الشريف الرضى (ت 406 ه -)، تحقيق: د. محمد هادى الأمينى، نشر: مجمع البحوث الإسلامية فى الإستانة الرضوية المقدسة - مشهد المقدسة، طبعة عام 1406 ه -.

75. الخصال: الشيخ الصدوق (ت 381 ه -)، تحقيق: على أكبر الغفارى، نشر: جماعة المدرسين - قم المقدّسة، بدون تاريخ.

- حرف الدال -

76. الدّر المنثور فى التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطى (ت 911 ه -)، دار المعرفة، الطبعة الأُولى 1365 ه -.

77. الدعوات: أبو الحسين، سعيد بن هبة الله المشهور ب – قطب الدين الراوندى (ت 573 ه –)، الطبعة الأولى 1407 ه –، منشورات مدرسة الإمام المهدى عجل اللّه تعالى فرجه الشريف – قم المقدّسة.

78. ديوان دعبل الخزاعى: دعبل بن علىّ الخزاعى (ت 246 ه –) الطبعة الأُولى، 1417 ه –– 1997 م، مؤسسة الأعلمى، بيروت – لبنان.

79. ديوان ميراث المنبر: الشيخ محمد سعيد المنصورى (ت 1428 ه –)، طبع ونشر: دار المنصورى، الطبعة الأُولى 1423 ه –.

– حرف الذال –

80. الذريعة: الشيخ آقا بزرگ الطهرانى (ت 1389 ه –)، الطبعة الثالثة 1403 ه – 1983 م، منشورات دار الأضواء بيروت – لبنان.

– حرف الراء –

81. روضة الواعظين: محمد بن الفتّال النيسابورى (ت 508 ه –)، تحقيق: السيد محمد مهدى الخرسان، منشورات الشريف الرضى – قم.

82. رياض المدح والرثاء: الشيخ حسين على سلمان البلادى البحرانى، انتشارات المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، الطبعة الرابعة 1426 ه –.

– حرف الزاء –

83. زاد المسير: ابن الجوزى، (ت 597 ه –)، تحقيق محمد بن عبد الرحمن عبد الله، الطبعة الأُولى 1407 ه –، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

84. زبدة البيان: أحمد بن محمد، الشهير بالمقدّس الأردبيلى، (ت 993 ه –)، حققه وعلَّق عليه: محمد الباقر البهبودى، عنيت بنشره المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران – ناصر خسرو.

85. زهر الربيع: السيّد نعمة الله الجزائرى، المتوفَّى سنة 1112 ه –.

– حرف السين –

86. سفينة البحار: الشيخ عباس القمى (ت 1359 ه –)، مطبعة دار الأسوة، قم المقدّسة، الطبعة الثانية 1416 ه –.

87. السيرة الحلبية: الحلبى، (ت 1044 ه –)، سنة الطبع 1400 ه –، المطبعة بيروت، دار المعرفة منشورات دار المعرفة.

– حرف الشين –

88. شجرة طوبى: المحدّث الجليل الشيخ محمد مهدى الحائرى، منشورات المكتبة الحيدرية، الطبعة الخامسة 1385 ه –.

89. شرائع الاسلام: أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن، المشتهر ب - المحقق الحلى، (ت 676 ه -) مع تعليقات السيد صادق الشيرازى، الطبعة الثانية 1409 ه -، انتشارات استقلال، طهران - ناصر خسرو، 1983 م - 1403 ه طبع بموافقة مؤسسة الوفاء، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.

90. شرح أصول الكافى: المولى محمد صالح المازندرانى (ت 1081 ه -).

91. شرح الرضى على الكافية: رضى الدين الاسترآبادى (ت 686 ه -) تحقيق: يوسف حسن عمر، منشورات مؤسسة الصادق، طهران 1395 ه -- 1975 م.

92. شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبى العزّ الحنفى (ت 792 ه -)، الطبعة الرابعة 1391 ه -، منشورات المكتب الإسلامى، بيروت - لبنان.

93. شرح نهج البلاغة: ابن أبى الحديد المعتزلى (ت 656 ه -)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة منشورات المرعشى النجفى، نشر: دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.

94. الشفاء الروحى: عبد اللطيف البغدادى، معاصر.

95. شواهد التنزيل: عبيد الله بن أحمد، المعروف بالحاكم الحسكانى (ت القرن الخامس الهجرى)، تحقيق وتعليق: الشيخ محمد باقر المحمودى، الطبعة الأُولى 1411 ه -- 1990 م، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامى، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، طهران - إيران.

- حرف الصاد -

96. الصحاح: إسماعيل بن حمّاد الجوهرى (ت 393 ه -)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الأُولى 1376 ه - 1956 م، منشورات دار العلم للملايين، القاهرة.

97. الصحيفة السجادية: الإمام زين العابدين عليه السلام (ت 94 ه -) المطبعة والنشر جماعة المدرسين - قم المقدّسة.

98. الصراط المستقيم: الشيخ زين الدين، أبو محمد على بن يونس العاملى النباطى البياضى، (ت 877 ه -)، صحَّحه وحقَّقه وعلَّق عليه: محمد الباقر البهبودى، عنيت بنشره المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، الطبعة الأولى 1384 ه -.

- حرف الطاء -

99. الطريق إلى منبر الحسين: الخطيب المرحوم الشيخ عبد الوهاب الكاشى، انتشارات الشريف الرضى، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى 1421 ه -.

- حرف العين -

100. علل الشرائع: الشيخ الصدوق (ت 381 ه -)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، طبعة عام 1386 ه -.

101. علوم القران: السيد محمد باقر الحكيم (ت 1424 ه -)، منشورات مجمع الفكر الإسلامى، الطبعة الثالثة 1417 ه.

102. عمدة الطالب: جمال الدين، أحمد بن على المعروف بابن عنبة (ت 828 ه -) تحقيق: محمد حسن آل الطالقانى، الطبعة الثانية 1380 ه -- 1961 م، منشورات المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف.

103. عمدة القارى: العينى، (ت 855 ه -) مطبعة ونشر دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان.

104. العهود المحمّدية: عبد الوهاب الشعرانى (ت 973 ه -)، الطبعة الثانية 1393 ه. 1973 م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، شريف محمود الحلبى وشركاه خلفاء.

105. عيون أخبار الرضا: الشيخ الصدوق (ت 381 ه -) تحقيق: الشيخ حسين الأعلمى، الطبعة الأُولى 1404 ه -، منشورات مؤسسة الأعلمى بيروت - لبنان.

106. عيون الحكم والمواعظ: على بن محمد الليثى الواسطى (ت القرن السادس)، تحقيق: حسين الحسنى البيرجندى، نشر دار الحديث، الطبعة الأُولى 1376 ش.

- حرف الغين -

107. غاية المرام: السيد هاشم البحرانى (ت 1107 ه -) تحقيق: السيد عاشور.

108. الغدير: الشيخ عبد الحسين الأمينى (ت 1392 ه -) الطبعة الرابعة 1397 ه -- 1977 م، منشورات دار الكتاب العربى، بيروت - لبنان.

- حرف الفاء -

109. فتح الأبواب: أبو القاسم، على بن موسى ابن طاووس الحسنى، (ت 664 ه -) تحقيق: حامد الخفّاف، الطبعة الأُولى 1409 ه - 1989، منشورات مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت - لبنان.

110. فتح البارى: ابن حجر، شهاب الدين العسقلانى (ت 852 ه -) الطبعة الثانية، طباعة ونشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.

111. فتح القدير: الشوكانى، (ت 1255 ه -) منشورات عالم الكتب.

112. الفرج بعد الشدّة: للقاضى أبى على المحسن، ابن أبى القاسم التنوخى (ت 384 ه -)، منشورات الشريف الرضى، الطبعة الثانية.

113. فقه الرضا: الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام، على بن بابوية القمى، (ت 329 ه -)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم المشرّفة، الطبعة الأُولى 1406 ه -، منشورات المؤتمر العالمى للإمام الرضا عليه السلام، مشهد المقدّسة.

114. فقه القرآن: قطب الدين، سعيد بن هبة الله الراوندى (ت 573 ه -) تحقيق: السيد أحمد الحسينى،

الطبعة الثانية 1405 ه -، منشورات مكتبة المرعشى النجفى، قم المقدّسة.

115. فى رحاب التوبة: السيد محمد مجاهد، تحقيق: ناصر الباقرى البيدهندى، انتشارات زائر، الطبعة الأُولى 1377 ش.

116. فيض القدير: محمد عبد الرؤوف المناوى (ت 1331 ه -)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأُولى 1415 ه -.

- حرف القاف -

117. القاموس المحيط: الفيروزآبادى (ت 817 ه -) مجهولة.

118. القرآن وإعجازه العلمى: اسماعيل إبراهيم، معاصر، منشورات دار الفكر العربى.

119. قرب الإسناد: السيد الحميرى أبو العباس عبد الله البغدادى (ت 300 ه -)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى 1413 ه -.

120. قصص الأنبياء: قطب الدين، سعيد بن هبة الله الراوندى (ت 573 ه -) تحقيق: غلام رضا عرفانيان، الطبعة الأُولى 1418 ه -- 1376 ش، منشورات الهادى.

121. قصص الأنبياء: السيد نعمة الله الجزائرى (ت 1112 ه -)، بدون تاريخ.

- حرف الكاف -

122. الكافى: الشيخ محمد بن يعقوب الكلينى (ت 329 ه -)، تحقيق: على أكبر الغفارى، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة 1388 ه -.

123. كامل الزيارات: جعفر بن محمد بن قولويه، (ت 367 ه -)، تحقيق: الشيخ جواد القيومى الطبعة الأُولى 1417 ه -، جماعة المدرسين، منشورات مؤسسة الفقاهة.

124. الكامل فى التاريخ: أبو الحسن على بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير الجزرى (ت 630 ه -)، الطبعة الأُولى 1407 ه -، دار الكتب العلمية، بيروت.

125. كتاب الصلاة: التنقيح فى شرح العروة الوثقى: تقريراً لبحث السيد أبى القاسم الموسوى الخوئى (1413 ه -) بقلم الميرزا على الغروى التبريزى، الطبعة الثالثة 1410 ه -، منشورات دار الهادى للمطبوعات قم.

126. كتاب العين: الفراهيدى، الخليل بن أحمد (ت 170 ه -) تحقيق: الدكتور مهدى المخزومى، الدكتور إبراهيم السامرائى، الطبعة الثانية 1409 ه -، مؤسسة دار الهجرة.

127. كتاب المكاسب: الشيخ مرتضى الأنصارى (ت 1281 ه -)، إعداد لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، الطبعة الأُولى 1415 ه -، منشورات المؤتمر العالمى بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاد الشيخ الأنصارى.

128. الكشّاف: الزمخشری (ت 538 ه‍ -) سنة الطبع 1385 ه‍ -- 1966 م، منشورات شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباب الحلبی وأولاده بمصر.

129. كشف الغمة: الشيخ على بن عيسى بن أبى الفتح الأربلى (ت 693 ه‍ -)، الطبعة الثانية 1405 ه‍ -، دار الأضواء، بيروت.

130. كمال الدين وتمام النعمة: الشّيخ الصّدوق (ت 381 ه‍ -) تحقيق: على أكبر الغفارى منشورات مؤسسة النشر الإسلامى، جماعة المدرسين، قم المقدّسة.

131. كنز العمال: علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى، (ت 975 ه‍ -)، تحقيق: الشيخ بكرى حيانى والشيخ صفوة السفا، مؤسسة الرسالة 1409 ه‍ - 1989 م بيروت - شارع سوريا.

132. كنز الفوائد: المحدّث الخبير العلاّمة أبو الفتح محمد بن على الكراجكى (ت 449 ه‍ -)، الطبعة الثانية 1410 ه‍ -، منشورات مكتبة المصطفوى، قم المقدّسة.

- حرف اللام -

133. لُب الأثر فى الجبر والقدر: محاضرات روح الله الموسوى الخمينى (ت 1409 ه‍ -)، تقرير: الشيخ جعفر السبحانى، الطبعة الأُولى 1418 ه‍ - 1377 ه‍ ش، منشورات مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.

134. لسان العرب: ابن منظور (ت 711 ه‍ -)، نشر أدب الحوزة قم - إيران، 1405 ه‍ -.

135. اللهوف: السيد ابن طاووس (ت 664 ه‍ -) الطبعة الأُولى 1417 ه‍ -، منشورات أنوار الهدى، قم المقدّسة.

136. اللهوف على قتلى الطفوف: السيد ابن طاووس، المترجم: عبد الرحيم عفيفى بخشايشى، الطبعة الخامسة 1378 ش، انتشارت دفتر نشر مؤيد إسلام، قم المقدّسة.

- حرف الميم -

137. مثير الأحزان: ابن نما الحلى (ت 645 ه‍ -)، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، طبعة عام 1359 ه‍ -.

138. مجمع البحرين: الشيخ فخر الدين الطريحى (ت 1085 ه‍ -) تحقيق: السيد أحمد الحسينى، الطبعة الثانية 1408 ه‍ -، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية.

139. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: نور الدين الهيثمى (ت 807 ه‍ -)، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة عام 1408 ه‍ -.

140. مجمع مصائب أهل البيت عليهم السلام: الشيخ محمد الهنداوى، منشورات الشريف الرضى، بدون تاريخ.

141. المحاسن: أحمد بن محمد بن خالد البرقى (ت 247 ه‍ -) تحقيق وتعليق: السيد جلال الدين الحسينى (المحدّث) الناشر: دار الكتب الإسلامية، طهران 1370 ه‍ -

142. المحرر الوجيز: ابن عطية الأندلسى (ت 546 ه -)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافى محمد، الطبعة

ص:411

الأولى 1413 ه -- 1993 م، منشورات دار الكتب العلمية.

143. مختار الصحاح: محمد بن أبی بكر بن عبد القادر الرازی، (ت 721 ه -)، تحقيق: أحمد شمس الدين، طبع ونشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة الأُولى 1415 ه -.

144. مدينة المعاجز: السيد هاشم البحرانی (ت 1107 ه -) تحقيق: الشيخ عزة الله الهمدانی، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى 1413 ه -.

145. المراقبات: الشيخ جواد الملكی التبريزی، (ت 1343 ش)، مجهولة.

146. المزار، محمد المشهدی (ت 610 ه -)، تحقيق: جواد القيومی، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامی، انتشارات القيوم، الطبعة الأُولى 1419 ه -.

147. المستجاد من الإرشاد: جمال الحقّ والدين، حسن بن المطهّر الحلی، المشتهر بالعلاّمة الحلی، (ت 726 ه -)، منشورات مكتب آية الله العظمی المرعشی النجفی - قم.

148. مستدرک سفينة البحار: الشيخ علی النمازی الشاهرودی، (ت 1405 ه -) تحقيق وتصحيح: نجل المؤلف الحاج الشيخ حسن بن علی النمازی، مؤسسة النشر الإسلامی التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة 1418 ه -.

149. المستدرک علی الصحيحين: الحاكم النيسابوری، (ت 405 ه -) تحقيق وإشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلی.

150. مستدرک وسائل الشيعة: الشيخ النوری الطبرسی (1320 ه -)، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الثانية 1408 ه -.

151. مُسكن الفؤاد: الشهيد الثانی زين الدين الجبعی العاملی (ت 966 ه -)، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم المقدّسة، الطبعة الأُولى 1407 ه -.

152. مسند أحمد: أحمد بن حنبل (ت 241 ه -) دار صادر، بيروت - لبنان.

153. مشكاة الأنوار: أبو الفضل علی الطبرسی (ت القرن السابع)، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، الطبعة الثانية 1385 ه -.

154. مصباح المتهجد: الشيخ الطوسی (ت 460 ه -) الطبعة الأُولى 1411 ه -- 1991 م، منشورات مؤسسة فقه الشيعة، بيروت - لبنان.

155. المصباح: الشيخ تقی الدين إبراهيم بن علی الحسن بن محمد بن صالح العاملی الكفعمی، (ت 905 ه -)، الطبعة الثالثة 1403 ه - 1983 م، منشورات مؤسسة الأعلمی للمطبوعات بيروت - لبنان.

156. معانی القرآن: أبوجعفر النحاس (ت 338 ه -)، تحقيق: الشيخ محمد علی الصابونی، الطبعة الأُولى 1408 ه -- 1988 م.

157. المعتبر: نجم الدين، أبو القاسم جعفر بن الحسن، المحقق الحلى (ت 676 ه -)، حقّقه وصحّحه عدة من الأفاضل، مؤسسة سيد الشهداء 1364 ش.

158. المعجم الأوسط: الحافظ الطبرانى، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت 360 ه -) تحقيق ونشر قسم التحقيق بدار الحرمين 1415 ه - - 1995 م.

159. معجم الشعراء: كامل سلمان الجبورى، منشورات محمد على بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأُولى 1424 ه -.

160. معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395 ه -) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامى، 1404 ه -.

161. مغنى اللبيب: ابن هشام الأنصارى (ت 761 ه -) تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشى النجفى، 1404 ه -، قم المقدّسة.

162. مفردات غريب القرآن: الراغب الأصفهانى (ت 502 ه -)، الطبعة الثانية 1404 ه -، منشورات دفتر نشر الكتاب.

163. مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الأصفهانى (ت 356 ه -)، الطبعة الثانية 1385 ه -- 1965 م، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتُها، النجف الأشرف.

164. مقتل الحسين (أبو مخنف): لوط بن يحيى بن سعيد الأزدى الغامدى (ت 157 ه -)، تحقيق: الميرزا حسن الغفارى، المطبعة العلمية، انتشارات المرعشى النجفى، طبعة عام 1398 ه -، قم المقدّسة.

165. المقنعة: الشيخ المفيد، محمد بن النعمان البغدادى العكبرى (ت 413 ه -)، الطبعة الثانية 1410 ه -، مؤسسة النشر الإسلامى، جماعة المدرسين، قم المقدّسة.

166. مكارم الأخلاق: الطبرسى الحسن بن الفضل بن حسن، من أعلام القرن السادس الهجرى (ت 548 ه -)، منشورات الشريف الرضى - قم المقدّسة، الطبعة السادسة 1392 ه -.

167. مكيال المكارم: ميرزا محمد تقى الموسوى الأصفهانى، أبو عبد الله (ت 1348)، تحقيق: السيد على عاشور، منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، الطبعة الأُولى 1421 ه - 2001 م، بيروت - لبنان

168. من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام: عبد العظيم المهتدى البحرانى، معاصر، الطبعة الأُولى 1421 ه -- 2000 م، انتشارات الشريف الرضى، قم - إيران.

169. مَن لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق (ت 381 ه -) تحقيق: على أكبر الغفارى، الطبعة الثانية، منشورات مؤسسة جماعة المدرسين، قم المقدّسة

170. مناقب آل أبى طالب: ابن شهر آشوب (ت 588 ه -)، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف،

المطبعة الحيدرية – النجف الأشرف، طبعة عام 1376 ه –.

171. منيـة المريد: الشـيخ زين الدين بن على العاملى، المعروف بالشـهيد الثانى (911 ه –– 965 ه –) تحقيق: رضـا المختارى، الطبعة الأُولى 1409–1368 ش، منشورات مكتب الإعلام الإسلامى.

172. ميزان الحكمة: الشيخ محمد الرى شهرى، نشر دار الحديث، الطبعة الأُولى.

173. الميزان فى تفسير القرآن: العلاّمة محمد حسين الطباطبائى (ت 1402 ه –)، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدّسة.

– حرف النون –

174. النهاية: شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسى (ت 460 ه –)، انتشارات قدس محمدى، قم المقدّسة.

175. نهج الإيمان: ابن جبر، زين الدين، على بن يوسف بن جبر من أعلام القرن السابع الهجرى، تحقيق: السـيد أحمد الحسـينى، الطبعة الأُولى 1418 ه –، منشورات مجمع الإمام الهادى عليه السلام مشهد المقدّسة.

176. نهج البلاغة: خطب الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام (ت 40 ه –)، تحقيق: الشيخ محمد عبده، دار المعرفة.

– حرف الواو –

177. وسائل الشـيعة: الحر العاملى، (ت 1104 ه –) تحقيق ونشـر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الثانية 1414 ه –، المطبعة مهر – قم.

178. وفيات الأعيان: ابن خلكان (ت 681 ه –)، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الثقافة، لبنان.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

(التوبه : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمية لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجانًا. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والنذور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضًا الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟

ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟

تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلات:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹